

مدينة الغرباء

مطالع نيويوركية



جمال الغيطاني



مدينـــة الغـربـــاء

مطالـع نيويوركية

تأليف

جمال الغيطانـي



العنوان:

مدينة الغرباء

مطالع نيويوركية

تأليف:

جمال الغيطاني

الغلاف واللوحات الداخلية:

للفنان إدوارد هوبر

إشراف عام:

داليا محمد إبراهيم

الترقيم الدولى: 977-14-2002-x
رقم الإيداع: 10893 / 2010
الطبعة الثانية: يناير 2012



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

21 شارع أحمد عرابى-
المهندسين - الجيزة

تليفون: 33466434 - 33472864 02
فاكس: 33462576 02
خدمة العملاء: 16766
Website: www.nahdetmisr.com
E-mail: publishing@nahdetmisr.com

إلى محمد وماجدة

لسعيهما الذي سوف يُرى



سـفـر...

اثنتا عشرة ساعة، عبور مكاتب الجوازات، العديد من أصدقائه يتصلون به، اتجهنا إلى قاعة انتظار الدرجة الأولى ورجال الأعمال التي سيسافر عليها، التليفزيون مفتوح باستمرار، سيدة متقدمة في العمر، لا أدري لماذا كنت واثقًا من معرفة قديمة بها، رجل يرتدي الزي الخليجي، بارز الكرش بشكل لافت للنظر، ما بين اتصالات محمد المتعددة، وحديث متقطع، وتأمل للعابرين، ومتابعة للأخبار انقضى الوقت، ستقلع الطائرة في موعدها، العاشرة والربع.

أخيرًا نودي علينا..

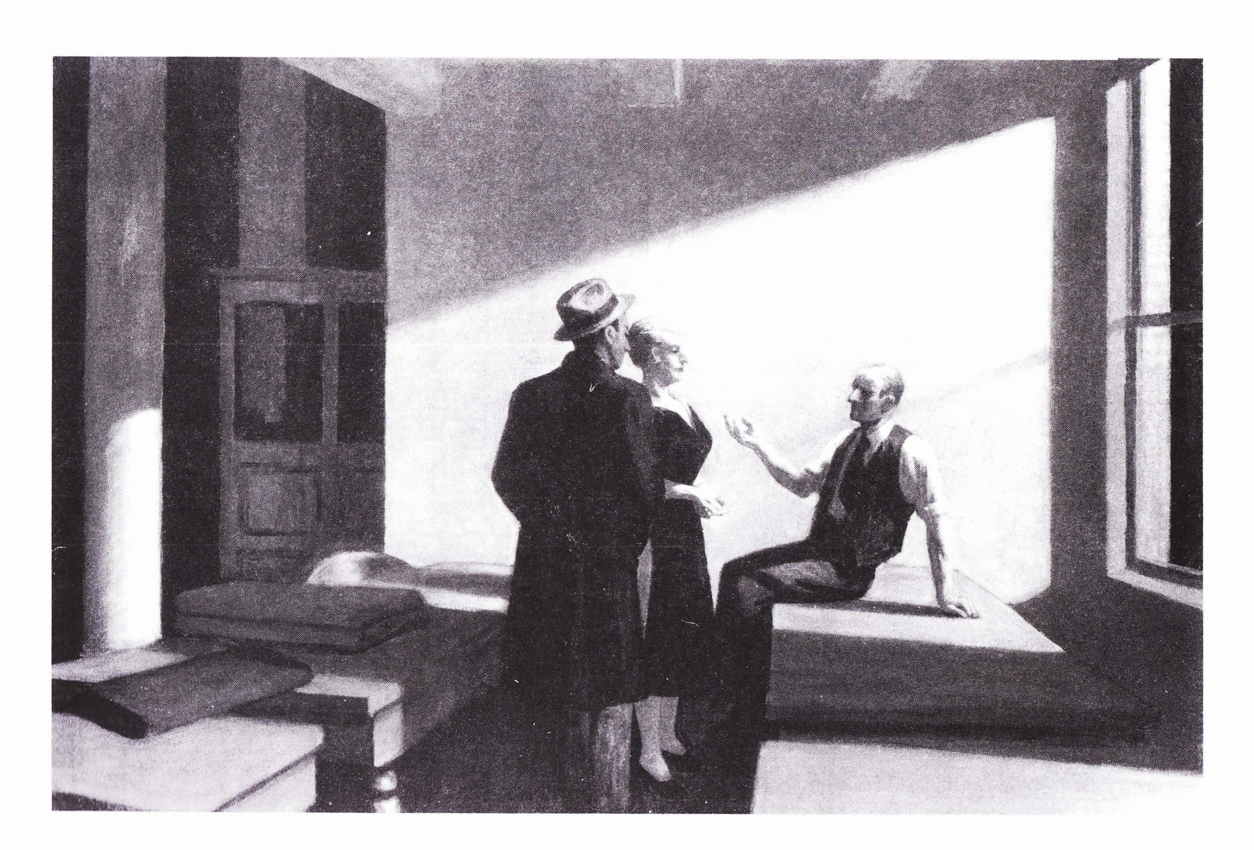
عند بوابة الرحيل الأخيرة توقفت، بعدها يتجه مباشرة إلى الطائرة، معظم الركاب صعدوا إلى الطائرة، خلع محمد الحزام، والساعة، وضع الهاتف المحمول والحزام في صندوق صغير سيدخل ماكينة الأشعة الكاشفة.

يجتاز الباب بعد أن عانقته، ينحني محاولاً تقبيل يدي، أقبل رأسه، ذلك ملمس شعره، بعد اجتيازه البوابة يتوقف قليلاً، يلوح لي، يتجه إلى الممر المؤدي للطائرة، يتوقف عند منتصفه، يلوح، يبدو أن أحدهم هاتفه، يرفع المحمول، يتجه إلى الطائرة.

ربما تساءل ضابط الشرطة الواقف بجوار البوابة عن تطلعي وتحديقي، عن ثبات نظري في اتجاهه، محاولاً استيعاب اللحظة، متسائلًا عن اللحظة الأخرى الكامنة في المجهول والتي سأراه فيها مرة أخرى..

الجمعة

رغم ساعتي الداخلية التي لا تخطئ بسبب ستين عامًا أمضيتها في الالتزام، مواعيد العمل، مواعيد الأصدقاء، مواعيد عملي الخاص، حتى بعد تحرري من مواعيد الحضور والانصراف، الدقيقة التي كنت أحرص عليها خشية خصم اليوم، أولًا من إجازتي وثانيًا من مرتبي، فإنني أكثر التزامًا بالمواعيد التي حددتها لنفسي حتى ينتظم مساري، النهار للعمل والمساء للأدب، رغم التوقيت الداخلي الذي يجعلني أستيقظ في الموعد عينه، فإنني أبادر إلى النظر في الساعة التي أحرص على وضعها إلى جواري، في متناول يدي، إذا ما وجدت الوقت مبكرًا، أي أنني استيقظت قبل توقيتي بعشر أو عشرين دقيقة، فإنني أغمض عيني مرتاحًا إلى هذا الوقت الذي سأمضيه في الفراش، دائمًا ما يفصل بيني وبين استيقاظي وقت محدود جدًّا لا يتاح لي فيه التأمل، استعادة ما رأيناه في المنام، تلك الوجوه الغريبة التي تفد علينا، وتلك الأحداث التي لا يربطها منطق، فستعرض ما ينتظرنا خلال النهار، بعض الأحداث الصغيرة التي تثير بهجتنا تحدد مذاقًا ولونًا لليوم، موعد مع صديق حميم، ارتباط مع من نرتاح إليهم، وربما يمضي الأمر في الاتجاه المعاكس، لم أعرف متعة النوم إلى الحد الذي أشعر معه بالراحة طوال عمري، المدرسة، طابور الصباح، ثم بدء العمل في سن مبكرة، الحضور والانصراف، منذ عام أربعة وسبعين، حتى الخامس والثمانين من القرن الماضي، كانت علاقتي بالعمل قلقة، كانت صلتي بالمرحوم موسى صبري حميمة، ولكن الظروف العامة كانت أكبر منه ومني، كنت أسكن حلوان، أقطع المسافة يوميًّا لأكون في التاسعة صباحًا أمام ساعة الحضور، أوقع ثم أواجه الفراغ، لا عمل محدد، لا التزام، كنت عضوًا في قسم أنشئ ليكون بمثابة جراج لغير المرضيِّ عنهم، كان قسم الدراسات يضم مصطفى طيبة، وعادل حسين،



وجمال بدوي، وجمال الشرقاوي، قلت للمرحوم موسى صبري إنني أقطع مسافة طويلة لأوقع فقط في دفتر الحضور، فهل من الممكن إعفائي من هذا الإجراء السخيف الذي يبدو لي عبثيًا، إلا أنه كان صارمًا فيما يتعلق بتنظيم العمل، كان التوقيع في الساعة تقليدًا صميمًا في دار أخبار اليوم، مازلت أذكر دخول المرحوم مصطفى أمين، يتجه مباشرة إلى الساعة، يوقع حضورًا، وعند الخروج يوقع انصرافًا، لم يكن مطلوبًا منه ذلك، لكنه كان يعطي الآخرين درسًا، كنت أسمع عن آخرين ينتسبون إلى الدار، لا يجيئون ولا يظهرون بل إن بعضهم لا يأتي حتى لقبض مرتبه في أول الشهر، فقد حوله إلى البنك، وكنت أتساءل، إذا كنت لا أكلف بعمل محدد فلماذا لا أكون مثلهم، عندئذ يصبح وقتي كله للأدب، لم يحدث هذا قط، وعندما أتيح لي ألا أوقع في الحضور، الحضور خاصة، أصبحت أكثر التزامًا.

أتطلع إلى الساعة، تمام، تمام، نفس التوقيت، أتوقف عند تاريخ اليوم، طوال الأسابيع الماضية أتطلع إلى اليوم، إلى الشهر، ويغمرني هذا الحال المستجد.

يوليــو 21، 22، 23، 24

في اليوم الواحد والثلاثين منه ستقلع الطائرة المصرية صوب نيويورك في تمام العاشرة صباحًا، نرى الطائرات تطير، والقطارات تسعى، والسفن ترحل، نرى ركابها في المجموع، لكننا لا نتوقف عند دافع كل منهم للترحال، للسفر، أجاور الركاب، لا أفكر في محاورتهم أو التعرف إليهم، كثيرًا ما تكون أسفاري فرصة لخلوي بذاتي، للترحال داخلي، كما أن وسائل السفر الحديثة لا تتخللها تلك الحميمية التي كانت تسري في الماضي عبر الانتقال بالقطارات، في أحد أيام الأربعينيات أنشد محمد عبدالوهاب..

لو طال الوقت على الركاب

يقضوا الوقت في كلام وعتاب

بعـد شـوية يبقـوا احباب

لم يعد ذلك قائمًا الآن، أحيانًا أسافر أماكن قصية بالطائرة، لا أعرف شيئًا عن جاري، بل قد يبدر منه ما يعني الصد، وقد يصدر ذلك عني، أحيانًا يقع الحوار، نتبادل العناوين، البطاقات، لا أذكر أنني سعيت مرة إلى الاتصال برفيق سفر، ولم يتفق هذا معي أيضًا من أي منهم.

سيرى ركاب هذه الرحلة ذلك الشاب، طويل القامة، مصري الملامح، ربما يتحدث إلى بعضهم، ربما تبقى ملامحه في ذاكرة عدد منهم، لن يعرف أحد أنه ابني، ابني البكري، الوحيد، وأنه يسافر ليبدأ مرحلة جديدة في حياته، صحيح أنه سافر مرات عديدة من قبل، لكنها فترات قصيرة يعود بعدها إلى سياق حياتنا معًا، لكن في هذه المرة سيمضي أربع سنوات، سنصبح نحن الاستثناء، فلن نراه إلا في الإجازات، عندما يجيء إلى القاهرة مرة في العام لأسبوعين في العام، أو نذهب إليه لعدة أيام، سيحل علينا ضيفًا بعد أن كان مقيمًا، وسنحل عليه ضيوفًا، ستصبح الأطراف المؤتلفة عمرًا عابرًا كل منها للآخر.

أعرف ذلك، تعرف أمه ذلك، تعرف شقيقته ذلك منذ ثلاثة أعوام عندما اختار عمله هذا الذي أعد له العُدة منذ زمن طويل، لكن خلال الرحلة تستغرقنا التفاصيل اليومية عن نقطة البلوغ، فجأة نجد أنفسنا نتأهب للوصول، للبلوغ، للحلول في تلك اللحظة الفارقة التي لن يكون ما قبلها فيما يليها، سينشأ وضع آخر، في مضمونه أفضل لكنه ليس ذلك الذي عرفناه، عشناه معًا، المؤكد أن ما كان لن يكون..

يوليــو 25، 26، 27، 28...

تجيش الروح بالكثير، الصعب هو التوفيق بين ما تستثيره الفترة من أشجان رهيفة، وما يجب أن تظهره من مسرة وابتهاج، أحيانًا تملي علينا الظروف التواري من مشاعرنا الحقيقية في مواجهة الآخرين، خاصة إذا كانوا من ذوي القربى، أعرف أنه يمر بما نمر به، تفلت منه عبارات دالة، كقوله إن أصعب ليلة عنده ليلة السفر.

أحذر أمه من إبداء أي تضعضع يمكن أن يثير كوامنه، أقول هذا وأنا أتبسبس من داخلي وأجاهد الكتمان، تبتسم ماجدة، تقول إنها لحظة طالما تمنتها، إنها فخورة، تياهة به، أن يبدأ حياته العملية في منظمة دولية مرموقة، تصمت لحظة ثم تقول «لكنني أعرف أن ما كان لن يكون..».

يوليــو 29، 30...

بعد واحد وأربعين عامًا أدرك معنى تلك النظرة التي لمحتها في عيني أبي ذات يوم من عام خمسة وستين، وإن كنت أرانا في ملابس صيفية، إذن كان الوقت صيفًا، يقف أبي فوق رصيف المحطة، أجلس إلى جوار النافذة، الدرجة الثانية في إحدى عربات المجري، القطار الحديث وقتئذ، نتبادل الصمت بالنظر، يتطلع إليَّ، تحتويني عيناه، لكنني أحيد، يرفض الانصراف، كنت أتجه جنوبًا لتنفيذ أمر النقل الذي صدر فجأة، وجب عليَّ التنفيذ خلال ثمان وأربعين ساعة، إلى المنيا، منذ أن التحقت بمؤسسة التعاون الإنتاجي أسافر بانتظام للتفتيش على مصانع السجاد في المدن والقرى، في أول مرة جئت إلى موقف حافلات الأقاليم كانت المهمة إلى كفر الشيخ، أصرَّ على أن يصحبني، وعندما تحرك الأوتوبيس فوجئت أنه يجري بجواره وكأنه يأبى أن يفارقني، غير أن سفري هذا وجل أسفاري كانت مؤقتة، أرحل لأيام وأرجع، في هذه المرة يختلف الأمر، إنني منقول، والنقل أمر

ظل أبي يخشاه طوال عمله، إذ كان يصدر كعقاب وليس لضرورة، ينطبق هذا على نقلي هذا، أما الأسباب فقد شرحتها في مواضع أخرى مما دونته، لحظتان سدد أبي إليّ النظر الغامض، الغريب، ولم أدرك إلا بعد فوات الأوان، غريب أمرنا، إذ تستعصي أشياء علينا في لحظتها، ثم تنكشف لنا أبعادها بعد انقضاء المواقيت، بل بعد مرور حقب كاملة، لكنه منطق الدوائر، فبعضها يتصل بسرعة، ومنها ما يستغرق دهورًا، إدراك المعنى نوع من انغلاق الدائرة، من تمامها، من اكتمالها، وفي هذا كله وقف للترحال، وانتفاء للحيرة مع التمام.

بعد واحد وأربعين عامًا سأقف الموقف عينه مع تغاير المضمون، مع اختلاف التفصيل، سأتطلع إلى محمد بنفس العينين، بنفس النظرة الطويلة، المرسالة، الفياضة، العصية على الإدراك، لأنها تخفي ما يستعصي ولا تبوح إلا بالمتاح الهين.

سأتطلع وأتملى وأحاول الاحتفاظ بكافة التفاصيل التي ستصبح زادي، وسأندم على أوقات كان يمكن أن أقضيها معه ولم أفعل، وعلى أزمنة أمضيتها بعيدًا عنه في وقت كان في حاجة خلالها إليّ ولم ألبَّ، وسيعتصرني الندم لذنوب لا أقدر على تحديدها وأمور يصعب شرحها، أوقن أن قدري الإقامة دائمًا في الفوت، الفوت.

الأحـــد

30 يوليـــو

«حتيجي تزورني يا بابا؟».

أتطلع إليه منخلع الحال، متبدلًا في وضعي، كأني كنت نائيًا فاقتربت، أو قصيًّا فحللت، أنتبه إلى المتبقي، أقل من أربع وعشرين ساعة، غدًا، في مثل

هذا الوقت سيكون في مكان ما فوق البحر الأبيض، مكان متحرك بسرعة تقارب الألف كيلو مترًا، متجهًا غربًا.

أزوره؟

يحل زمن التزاور بيننا، أحل عليه ضيفًا، ينتظرني في المطار، يهيئ مكانًا لي في البيت الذي لا نعرف عنوانه حتى الآن، أي مكان؟

علام تطل الشرفة أو النافذة؟

أي طريق وما شكل المفتاح، المصعد أو السلم؟

يبدي اهتمامًا، يصحبني إلى المتاحف، كأني أفاجأ بحقائق العيش الذي امتد بي وظننت أنني خبرته، فإذا بي في مواجهة ما لم أكن أعرفه، طوال عيشنا معًا، لم تحل تلك الاستثنائية، أدرك أن اكتمال المعنى في عادية الوقائع، في استمراريتها بدون تبدل، بدون خروج عن سياقٍ اعتدناه، بدا مستقرًا، دائمًا وها هو يوشك على الحيدة.

لا ننتبه، لا نفيق إلى قيمة اللحيظات التي تبدو لنا عادية وربما نضيق أحيانًا بما حوت إلا مع انقضاء مسارها، وصوله إلى نقطة فارقة، ينتهي عندها شيء ويبدأ شيء، تتم بنية وتبدأ أخرى، آه لو ندرك قيمة ما نحياه في حينه..

آه لو ندرك!!

رغم أننا نعيش تحت سقف واحد، فإن أيامًا معدودات تمر بدون أن نلتقي، أخرج وهو نائم، يخرج وأنا غائب، أستدل على عودته بصوت إغلاق الباب، كذا خروجه، أطمئن، فأغمض عيني وأواصل، إما الانهماك وإما الإغفاء.

مع كل الأحوال أعرف أننا هنا، مهما تقاطعت أحوالنا، سنلتقي في لحظة، حتى عند سفره، غيابه أيامًا أو حتى أسابيع، فإنه هنا، مكانه متأهب لاستقباله، سريره مرتب أو غير في متناول بصري، حاجياته كذلك، كتبه،

حاسبه الآلي، صوان ملابسه، أحذيته العادية والرياضية، هذا يعني رؤيتي له عند توقيت محدد، يسافر ويرجع، يغيب ويعود، البيت قاعدته، مرتكزه، منه يبدأ وإليه يعود، البيت الآن استثناء، وقته الأطول سيمضيه هناك، حضوره سيصبح إجازة، يتحول الوقت الذي كان أساسيًّا إلى استثنائي، سيجيئني ضيفًا، وسأحل عليه ضيفًا..

30 يوليــو:

مســاءً

هل أغضبته يومًا؟

أنقب في ذاكرتي عن تلك اللحظات التي ضقت فيها به، أو أبديت الجفوة لأسباب أخرى لم أطقها، فاستبدلت الأمر بزعيق أو زجر.

ضربته مرة، صفعته مرة.. مرة واحدة، لكن ما يشفع لي عندي أنها نتاج خشية عليه.

يقف في صالة البيت، يمد يده إلى قابس الكهرباء، يزحزحه من مكانه، يخرجه قليلاً، أنتبه، يوشك على ملامسة الطرفين المعدنيين، بينما يتدفق الصعق، دفعته بعيدًا، زعقت في وجهه متسائلاً عما يفعل. أتبعت ذلك بصفعة، الغريب أنه لم يبك، لم يصرخ، إنما تطلع إليّ بعينيه الفسيحتين، كلها تساؤل: لماذا، لماذا؟

فيما تلا ذلك وتبعه من أيام وليال وأزمنة قصار أو طوال أدركت أنه يتلقى فيكتم، لا يبدي رد الفعل مباشرة، وهذا عين ما عليه أمري، وما كلفني من أمري نصبًا طوال حياتي.

هل يتذكر الصفعة الآن؟

هل ترد على خاطره؟

كيف يستعيدها؟ كيف يتمثلها؟

لعلها لم تؤذه بقدر ما آلمه صمتي، عندما كنت أعاقبه بأن أولي عنه، عندئذ يلمسني، ينطق راجيًا:

«طيب حقك عليَّ..».

إذ أمضي، يلجأ إلى ركن الغرفة، عندما تظهر ماجدة، يبدي ألمًا، يشكو، أختلس النظر لأستوثق، هل يتوجع فعلاً، أم أنه يستثير حالي من أجل استبدال قسوة بحنو.

الآن بعد حوالي ثلاثة عقود ألوم نفسي، لماذا قسوت عليه؟

لماذا لم أصحبه عندما دعاني لنخرج معًا؟

لماذا لم أتحدث إليه طويلاً؟

لماذا لم أستجب لمحاولاته التقرب مني؟

هل قدري معاناة ما يترتب على الفوت؟

عندما يصبح العادي مستحيلاً، عندما يصير ما اعتدناه وظننا أنه باق أبدًا لن يمسه تغيير نائيًا، قصيًّا، تمضي أيامنا بتفاصيل الحياة العادية، لا ننتبه إلى تراكم المتغيرات، تمامًا مثل دوران الأرض حول نفسها، هل نشعر بها؟

بالطبع لا ندرك ذلك إلا من خلال الأعراض، توالي الشروق والغروب، استمرار الحركة التي تبدو لنا عادية، لكنها تحملنا معها، تلفنا، تطوينا طيًّا، حتى إذا حان الحين نندم على ما فرطنا فيه.

هذا بالضبط حالي مع توالي الساعات واقترابها من اللحظة الفارقة، التي لن يكون بعدها ما كان، حتى وإن تبدلت الأوضاع إلى الأفضل على المستوى الفردي.

الحقـــائـــب

أربـــع..

أحجام متقاربة، قبل شهر تقريبًا لم يلحظ أحد وجودها، كل منها في ناحية، مع اقتراب الموعد ظهرت، اثنتان في حجرته، الأخريان في غرفة المعيشة، ثم اصطف الأربعة في الممر المؤدي إلى غرف النوم، تعني الحقائب عندي أمورًا أعرفها، وأخرى لا يمكنني تحديدها، في كل حقيبة نثار حياة، بقايا وجود، فمن المستحيل وضع كل شيء في حقيبة واحدة، تلك الشظايا تدل وتفضي، الحقيبة سر بالنسبة لمن لا يعرفها، مغلقة، لا تبوح بما فيها، ما زلت أذكر شخصًا وقورًا كان يتردد على مقهى اعتدنا ارتياده في وسط المدينة، حقيبة لا تفارقه، إذا جلس يضعها فوق مقعد إلى جواره،وإذا شغلت المقاعد يسندها إلى الجدار بجواره، يتطلع إليها بين الحين والحين، في أحد الأيام وقف متأهبًا للانصراف، يبدو أنه نسي إغلاقها، انفتحت فتناثرت محتوياتها على أرضية المقهى، تطلع حوله مذعورًا، راح يلملم أقراص الدواء، وحافظة الأوراق وبقايا ساندويتش، بعدها لم أره قط، اختفى تمامًا، غاب خبره عني.

ما من مرة أسافر فيها إلا وأتطلع إلى حقيبتي بعد أن يتم وزنها وتمضي فوق السير المتحرك، كأنني أودع كائنًا عزيزًا يمت إليَّ بوثيق الصلة، ها هي حقائب ابني تظهر في الممر، مصطفة، متخذة الوضع الطولي، ما تزال فارغة، ليس هذا سفرًا عابيًا، سيمضي من حياته عدة سنوات هناك على الطرف الآخر من المحيط.

تقول ماجدة إنها ستعدها، سترتب حاجاته وفقًا لنظام خاص حتى يسهل عليه التعامل معها، خاصة أنه لم يتجه من المطار إلى سكن يخصه، إنما سيمضي وقتًا يبحث خلاله عن مقر لإقامته، سيمضي أسبوعًا أو أسبوعين في فندق، مقر إقامة مؤقت حتى يستقر، خلال الأيام السبعة السابقة على السفر،

اعتدت حركتها في البيت، ما بين حجرته والحقيبة الأولى، التي وضعتها وسط الحجرة التي نشاهد فيها التليفزيون، ونتناول أحيانًا طعامنا، قالت إن الحقيبة الأولى ستحتوي على ما يحتاج إليه لمدة أسبوعين، إنها ملخص الأخريات بحيث لن يضطر إلى فتحها كلها، جزء من ملابسه الداخلية، كلها جيدة لم تفض، القطن المصري جيد، رخيص هنا، كل ما يصحبه جديد، جوارب، قمصان، حلل، قعدت إلى جوار الحقيبة المفتوحة، تعد أربطة العنق، تلف كلاً منها بعناية، ثم تضعها في كيس من البلاستيك الخفيف، ترص الجميع في صندوق من الورق المقوى، قالت إن ذلك يقي النسيج الرهيف أي تغضُّن.

لن يفارقني أبدًا جلوسها الهادئ، حركتها المتمهلة لإعداد الثياب والأغراض الأخرى، إلى جوارها دفتر صغير دونت به ما يجب أن يوضع، وما ينبغي أن يصحبه، كلما فرغت من شيء تضع علامة صح أمامه، في دفتر آخر تكتب محتويات الحقيبة حتى يعرف ما بداخل كل واحدة. كنت أختلس النظر إليها عند مروري أمام الغرفة، أو أثناء جلوسي بالقرب منها، أتابع ما تبثه الفضائيات، انحناءتها، قعدتها، حركة أصابعها عندما تمسك بالأشياء، إنما تنحني على وجودها نفسه، تعانق زمنها، ما مضى منه وما سيكون، تخفي أمورًا، رجوتها ألا تذرف دمعًا، فهذا غير مستحب عند سفر الأقربين، ورحت أقول معاني عدة، فابننا يمضي إلى عمل مرموق، لا يغادر مضطرًّا، إنما يمضي إلى حيث تمنى تحقق ذاته، وطوال سنوات بذل جهدًا مضنيًا وها هو يدنو فلنا البهجة، تتطلع إليَّ بعينيها الفسيحتين، كأنها تقول لي: لن تدرك.

أعرف أنه ما من إمكانية لسبر أغوار الأم، صحيح أنني أتهدهد، يدرك الألم رقائق لم يمسسها من قبل، غير أنني لا أفصح، يغلب عليَّ البهت لسرعة مرور الوقت، أعبر الممر إلى الغرفة.

ماجدة تقعد أمام الحقيبة الأولى، مغلقة تمامًا، تنحني، تقبلها..

31 فجــرًا:

نوم قصير لم يستمر إلا ساعتين، كما توقعت، ظلوا مستيقظين، يتبادلون النجوى، في السابعة إلا خمس دقائق تحركت العربتان باتجاه المطار، في الأولى ماجدة وماجي ومحمد، في الثانية الحقائب، جلست بجوار صلاح السائق، حركة الصباح الباكر، كنت قلقًا، تأخرنا حوالي ربع ساعة، أحاول تحييد نفسي، كأني أرقب أمورًا تخص شخصًا آخر. هكذا رحت أمعن في الحال، خاصة عند اقترابنا من المطار، تحدثت إلى الشرطي المكلف باستخراج التصريح الخاص بي ومصاحبتي، جرى ذلك بعد اتصالي بزميلي القديم أسامة شلش، مسئول المطار في الأخبار، هو أيضًا جاري في السكن، تحدث أيضًا إلى مدير المحطات.

توقفت السيارتان، نزلت متجهًا إلى أمين الشرطة الذي كان ينتظرني، أحضر صلاح عربة للحقائب، أربع، كل منها كبيرة الحجم، خامسة صغيرة، خاصة بالكتب، نزلت ماجدة باكية، عيناها تدمعان رغم كافة تحذيراتي، ولجوئي إلى كافة الوسائل بما فيها الحديث عن التفاؤل والتشاؤم، وما يجب أن يتذكره عن لحظات المطار التي ستصبح بمثابة الحد الواضح الذي تسبقه أو تتبعه شتى اللحظات عبر الذاكرة، يبدو أننا نحن الرجال مهما بلغت رهافة مشاعرنا لن نقدر أبدًا ما تعنيه الأمومة، مازلت أذكر عبارتها الدالة التي لفظتها بما يشبه الهمس:

«لن تعود حياتنا كما كانت».

أحاول تجاوز تلك اللحيظات، أنبه إلى ضرورة دخولنا حرصًا على الوقت، أخيرًا.. أصحب (محمد) إلى داخل المطار، يمضي أمين الشرطة لإحضار التصريح، نعبر بوابات الرحيل، نتجه إلى المكان المخصص لتسجيل الركاب، كنت مزودًا باسم «مرحل الطائرة» تعبير لأول مرة أسمعه، قوبلنا

بترحيب، تحت الإجراءات التي أصبحت بالنسبة لي مكررة، لكنني هذه المرة لست المسافر، إنما هو ابني، سفر غير كل الأسفار.

وزن الحقائب، دفع فروق الوزن الزائد، اختيار المقعد الملائم لرحلة طويلة.

30 ليـــلاً:

لم يتبق إلا ساعات ويقلع، منذ عامين أعرف أنه سوف يسافر ليبدأ مرحلة جديدة من عمله، تبدو مدة عامين طويلة لمن يتطلع إليها في بدايتها.

ياه، ما زال الوقت طويلاً، باق عامان..!

غير أن تحديد المدة، أي مدة يعني بدء نفاد الرصيد، ينسل شيئًا فشيئًا، يومًا بعد يوم، حتى تقترب اللحظة التي نعرفها، وندرك حلولها قبل مدة، لكن مع الدنو تنتابنا دهشة، نستعيد ما كان، نحاول أن نتخيل ما سيكون، طوال الأسابيع السابقة على صباح الغد، تنتابني حالة راكب القطار الذي قطع مسافة طويلة، نبهه البعض إلى اقتراب محطة النزول، أو أدرك هو ذلك، عندئذ يبدأ إعداد حاله للانتقال من وضع إلى وضع، هكذا صار أمري في كافة تفاصيل يومي، عند ذهابي، عودتي، استقبالي ضيوفًا، جلوسي إلى مقهى، زيارتي الأسبوعية للحي القديم، للمكتبات، عند تناولي الطعام، تأهبي للنوم، عند استيقاظي، ينتابني ذلك الشعور السابق على الانتقال، على العبور، على تغير الحال، منبع الوعي ليس سفر محمد فقط، إنما سفر ماجي أيضًا، ستتبعه بعد شهر لتقضي سنة في لندن، تعد خلالها رسالة ماجستير علمية، هكذا نعود إلى ما بدأناه، بدأنا اثنين، صرنا إلى أربعة، يتخذ كل منهما طريقه في الحياة سربًا.

هكذا تنقضي المدة.

لماذا المدة؟

أليس هكذا تنقضي الحياة، بل دورة الفلك؟

نرجئ ثم نرجئ وفجأة نباغت.

الليلة سنخرج معًا، منذ أن خرج في الصباح لم يعد حتى الآن، الساعة التاسعة، طوال الأيام الماضية نلتقي بسرعة، في الصباح يمضي لإنجاز أمور وقضاء حاجات، لا أراه إلا ليلاً، أضطر إلى النوم حتى يمكنني الاستيقاظ مبكرًا، يمضي ساعات الليل مع أمه وشقيقته، يتحدثون يتناجون، بعد انقضاء مدة، علمها عند مدبر الأكوان.



ضيفًا.. على ابني

بمجرد مفارقة الساحل الأوروبي يبدأ الإيغال فوق المحيط، لون أزرق ممتد، يتداخل معه أحيانًا الأبيض، يتناغم اللون مع الوقت، لأننا نمضي في اتجاه الشمس يمتد الوقت، تقع حالة من الثبات، الشمس بادية، النهار سيال، مستمر، لذلك يبدو الوقت وكأنه جرى تثبيته بشكل ما، رغم أن مدة الطيران سبع ساعات، فإننا نصل في توقيت مغاير.

الساعة الثانية والنصف عند مفارقة الساحل الفرنسي.

لحظة ظهور البر الأمريكي الثانية والنصف ظهرًا، فكأننا عشنا دقائق معدودة لكنها طويلة، ممدودة، يقترن الوقت باللون الأزرق وهذا يعمق من حالة الثبات، تبدو الطائرة معلقة وليست مندفعة بسرعة ألف كيلو متر تقريبًا في الساعة، لا ملامح أرضية، لا علامات، فقط تدرجات اللون ولقاؤه بالغمام المرتفع والمنخفض، على خريطة المسار وخلال الساعات السبع لم تظهر إلا نقطة تشير إلى اليابسة، إنها جزر الآزور، لذلك يبدو ظهور الشاطئ الأمريكي مثيرًا للارتياح، يقلقني الماء، الإبحار فيه، أو الطيران فوقه مع أن المخاطر متساوية سواء كان البر أو البحر عند التحليق.

ذروة النهار، ضوء ساطع، هواء شفاف، رؤية واضحة، لا أعرف النقطة التي دخلنا منها إلى البر الأمريكي، لكنها شمال نيويورك بالتأكيد، أتطلع إلى تقسيمات المدن، المنشآت، ألمح مطارًا عسكريًّا تتراص فيه طائرات الـ «إف 16» المقاتلة، أميزها من مختلف الزوايا، يبدأ الهبوط في اتجاه مطار جوزيف كيندي، طوال الرحلة يسيطر عليَّ حضور محمد ابني، سافر في الحادي والثلاثين من يوليو الماضي، منذ ذلك الحين لم نلتق إلا عبر الهاتف،

مرَّ بأوقات صعبة عقب وصوله، لم يعثر على سكن بسهولة، ماطلته سيدة مصرية أعرفها للأسف، عندما كتبت له عقدًا بشقة صغيرة تملكها وعندما حان موعد استلامها اتضح أن سيدة عجوزًا تقيم فيها وأن هناك مشكلة تتعلق بإخلائها، أقام في فندق بضاحية نيوجرسي، ونزل عند سيدة كولومبية متقدمة في العمر، واجه ما واجه، وكنت أستشف أحواله من صوته، في لحظة معينة يتحول وجود الإنسان إلى صوت، يلخص كل العناصر، بل المؤكد أنه ما من شيء كاشف لدخائل المرء قبل الصوت، لذلك يطلب الأطباء من المرضى أن يقولوا «آه» عند توقيع الكشف.

هأنذا بعد ما يقرب من عشرة شهور أعبر المحيط لأحل ضيفًا على ابني، سأقيم في مسكن يخصه، وسأتأمل ملامحه خفية، ماذا تغير فيه وماذا جرى له: طوال الرحلة يصحبني، أستعيد لحظات نائية وأتخيل أخرى مقبلة.

عند تمام الهبوط، ودعني قائد الطائرة المصرية برقة، وعندما أخبرته بموعد عودتي يوم السابع عشر من يونيه المقبل قال لي إنه من المحتمل أن يلقاني، خرجت إلى المطار، الإجراءات دقيقة، لكنها تتم بتهذيب شديد، التقاط صورة، أخذ بصمة الأصبع، تبادل الحديث بالعربية، لاحظت سيدة عجوزًا، أمًّا، كانت تبدو مرتبكة، ربما تسافر لأول مرة، وعندما طلب منها الضابط العنوان الذي ستقيم فيه لم تجب، لم تكن تعرفه، تقدمت محاولاً المساعدة، لم تكن تعرف أي شيء، فقط قالت إن ابنها ينتظرها في الخارج، بدا الضابط هادئًا مترفقًا بها، ماذا لو خرجت فلم تجد أحدًا في انتظارها؟ طلب مني الضابط أن أستدعي أي مسئول من شركة مصر للطيران، لم أنصرف إلا بعد أن وجدت أحدًا المسئولين عن المحطة الأرضية، خرجت إلى الساحة الممتدة أمام المطار، أين محمد؟ أنا الذي لم أجد أحدًا في انتظاري، غير أنني أعرف العنوان، ومعي مفتاح الشقة، غير أنني متأكد من خروج محمد إلى

المطار، ربما تأخر في الطريق، بدأت محاولة الاتصال به عبر هاتفي المحمول الذي التقط إشارة الاتصال بالشبكة الأمريكية، أي أنه مهيأ الآن لاستقبال المكالمات التي تصلني من مصر، كما يمكنني إجراء اتصال من خلاله. صحيح أنه مكلف جدًّا ولكن مجرد وجود تلك الإمكانية معي يجعلني مطمئنًا، طلبت رقم محمول محمد الذي أحفظه، غير أن ثمة خطأ، ربما في طلب الرقم، كنت أبدأ بصفرين كما اعتدت في مصر وفي معظم بلدان العالم التي زرتها للاتصال الدولي (فيما بعد عرفت أنه لابد من طلب رقم أحد عشر في الولايات المتحدة)، لمحت شابًّا أيقنت من ملامحه أنه مصري، يرتدي بنطلونًا قصيرًا (برموده)، المناخ حار رطب، يبدو أنه ينتظر أحد القادمين، أبديت اعتذاري لإزعاجه، قلت إنني في حاجة إلى اتصال محلي، قدم لي هاتفه المحمول، جاءني صوت محمد، طلب مني ألا أتحرك، لقد وصلت الطائرة مبكرة، شكرت الشاب الذي لا أعرفه، لم تمض إلا دقائق، رأيت محمدًا قادمًا بصحبته الصديق المستشار محمد إدريس عضو الوفد المصري لدى الأمم المتحدة.

تنتابني في مثل هذه اللحظات مشاعر متناقضة، منها فضولي أن أرى ملامح ابني، معالم أي تغيير في الملامح، في الهيئة، عانقته لاثمًا رأسه، شعره الخشن، بينما انحنى هو ليقبل يدي، أربت ظهره، ينتابني خجل ما، في مثل هذه اللحظات تصبح مشاعري مؤجلة، كذا بواعث تأملاتي واستغراقي، أعرف أنني سوف أستعيد تلك اللحظة مرارًا، وفي كل استعادة أرى فيها ما لم أره خلال حلولها.

التقطت صورًا بكاميرا هاتفي المحمول المتطور، كنت أستخدمه لأول مرة لذلك طاشت بعض اللقطات مني، خاصة أنها بالفيديو، في السيارة تبادلنا الحوار، كنت مهتمًّا بتدقيق معالم المكان، معرفة ملامحه، لقد مررت بنيويورك مرتين من قبل، الأولى عام تسعة وثمانين، في طريقي إلى المكسيك،

أمضيت سبع ساعات بصحبة القنصل وقتئذ، الصديق معصوم مرزوق، صحبني مع زوجتي بالسيارة إلى المدينة، مررنا أمام ناطحة السحاب الشهيرة «الأمبايرستيت» رأيت تمثال الحرية، ومبنى الأمم المتحدة، وقتئذ لم يدر بخلدي قط أن محمد ابني سوف يعمل به يومًا، لم تكن إلا جولة استغرقت بضع ساعات، لم نجلس حتى في مقهى، إنما أمضينا بقية انتظارنا في المطار قبل أن نطير إلى المكسيك، في المرة الثانية لم أفارق منطقة المطار، فقط خرجت من مبنى إلى مبنى لتغيير الطائرة، من طائرة ضخمة مصرية إلى أخرى صغيرة لا تتسع إلا لعشرة ركاب، قصدنا بها كليفلاند حيث المستشفى الذي أجريت به عملية القلب. لا أتذكر ملامح مشتركة للمطار، في كل مرة يخيل إليّ أنني نزلت في مطار مختلف تمامًا، الظروف هذه المرة اختلفت، إجراءات الأمن أكثر صرامة ودقة، دخول المطار لم يعد مباحًا كالمرات السابقة، السبب غزوة نيويورك التي قام بها رجال بن لادن.

نعبر الجسر الحديدي الضخم الذي يؤدي بنا إلى مانهاتن، يذكرني بجسر إمبابة فوق النيل، مخصص للقطارات، يتصل الحوار وفي نفس الوقت كنت حريصًا على التقاط أدق التفاصيل من المدينة، أعرف أهمية اللقاءات الأولى بالمدن، التعرف على الملامح موازٍ تمامًا للتعرف على البشر الذين نلتقيهم لأول مرة، غير أن نيويورك هذه المرة ليست مدينة عادية، يقيم فيها ابني لمدة أربع سنوات، أهتم بكل ما يتعلق بها، مناخها، درجات الحرارة عند رؤية النشرة، أخبارها، كافة ما يتعلق بها، أصبح لها منزلة خاصة؛ لأن محمدًا هنا.

في بيت ابني

ضامًّا يدي أمام صدري، تحية أقرب إلى الطريقة الصينية، يبدو أن إسرائيل حارس البوابة ظنها تحية خاصة بي وبقومي، حتى سفري، كلما رآني مقبلاً، يبادر بالانحناء ورفع اليدين أمام صدره.

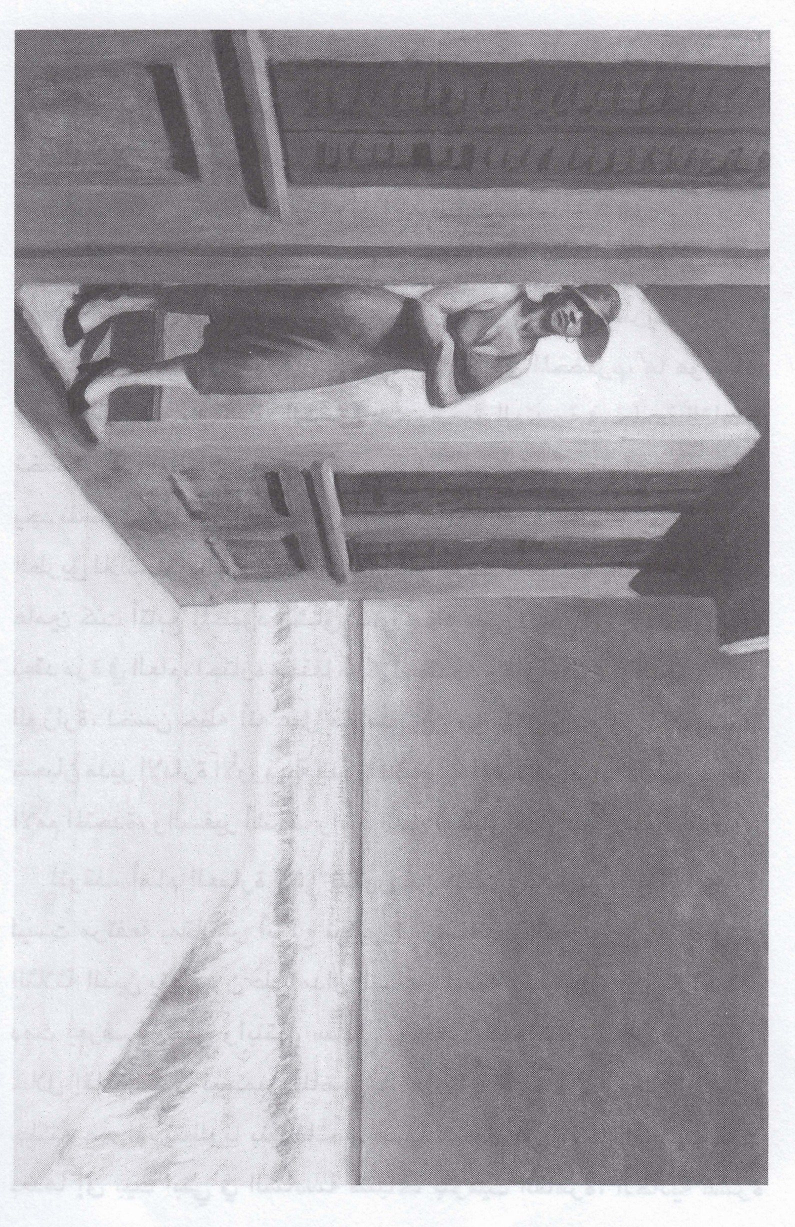
في الطابق الثامن عشر يقيم محمد، رفض تمامًا أن أحمل إحدى حقائبي، تقدمني ليفتح الباب، نبهني إلى فتح القفلين، اجتزت الباب إلى الصالة المستطيلة المليئة بالضوء، إلى اليمين مطبخ فيه ثلاجة.. وفرن مكروييف، وفلتر لتنقية مياه الشرب، ودولاب لمواد الطعام، البسكويت والخبز وما تيسر.. قال لي محمد إنه أحضر كل ما اعتدته، خاصة في الإفطار، الزبادي الخالي من الدسم، عسل النحل، القهوة سريعة الذوبان «نيسكافيه»، يعرف محمد تفاصيل ما اعتدت تناوله، نقوم بأمور عديدة لا نخبر عنها، لكن الأبناء يلحظون، كثيرًا ما أتناول طعامي وحيدًا، بسرعة، إما أن محمدًا سبقني في الخروج وإما أنه نائم، وجبة الإفطار أتناولها بسرعة، ها هو محمد قد أحضر كافة ما يلزم، إضافة إلى شرائح السمك المجمد، سمك السلمون، أو موسى، يعرف أنني لم أعد آكل اللحم تقريبًا.

قبل وصولي طلب من الحارس مجيء السيدة التي تقوم بتنظيف البيت، رغم أنها تتسلم المفتاح وتقوم بالتنظيف وترتيب كل شيء، فمحمد لم يلتق بها حتى الآن، تتسلم المفتاح من الحارس، تؤدي عملها، ويرسل محمد أجرها إليها بشبكة الاتصالات الدولية (إنترنت)، في الصالة أريكتان، ومكتب، ومنضدة، وتليفزيون، وجهاز استماع متطور للموسيقى، ومكتبة، إلى الداخل غرفة نوم تحتوي على سرير ودولاب، قال محمد إنها غرفتي،

قلت له إنني معتاد على النوم فوق الأرض، لديه مرتبة ينفخها ليلاً توضع في الصالة، غير أنه رفض تمامًا، قال إنه يعود متأخرًا في ليال عديدة ولا يريد أن يزعجني، الغرفة معزولة، وهو يريدني أن أستريح تمامًا.

الساعة الآن السادسة، أي الواحدة صباحًا في القاهرة، أشعر بإرهاق ولكن لم يصل بعد إلى حد أشعر فيه بضرورة التماس الراحة، كان محمد مدعوًا إلى عشاء في نيوجرسي، من نائب القنصل العام، والدعوة موجهة إليَّ أيضًا، تحمست للذهاب معه، سوف أتعرف على أناس جدد، وأرى أماكن جديدة، دائمًا أشعر بعد الوصول إلى مدينة أخرى بالرغبة في مغادرة الفندق أو المسكن المؤقت، حتى لو اقتصر الأمر على التجوال في الشارع القريب، كثيرًا ما مرَّ بي هذا، أن أصل إلى مكان وأدعى على الفور إلى عشاء عند من لم أعرفهم من قبل أو إلى حفل لا أعرف صحبه، ألتقى بهم وأتبادل معهم الود ثم لا أراهم أبدًا فيما تلا ذلك، في منزل نائب القنصل تعرفت على عدد من العاملين في البعثة وأصدقاء آخرين، أمسية هادئة حميمة.

في الطريق إلى العمارة التي يقيم فيها محمد تذكرت الفنان الأمريكي الذي أحب أعماله كثيرًا إدوارد هوبر، رسم جسور نيويورك وشوارعها وبعض واجهات مبانيها الفني الرفيع، نثرًا كان أو شعرًا أو لونًا يلتقط الجوهر، منه نتعرف على الأشياء والأماكن والبشر، عندما زرت روسيا أول مرة عام ستة وثمانين من القرن الماضي لم تكن الوجوه غريبة عني، طالعت قسماتها في روايات دوستويفسكي وقصص تشيخوف وأعمال تولستوي وجوركي، عندما زرت يوغسلافيا خصيصًا لأرى الجسر الشهير الذي صاغ إيفواندريتش روايته العظيمة حوله، جسر على نهر درينا، لم أشعر أن الطبيعة غريبة عني ولا البشر.



كذلك لوحات هوبر التي أمسك فيها بجوهر المدينة، وحالة الوحدة الإنسانية في الحياة الأمريكية.

ما بين مقر البعثة المصرية وحيث يقيم محمد شارعان فقط، توقفنا أولاً أمام مبنى البعثة، يرأس الوفد الآن السفير ماجد عبد الفتاح، تربطني به صداقة منذ عمله مديرًا لمكتب المعلومات في رئاسة الجمهورية، كنت أراه في الاجتماعات والاحتفالات العامة، كلما قرأت عن البعثة المصرية لدى الأمم المتحدة أتذكر محمود فوزي الدبلوماسي المصري المخضرم، ها هو محمد ابني يعمل عضوًا في الوفد العريق، درس محمد الهندسة في جامعة القاهرة، تخصص في الاتصالات، وعمل في شركة فودافون خمس سنوات، غير أنه لم يجد نفسه في الهندسة رغم عائدها المادي المرتفع، عندما أخبرني أنه ينوي بدء الطريق للالتحاق بالخارجية قلت له: اختر ما تشاء فهذه حياتك، على امتداد عامين كنت أتابع المجهود الشاق الذي يبذله حتى يتقدم إلى الامتحان الذي يعقد مرة في العام، اجتازه محققًا مركزًا متقدمًا، وعمل عامين في الديوان العام للوزارة، لحسن حظه أنه عمل مع سفيرين من أقدر وألمع السفراء، محمد شعبان مدير الإدارة الأوروبية الذي أصبح فيما تلا ذلك مساعدًا لسكرتير عام الأمم المتحدة، والسفير أشرف راشد الذي أصبح سفيرًا لمصر في إيطاليا.

نتوقف أمام العمارة التي تتكون من اثنين وعشرين طابقًا، أي أنها ليست مرتفعة بمقاييس أبراج نيويورك، صافحت الحارس، أحد الحراس الثلاثة الذين يتعاقبون على مدار الساعة، اسمه إسرائيل، في الثلاثينيات، دمث يعرف زوجتي وابنتي، سألني عنهما، أبلغته تحياتهما، تعرفتا إليه خلال إقامتهما في ديسمبر الماضي عندما زارا محمدًا لأول مرة، يرتدي جاكتة حمراء، بنطلونًا بنيًا فاتحًا، عندما اتجهت إلى المدخل انحنيت، عدت بعدها إلى بيت ابني في السادسة صباحًا بتوقيت القاهرة، الحادية عشرة

بتوقيت نيويورك، في الترحال لا أغير التوقيت القاهري، أتطلع إلى الساعة فأضيف أو أنقص بفكري، لكنني لم أبدل التوقيت قط سواء بلغت أقصى الشرق أو أقصى الغرب بالنسبة لمصر.

بعد حوالي خمس ساعات استيقظت، نمت قليلاً ولكن بعمق، يحتاج التكيف مع التوقيت المختلف إلى فترة زمنية، لكنها لا تطول معي، لم أرغب في إيقاظ محمد، غير أنه بمجرد عبوري إلى المطبخ استيقظ، قال بإصرار إنه سيعد لي الإفطار، غير أنني قلت بحزم.

«هذا مسئوليتي..».

بعد تناولنا الإفطار، بعد ترتيب كتبي وأوراقي فوق المكتب، بعد أن رتبت الأقراص المدمجة للموسيقى التي أحب وأصحبها معي، خرجنا معًا للتجوال في نيويورك.

الإدارة فـي العمـارة

الثــلاثـــاء:

قبل سفري بأيام، استطاعت زوجتي أن تصل إلى موقع العمارة التي يقيم فيها ابني محمد في نيويورك، استخرجت من شبكة الاتصالات الدولية صورتها من زوايا مختلفة، أيضًا، تاريخها، البناء، التكوين، أشارت إلى الطابق الثامن عشر، قالت: هنا يقيم محمد، العمارة لها رقم واسم، رقمها ثلاثمائة واثنان، تقع على ناصية الشارع رقم تسعة وأربعين، والطريق الثاني، تأملت الصورة طويلاً، وجالت عندي خواطر وأفكار، عندما وصلت ذلك العصر إلى مدخلها لم أكن غريبًا عنها، كنت أعرفها بشكل ما، بدرجة ما، رغم أنها المرة الأولى التي سأقضي فيها الليل بنيويورك، كما ذكرت كانت بالنسبة لي نقطة عبور إلى مدن أخرى في الولايات المتحدة، وفي أمريكا اللاتينية، العمارة اسمها الوفد؛ ربما لقربها من مبنى الأمم المتحدة، ولأن معظم سكانها من العاملين هناك شققها متماثلة الحجم، صالة مستطيلة وحجرة صغيرة، وبالطبع مطبخ وحمام، الإيجار الشهري لهذا الأستوديو الصغير في مانهاتن يعادل إيجار فيلا من طابقين تحيطها حديقة في نيوجرسي أو كوينز، الإيجارات مرتفعة جدًا في مانهاتن، غير أن السكنى في المناطق الأخرى تستلزم سيارة، وللسيارة مصاريف مرتفعة، الانتظار في مانهاتن مشكلة، وتكلفة الساعة الواحدة ربما تصل إلى خمسين دولارًا، حدث أن اصطحبتني طبيبة مصرية مهاجرة إلى إذاعة أمريكية في جنوب المدينة، أمضينا ساعتين جرى خلالهما حوار معي وطفت بأقسام الإذاعة التي تعتمد على أموال الناس، والاشتراكات، واتجاهها يساري بالقياس طبعًا، ولها موقف صارم ضد غزو العراق، بعد انتهائنا عدنا

إلى الموقف، فوجئت بالسيدة تدفع خمسين دولارًا، وعندما أبديت دهشتي قالت إن ذلك سعر مخفض، لو انتظرت في ساعات العمل لدفعت الضعف، مواقف السيارات مسيطر عليها تمامًا، وقيل لي من صديق أن المافيا تديرها.

مدخل العمارة فسيح، والسجاد الأحمر يبدأ مع المدخل، كذلك الموسيقى الهادئة، إلى اليسار مكتب البواب، ثلاثة يتبادلون خلال الساعات الأربع وعشرين، لكل منهم ثمانية، الرداء جاكت أحمر وزرايره من نحاس، بنطلون أسود، إلى اليمين خزانات تبدو كأنها جزء من الجدار، يوضع فيها الغسيل والكواء، غير مسموح على الإطلاق بصعود أي عامل في محل تنظيف أو كواء، أو موصل لطلبات الطعام وما شابه، كل شيء يسلم إلى البواب ويقوم هو بحفظه في إحدى الخزانات حتى حضور الساكن، أو الاتصال به للنزول إذا تعلق الأمر بطعام جاهز، إنه يتسلم البريد أيضًا ويقوم هو بتوزيعه على الصناديق التي توجد في ممر قبل المصاعد. لكل شقة ثلاثة مفاتيح، كل منها لقفل، وتوجد نسخة عند البواب، لديه مفاتيح الشقق كلها، فإذا حدث إنذار بالحريق، أو أي طارئ يمكنه التدخل فورًا في حالة خلو المكان من شاغليه، بسرعة قامت بيني وبين البوابين الثلاثة أواصر الصلة، عند دخولي وخروجي أحيي المتواجد منهم، ومن عادتي أن ألمس موضع قلبي براحة يدي وأنحني قليلًا: وسرعان ما أتقنوا التحية وبادلوني إياها، كنت أظن أن هؤلاء الثلاثة هم السلطة العليا في العمارة، لكنني اكتشفت أنني مخطئ.

المستشار

الثلاثاء أيضًا:

لاحظت شخصًا يرتدي فانلة رياضية، ضخم القامة، على وجهه إحساس شديد بالأهمية يتحرك كأنه زعيم، اتضح لي بعد عدة استفسارات

أنه المسئول الأول عن العمارة، إنه المستشار، البواب مسئول عن المدخل فقط، لكن المستشار مسئول عن العمارة كلها، يتجول فيها صعودًا وهبوطًا، يتابع سلامة المواسير، وتلك متعددة، فماسورة للغاز، وأخرى للتدفئة، وثالثة للمياه، ورابعة لأسلاك الكهرباء، إنه يراقب أي خلل وقد يقوم بإصلاحه أولاً بأول، كذلك يراقب إلقاء القمامة والمخلفات، في كل طابق مكان خاص بالقمامة السريعة، إناء للصحف، والآخر للفوارغ، زجاجات المياه والمشروبات على أنواعها ومساحيق التنظيف والصلصات والعصائر وعلب الطعام. وللتغليف في هذه البلاد شأن عظيم، وهو فن قائم بذاته، وعلب الطعام مغرية بأناقتها والمواد المصنوعة منها، وفي بداية سفري إلى الغرب كنت أجد صعوبة في التخلص من علبة اشتريت فيها طعامًا سريعًا، أو قطعة حلوى، ثم اعتدت التخلص أولاً بأول من أي مغلف كان مهما كانت أناقته.

في الجدار فتحة مربعة متصلة بأنبوب يستقر في مكان محدد أسفل العمارة، تلقى فيه أكياس المخلفات الخفيفة، أما القمامة التي تحوي القطع الكبيرة أو الثقيلة فتوضع في أكياس سوداء تخرج إلى أمام العمارة في الصباح الباكر حيث تأتي عربات نقل لتزيلها وتنقلها إلى أماكن الفرز والاستخدام مرة أخرى، أما صناديق الكرتون الضخمة، فلها مكان محدد في الطابق تحت الأرض إلى يمين المصعد، تترك هناك ويقوم المستشار بإخراجها إلى جهة ما بترتيب معلوم، كذلك الأثاث الذي لم يعد صالحًا، أحيانًا كنت أرى ثلاجة تبدو في حالة جيدة ملقاة بعد أن تم الاستغناء عنها، لا يوجد فن إطالة عمر الأشياء الذي نعرفه في مصر، أقل خلل هنا يدفع بالمالك إلى الاستغناء فورًا واستبداله بآخر، للعمارة مجلس إدارة منتخب، حضرت الدعوة إلى انعقاده، علقت في المصاعد، المصاعد مكان التعليمات، وفي اليوم المحدد صفت المقاعد في المدخل، وضعت منضدة عليها مفرش أبيض ومكبرات صوت، ولم يتخلف

أي عضو كما علمت، كثيرًا ما أسمع في مصر شكوى رؤساء اتحاد الملاك من عدم تعاون الآخرين وتقاعسهم في دفع الاشتراكات، ووضع القمامة أمام الشقق في غير مواعيدها، هنا لدى كل فرد شعور أنه بمفرده ما دام هو داخل شقته، لا يفكر في الآخرين، تمامًا كما يلقي بعض السائقين المناديل الورقية أو بقايا السجائر المشتعلة من نوافذ سياراتهم الفاخرة، هذا النظام صارم، ملزم للآخرين، والكل يلتزم بما يقرره المجموع، فسلامة العمارة كلها مجموع سلامة وحداتها، إنه صورة مصغرة من المجتمع، الحرية نعم، لكن القوانين مطبقة على الكل، ومن يخالفها يفقد هيبته ويتعرض للعقاب، أما المستشار فيراقب كل كبيرة وصغيرة بدءًا من المدخل والطوابق تحت الأرضية، إلى السطح المعد للجلوس وتتوسطه حديقة صغيرة تشرف على مانهاتن بأبراجها، العمارة ليست مرتفعة بالقياس إلى ناطحات السحاب، عدد طوابقها اثنان وعشرون فقط وهذا ارتفاع متواضع بالنسبة لبعض المباني التي تتجاوز المائة، لن أنسى أبدًا منظر المستشار وهو يتحرك بثقة وشعور قوي بالمسئولية، كأنه جنرال يوشك على الدخول في معركة.

تنظيف

الأربعـــــاء:

عدت العصر لأجد الشقة مرتبة، نظيفة، أنيقة، عندما عاد ابني ليلاً سألته، قال إن الشغالة جاءت بالفعل، سألته: متى قابلها، هل عاد من عمله ظهرًا، وقال إنه لا يعرفها ولا يلتقي بها منذ مجيئه العام الماضي، إنه يخبر البواب فقط ويعطيه مقابل التنظيف مائة وخمسة وعشرين دولارًا، تقوم هي بكل شيء وتسلم المفتاح إلى البواب، هكذا، فيما بعد علمت أن هذه الشغالة

سيدة أنيقة، تجيء في عربتها المرسيدس، وتقوم بالعمل في أكثر من شقة بالعمارة، لاحظت الدقة الشديدة في عملها من خلال التفاصيل الصغيرة في البيت، رغم أنها بمفردها، ولا أحد يتابعها ولا ينبهها إلى هذه البقعة هناك، أو هذا الإناء هنا، من أهم خصائص الإدارة في العمارة التخصص الشديد والإتقان، حارس البوابة يؤدي مهامه في هذا المجال لا غير، لا يطلب منه أحد الذهاب إلى السوق لشراء خبز أو زجاجة لبن أو صحف الصباح، المشرف على العمارة مهامه واضحة يعرفها الجميع، يؤديها بدقة، لا يتعالى عليه أحد، ولا ينظر إليه أحد من فوق، الكل سواسية، الاحترام سمة مشتركة لكل من يعمل، بل إنني كنت ألحظ خطى البواب الواثقة أثناء مشيه ذهابًا وإيابًا أمام المدخل كأنه الجنرال ماك آرثر أو الممثل العبقري جريجوري بك، الإدارة التي تعرف ملامحها ومضمونها أحد أسرار هذا المجتمع المتقدم، لكنها إدارة تتعلق بالداخل، بمن يعيشون في الولايات المتحدة، فإذا خرجت إلى العالم للتعامل مع قضاياه وشعوبه أصبح للإدارة الأمريكية مقاييس أخرى وحسابات مغايرة، وهذا حديث يطول أمره.

في المصعد

الأحد:

معظم سكان العمارة أجانب، جنسيات مختلفة، اعتدت أن أحيي من ألتقي به دائمًا، لكنني لاحظت هنا أن ملامح الوجوه جامدة لا تتغير عند اقترابي منها، خاصة عند دخول المصعد، لم أكن أبادر بالتحية إلا من أشعر منه بالاستعداد للرد، اعتمدت على حدسي الداخلي، المصعد حيز ضيق، أحيانًا يجري تبادل التحية بل والحديث السريع أيضًا، لكن الحال الغالب على معظم السكان هو الصمت، اليوم لحقت بسيدة متقدمة في العمر، تضع

أصباغًا واضحة، مبالغًا فيها، بادرت هي بالسؤال، من أي بلد أنا، قلت إنني من مصر، اتسعت ابتسامتها، دست يدها في حقيبتها، أخرجت بطاقة صغيرة للتعارف، قالت إنها فرنسية، مترجمة في الأمم المتحدة، لديها أنواع جيدة من النبيذ الفرنسي وبأسعار خاصة، قبل أن أنطق معتذرًا عن التعامل مع النبيذ، لمحت اسمها، كان ينتهي باسم أعرفه (دريفوس)، سألتها عما إذا كانت تمت بصلة إلى الضابط الفرنسي صاحب القضية الشهيرة التي هزت فرنسا منذ أكثر من قرن، الكابتن دريفوس اليهودي الذي اتهم بالتجسس ودافع عنه الكاتب الأشهر إميل زولا، كما ذكره مارسيل بروست في روايته «البحث عن الزمن الضائع»، قالت إنها تمت بصلة، لم أدر هل تقول ذلك حضًا على الشراء أم إنها الحقيقة؟

حوارات المصاعد غالبًا ما تكون قصيرة، مركزة، خاصة بين الذين لا يعرفون بعضهم، عند خروجها أكدت لي جودة النبيذ الذي يصلها من فرنسا مباشرة، ابتسمت شاكرًا محاولاً استعادة تفاصيل القضية التي قرأت عنها كثيرًا.

زمن الهجاج

الإثنين:

إنه زمن تغريبة المصريين بحق، لم يعرف التاريخ فترة خرج فيها المصريون بهذا الحجم كما جرى منذ السبعينيات، كانت مصر مقصدًا للأجانب، يجيئون ليرتزقوا فيها، ومنها، كان الإيطاليون والنمساويون وكافة أهالي البلقان يجيئون إلى مصر حتى الحرب العالمية الثانية ليعملوا فيها ويرسلوا نقودًا إلى أسرهم ليعيلوهم، كيف انقلب الحال خلال نصف قرن فقط؟

كان المصري من أشد البشر التصاقًا بأرضه، إذا انتقل من جهينة إلى طهطا – ثمانية كيلومترات – يُعد العدة ويودع الأهالي والأحباب، إذا وصل يقسم بغربته على بعد عدة كيلومترات، في كل بلد أصله ألقى المصريين، بالطبع الهجرة إلى الولايات المتحدة لها ظروف خاصة، قابلت مصريين على مختلف المستويات، علماء كبارًا، رجال أعمال، فنانين، باعة سجق وعمال بناء وسائقي تاكسي، سأتحدث عنهم في يوميات مقبلة، لكنني سمعت الكثير من الروايات المختلفة، بعضهم جاء مع آخرين تسللوا إلى الولايات المتحدة عبر عدة بلاد في أمريكا اللاتينية، أحدهم خرج من مصر وليس لديه إلا رقم هاتف لشخص في جمهورية الإكوادور. عبر حدود ثماني دول حتى دخل الولايات المتحدة، ألاحظ في بلدان العالم التي زرتها وجود العصبية القروية التي تربط المصريين، في إيطاليا مثلاً، من يعملون في ميلانو معظمهم من الدقهلية، من قرى معينة، في نابولي يختلف الأمر، من إحدى قرى الغربية، القريب يأتي بقريبه أو صديقه وهكذا، في فرنسا تعرفت أكثر على العديد من الشبان الذين دخلوا بلا أوراق، لا يركبون المترو، يتحركون سيرًا على الأقدام لمسافات طويلة، يساعد بعضهم بعضًا، طبعًا الوضع يختلف في الولايات المتحدة كما ذكرت، فالهجرة المصرية عمومًا يمكن إدراجها في هجرة العقول، الوجود المصري في عمومه حميم ومشرف للمصرية والمصريين، غير أنني لا أكف عن التأمل في الظروف الطاردة للمصريين من وطنهم، ثمة شعور عام توطد خلال العقود الأخيرة أنهم أصبحوا غير مرغوب فيهم، عالة على وطنهم، لذلك ينشغل الشباب بدراسة وسائل الهجاج وهي الآن حسيرة، معظمها مسدود وسوف تزداد صعوبة نتيجة التداعيات بعيدة المدى لغزوة نيويورك المباركة التي نفذها أشاوس تورا بورا!

قرأت منذ فترة عن احتفال الهند بمولد الطفل الذي تكمل به المليار في تعدادها، مليار من البشر يعتبرونهم هناك ثروة، وهل هناك أثمن من الثروة البشرية بشرط توافر العدل والحرية؟!

رحيل النهار

الجمعة:

رغم أن شاشة العرض الخاصة بمقعدي في طائرة مصر للطيران تحوي عدة قنوات لأفلام عربية وأجنبية، فإنني أفضل الشاشة التي توضح مسار الرحلة، الارتفاع، السرعة، الخريطة التي توضح موضع الطائرة، أثناء الانتقال أنشغل بأمرين، الوقت والمكان، أما الوقت فيضعف الإحساس به داخل الطائرة، يصبح محدد الإقامة داخل هذا الحيز المتحرك بسرعة تقارب الألف كيلومتر، ينحصر الوقت بين بدء الإقلاع ولحظة الوصول، كم انقضى وكم تبقى؟ غير أن المكان يصبح أقوى سواء تطلعنا عبر النافذة المستديرة أو إلى الغيوم البيضاء الحاجبة، أو اللون الأزرق الطافي، سواء كان نابعًا من السماء أو البحر الممتد، في الطريق إلى نيويورك يبدأ اهتمامي عند اجتياز الساحل الأوروبي فوق نقطة ما من وسط فرنسا، يبدأ المحيط، والمحيط أحد الأماكن التي تستثير فضولي بشدة، بدءًا من الاسم، حتى طبيعته وعمقه والمخلوقات التي تعيش فيه، أمواجه ورياحه، وغموضه، رغم أن الماء هو عين الماء إلا أن الوقوف على ساحل المتوسط أو البحر الأحمر يستثير عندي مشاعر مغايرة لوقوفي عند المحيط، توغل الطائرة فوق المياه، تبتعد عن البر، لمدة سبع ساعات لن تظهر أي يابسة فيما عدا نقطة جد ضئيلة اسمها جزر الآزور تتبع البرتغال الآن، كان العرب يطلقون عليها جزر الخالدات، تقول

الأساطير القديمة إنه يوجد تمثال يقوم فوق قاعدة في وسط بحر الظلمات (اسم المحيط)، يرفع صاحب التمثال يده وعليه كتابة، لا خطوة بعدي، غير أن الإنسان لم يعبأ واستمر في المغامرة، عالم بدون دافع للكشف، لا يستحق العيش فيه، أحيانًا تكون للمغامرة، للإقدام، نتائج كارثية، لكن التقدم لم يتحقق إلا بدافع الفضول والرغبة في هتك السر.

يبدو على الخريطة الجزء الجنوبي من إنجلترا، في هذا الاتجاه، بعد مسافة ما، في نقطة ما، تتحرك أو تقيم ابنتي في لندن، عن المحيط وعن ابنتي يمكنني وضع مجلدات شتى، لعلي أنجزها يومًا، غير أنني أنشغل برحيل النهار معي أو رحيلي معه، مع الاتجاه غربًا نتحرك مع الشمس، عندما يبدأ ليل القاهرة التي أقلعت منها في الاكتمال يكون النهار ساطعًا فوق المحيط، عندما يلوح البر الأمريكي تكون الساعة حوالي الثانية ظهرًا، أي التاسعة ليلاً في القاهرة، من جاء بالنهار معي؟

كيف جئت معه؟

عندما تم استقراري وكدت أمسك بمفاتيح المدينة، عرفت طريقي اليوم إلى الشارع رقم اثنين وأربعين. إنه أحد الشوارع العرضية، لكن له شهرة خاصة، كان مقرًّا للدعارة، والدعارة طبقًا للقانون الأمريكي غير مصرح بها، لكنها موجودة بالطبع، في زمن كلينتون أعظم وألمع رئيس أمريكي في نصف القرن الأخير، تحول الشارع إلى مركز للمسرح وللعروض الموسيقية، وللغروب أيضًا، الغروب منه يختلف عن أي مكان آخر، خلال تجوالي مشيًا اكتشفت ذلك. هكذا كنت أنهي سيري اليومي بالوقوف عند ناصيته مع أحد الطرق الطولية، أرقب قرص الشمس المستمر في رحيله. ومعه يرحل النهار ليبدأ في موضع آخر، ليرحل بي وأرحل معه.



فـــي نطــاق الأمــم

مدينــة النــواصـــي

النواصي عندي أحد مصادر الحنين، والخوف، والتوق، كل ناصية تعني التقاء طريقين، وكل طريق يؤدي إلى طريق، وكل طريق يعني المضي إلى غاية، إلى مصير، ولا يمكن للإنسان أن يمضي إلى أكثر من طريقين في وقت واحد، إما هذا، وإما ذاك، من هنا تصبح النواصي نقطًا لتفرق المصائر وتلاقيها، والسعي إلى المجهول أحيانًا، من هنا ينشأ الخوف، أما التوق فيبدأ عند لقاء من نحب، واللقاء يعني فراقًا، فمجرد بدئه يعني العد التنازلي للوصول إلى نهايته.

مدينة نيويورك مصممة على شكل قطع الشطرنج، تتقاطع الشوارع، ولهذا تتعدد النواصي، من واحدة إلى أخرى، ربما لهذا السبب يجري الناس في مشيهم، لحركة البشر خصوصية في المدينة شاهقة الارتفاع، متعددة الأجناس، ولأن كل من يحل بناصية يعني أنه عابر وليس مقيمًا، لذلك اعتبرتها مدينة غرباء، الكل فيها عابر، ما من مقيم.

البعثــة

الاثـنـيـــن:

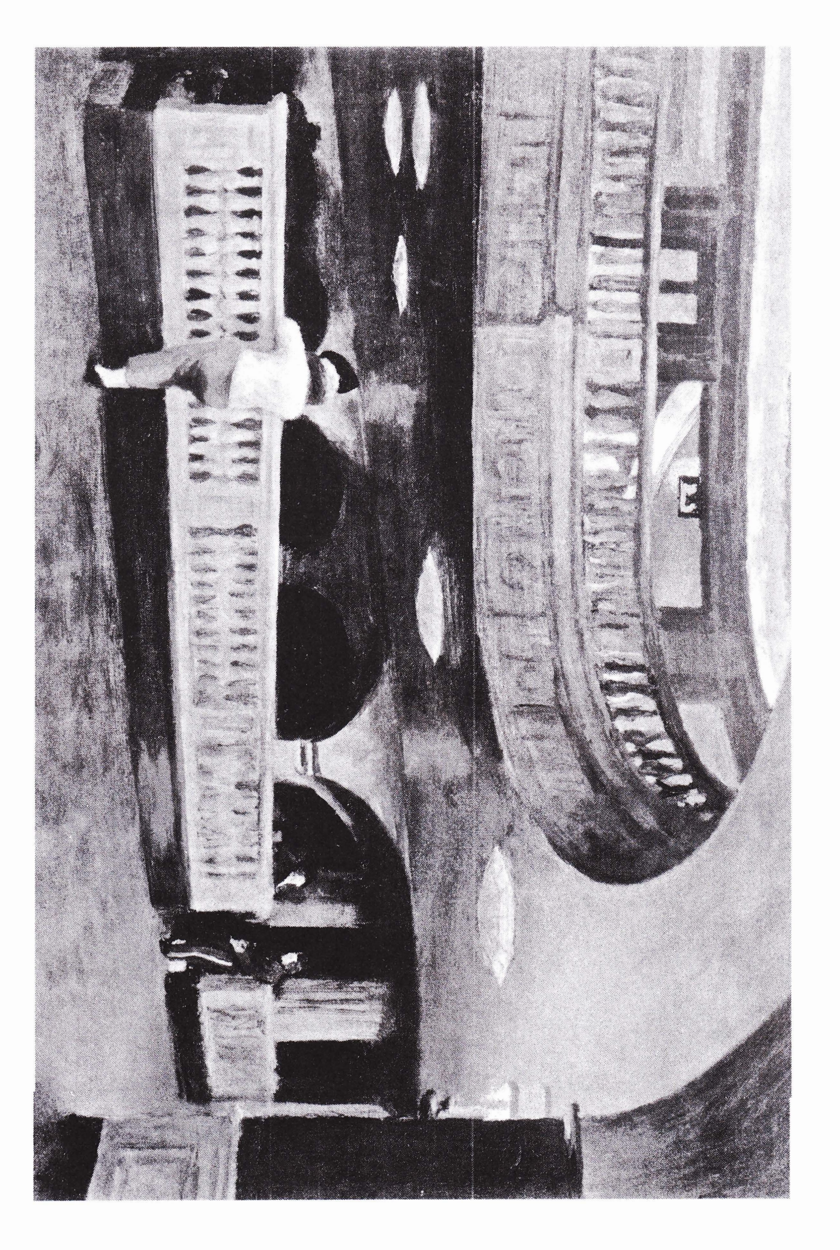
للدولة المصرية هيبة في الأمم المتحدة، الأسباب عديدة تدعم فاعلية الدور المصري، منها عراقة الدبلوماسية المصرية، والأداء المهني الرفيع لرؤساء البعثة المصرية الذين كان كل منهم قمة في أدائه، بدءًا من الدكتور محمود فوزي، والدكتور محمود عوض القوني، والدكتور عصمت عبد المجيد،

وعمرو موسى، وأحمد توفيق خليل، ونبيل العربي حتى أحمد أبو الغيط وماجد عبدالفتاح السفير الحالي، معذرة لأنني لا أستطيع أن أذكر جميع الأسماء، أما ثقل مصر فينبع من حضورها في العالم ومشاركتها في تأسيس الأمم المتحدة منذ عام خمسة وأربعين في القرن الماضي، ومن تأثيرها في ثلاث مجموعات، الأولى حركة عدم الانحياز التي أسهمت مصر في تأسيسها من خلال المثلث الذهبي ناصر ونهرو وتيتو في الخمسينيات، هذه الحركة تضم الآن مائة وعشرين دولة، ومصر مرشحة لرئاستها في العام بعد القادم، وترأسها الآن كوبا، المجموعة الثانية الإفريقية وتعتبر الأكبر، تضم اثنتين وخمسين دولة، وعندما تتحرك كقوة فإنها تكون مؤثرة وفعالة، ثم تأتي المجموعة العربية والإسلامية، ومصر تلعب دورًا كبيرًا داخلها، تلك هي المجموعات الرئيسية التي تؤثر فيها مصر، ويبدو حضورها قويًا ذا هيبة، البعثة المصرية في الأمم المتحدة تضم حوالي عشرة أعضاء، يعمل كل منهم – بدءًا من السفير إلى سائر الأفراد – حوالي ثماني عشرة ساعة يوميًا بدون أدنى مبالغة، اللقاءات في مبنى الأمم المتحدة تتم نهارًا، ثم الاجتماعات وكتابة التقارير تبدأ بعد الظهر وقد تبدأ مع الغروب وتنتهي فجرًا، الهدف الرئيسي هو العمل على توجيه الدول الفاعلة بما يخدم المصلحة المصرية خاصة والعربية عامة.

الأمـــم

الأربـعـــاء:

يقع مبنى البعثة المصرية في الشارع الثاني والأربعين المؤدي مباشرة إلى المبنى الشهير الذي صمم على هيئة علبة كبريت ضخمة مطلة على نهر الهدسون، لم يعد مبنى مقر الأمم المتحدة الأعلى ارتفاعًا، في الشوارع



المحيطة ترتفع ناطحات سحاب تضم مقرات البعثات، بعض المباني الأشد ارتفاعًا وفخامة لا تتناسب مع مكانة الدولة ذاتها، على سبيل المثال ترتفع ناطحة مطلة على مقر الأمم مباشرة، إنها بعثة أوغندة، قال لي أحد الأصدقاء إن عيدي أمين قرر بناء هذا المقر بجوار مقر الولايات المتحدة لينافسها بالعمارة، أما مقر نيجيريا فلافت للنظر أيضًا بارتفاعه وضخامته، مقر البعثة المصرية مهيب الواجهة، يعتبر من المباني الأثرية في نيويورك، أي ممنوع المساس بواجهته أو تغييرها أو إجراء أي تعديل بها، والمبنى الأثري في نيويورك قد لا يتجاوز عمره مائة عام، غير أن عراقة المبنى وموقعه والسعر الذي تم شراؤه به منذ عدة سنوات (عشرة ملايين) كان يعكس وجهة نظر بعيدة المدى، لفت نظري ضخامة مقري الصين وتركيا، دخلت المقر لألقي محاضرة في النادي العربي، لفت نظري وجود قطع فنية من إيران، سجادة ضخمة نادرة، تماثيل من إفريقيا وأمريكا اللاتينية، مصر أهدت الأمم تمثالاً لإيزيس تحتضن طفلها حورس، التمثال في مدخل الأمم المتحدة، غير أنني أتمنى ظهور أثر رفيع المستوى من مصر القديمة أو مصر المعاصرة في القاعة التي تعلو المدخل والتي تتسابق الأمم لعرض إبداعها فيها، إنني أقترح أحد تماثيل مختار، أو تمثالاً من آثارنا المصرية القديمة.

ذات ظهيرة الاثنين:

بدءًا من الثانية عشرة ظهرًا تتغير الحركة في الشوارع المؤدية من وإلى الأمم المتحدة، يخرج الموظفون إلى المقاهي المحيطة أو المطاعم القريبة، يوجد مطعم عالمي بالمقر ومقهى أنيق، لكن البعض يكون على موعد، والمواعيد والمقابلات، والحوارات نشاط أساسي بل وأهم من الاجتماعات التي نراها في

القاعة الشهيرة، خلال هذه اللقاءات تجرى التربيطات والتجبيهات ورشوة بعض مندوبي الدول الفقيرة المجهولة، هؤلاء يعيشون على بيع التصويت، حيث يعيش بعضهم منقطعًا عن بلده البعيد، لا تعليمات ولا إمكانيات، وجوده مستمد من الصوت الذي يمارسه، رفع اليد، تمنيت أن ألتقي بأحد هؤلاء.

في الشوارع ملامح تنتمي إلى شتى الأجناس البشرية، بعضهم يحيط عنقه بالتصريح الذي يسمح له بدخول المبنى، حصلت على واحد مؤقت عندما دخلت لألقي محاضرة في النادي العربي، حضرها عدد كبير من الدبلوماسيين العرب، وحرص السفير محمد شعبان الذي عين مؤخرًا مساعدًا للسكرتير العام للأمم المتحدة على حضورها وهو صديق قديم، أما المنصب الذي يشغله الآن فيعد من المناصب الرفيعة.

في الخامسة بعد الظهر، تزداد الحركة في الطرقات، الكل يخرج في موعد متقارب، تفيض الشوارع بملامح مختلفة وأحيانًا أزياء إفريقية تقليدية، عندئذ أشعر أنني في منطقة أممية حقًّا.

الثلاثاء:

في كل سنة أتسلم هذا الخطاب عبر البريد، منذ عشر سنوات ترسل إليَّ إدارة مستشفى كليفلاند خطابًا يحتوي على أسئلة عديدة تتجاوز المائة، الهدف متابعة حالة المريض الذي أجرى العملية هناك، وبالطبع الحفاظ على الصلة مع المرضى عملاء المستشفى، تعجبت للصدفة، أن أتسلم الخطاب اليوم وأنا أستعد للسفر إلى الولايات المتحدة في زيارة خاصة تتضمن مرورًا بكليفلاند حيث المستشفى وحيث صديقي العزيز الدكتور فوزي إسطفانوس، غير أنني عندما فتحت المظروف وجدت استمارة منفصلة تصلني لأول مرة هذا العام، الأسئلة فيها مختلفة، إذ تستفسر عما

إذا كانت حدثت وفاة للمريض، ثم تتفرع الأسئلة تطلب ممن سيجيب عنها من أسرة المتوفى الإجابة عن التفاصيل، كيف حدثت الوفاة؟ الأعراض، هل سبقتها متاعب؟ ابتسمت وأنا أقرأ الأسئلة، لو أن هذا الخطاب وصلني منذ أعوام عديدة لأثار عندي التشاؤم والتطير، لكنه الآن يبعث المرح في نفسي، فأنا المقصود، لم أعد أتشاءم أو أتفاءل، أصبحت متقبلاً، راضيًا بكل حقائق الحياة والوجود، راضيًا بكل ما يصير، هادئ النفس والأنفاس، فقط أدعو الله أن يجنبني العجز والنسيان لما كان، جلست أجيب عن الأسئلة وبدأت بنفي حدوث الوفاة، ثم نحيت الاستمارة الخاصة بالمتوفى (أنا طبعًا المقصود) وبدأت أجيب بدقة عن الأسئلة الأخرى، تأملت توقيع الدكتور كاسيجروف والذي أجرى لي العملية منذ أحد عشر عامًا، هو من حدده طبيبي الرائع، الدكتور جلال السعيد، مد الله في عمره، بدقة أجبت عن الأسئلة التي تتجاوز المائة محترمًا حرص الإدارة هناك على المتابعة وعلى الصلة، متمنيًا أن أجيب عنها الأعوام التالية بما فيها استمارة الوفاة، إلى أن يقضي الله أمرًا.

الكـــل.. غــربـــاء

الجمعـــة:

أهم علامة إيجابية في مصر للطيران الآن انضباط المواعيد وتحسن الخدمة، بمجرد دخولي إلى الطائرة أشعر بألفة، أنني في جزء من الوطن، طائرة نيويورك تقلع يوميًا في العاشرة صباحًا وتصل بعد رحلة مباشرة في حوالي الثالثة ظهرًا رغم أن الرحلة تستغرق إحدى عشرة ساعة ونصفًا، أتأمل تلك العلاقة الخاصة بالوقت، إنه فرق التوقيت، يظل ضوء الشمس ساطعًا فوق المحيط، لذلك ينتفي الشعور بالمسافة، ويتمدد الإحساس بالوقت، رغم وجود عدة قنوات في الطائرة تعرض أفلامًا مختلفة، فإنني أفضل القناة التي تتضمن بيانات الرحلة، أتوق إلى معرفة موقعي من الكون، في أي لحظة أنا وفي أي مكان، الشعور بالمكان يتلاشى فوق المحيط، المدى أزرق، يبدو لا نهائيًا وكأنه سيستمر إلى الأبد، فقط مياه، مياه، لا يبدو من اليابسة إلا نقطة صغيرة بعد طيران حوالي ثلاث ساعات من الساحل الأوروبي، جزر الآزور، عرف الجغرافيون العرب هذه الجزر، وأطلقوا عليها اسم جزر الخالدات، وتقول المصادر القديمة إن تمثالاً من نحاس يقوم عند طرفها، يرفع يده محذرًا بما يعني «لا خطوة بعدي» فمن تجرأ سيبتلعه بحر الظلمات، أي المحيط الذي لم يكن معروفًا الشاطئ الآخر منه، ومع ذلك يوجد في المصادر الجغرافية قصص عديدة حول محاولات عبوره، أذكر منها قصة الإخوة الثمانية الذين خرجوا من لشبونة التي عاشت أربعة قرون تحت الحكم العربي قبل استردادها وبدء ضياع الأندلس، هؤلاء الإخوة أبحروا في مركب أعدوه جيدًا، اتجهوا غربًا، واختفى أمرهم، غابوا سنوات حتى

عُدوا من المفقودين، وأطلق البعض عليهم «المغرَّر بهم»، غير أنهم رجعوا بعد حوالي عقدين من الزمان، حدثوا عن شاطئ آخر لبحر الظلمات، عن قوم يعيشون هناك، عن تماثيل هائلة، هل يعني هذا أنهم وصلوا إلى أمريكا قبل كولمبوس؟ ربما، شعوري الداخلي بعد زيارتي للمكسيك، ورؤيتي تفاصيل عديدة، منها الأهرامات وعبادة الشمس، واستمرار العلاقة بالموتى، تؤكد لي أن ثمة صلة بين الحضارة المصرية القديمة والحضارات التي قامت في القارتين الأمريكيتين، في الستينيات قام أحد العلماء الأوربيين ثورنتون هايردال ببناء قارب من البردي، عبر به المحيط، ليدلل على إمكانية قيام تلك الصلة يومًا، من يدري؟ ربما، هأنذا أتطلع إلى الأفق اللانهائي، حيث يلتقي خط السماء بالماء، كلاهما أزرق، والأزرق عندي هو لون الأبدية، اللون اللانهائي.

حدائق نيويورك

الأربعاء:

ما بين الأبراج الشاهقة لاحظت وجود حدائق صغيرة، جميلة، لكل منها شخصيتها، يتوسط بعضها نافورات مياه، أو شلالات صغيرة، زهور، شجيرات صغيرة، استفسرت من صديقي الفنان أحمد مرسي عن تلك الحدائق، من يديرها؟ من يشرف عليها؟ تتبع من؟

قال إنها وقف، كل مالك لبرج أو عمارة ضخمة يجب أن يخصص جزءًا من الأرض التي سيقوم عليها البناء، سواء كان ناطحة سحاب، أو بناء متواضع الطوابق، هذه الأرض تقام فوقها حديقة عامة ليرتاح فيها سكان المدينة، ولتشكل رئة لمانهاتن المكتظة، الصاعدة إلى أعلى لضيق المساحة، إذا

عرفنا أن متر الأرض هنا يعتبر الأغلى في العالم، لأدركنا قيمة هذا السلوك، أو تلك المبادئ التي يلتزم بها الجميع والتي تحقق عنصرًا جماليًّا وإنسانيًّا للمدينة، كالعادة في ترحالي عندما أرى أمرًا ما، أو شيئًا ما، أتجه إلى المقارنة، إلى تحايل رجال الأعمال عندنا الذين حققوا من الثراء قدرًا منشودًا إلى التحايل للاستيلاء على الأراضي المملوكة للدولة، للأسف، نحن لم نعرف الرأسمالية إلا قبل ثورة يوليو، أما النظام الاقتصادي الحالي فيستعصي على التصنيف.

الحافلات العامة

الخميس:

إذا ما أتيح الوقت فركوب الأوتوبيس متعة، العربات مكيفة، خاصة مع صيف نيويورك الذي ترتفع فيه درجة الحرارة والرطوبة الخانقة، لا زحام، اللون الأزرق هو الغالب، يجب تجهيز ثماني قطع معدنية فئة الربع دولار، يضعها الراكب في ثقب أعلى الماكينة بجوار السائق، عندئذ يضغط زرًّا فتخرج التذكرة تلقائيًّا، التذكرة سعرها دولاران، ويمكن الانتقال بها إلى خط آخر ولمرة واحدة، الإجراءات تتم على مهل، خاصة إذا تعلق الأمر بكبار السن، أو المعوقين، عندئذ يخفض السائق العربة بحيث يصبح مستوى السلم في مستوى الطريق، أما إذا كان الراكب معوقًا ويركب مقعدًا متحركًا، فعندئذ تخرج قطعة مربعة ترفعه من الباب الخلفي الواسع إلى داخل السيارة، يمكن أن تستغرق هذه العملية عدة دقائق، لا يتذمر أحد، ولا يرفع أحد الركاب صوته احتجاجًا، الأولوية لمساعدة الضعفاء وذوي الحاجات.كل رصيف في المدينة به جزء مخصص لانزلاق عربة الأطفال

أو كراسي المقعدين، عربات الأوتوبيس بخطوطها المختلفة مجهزة، كنت أتأمل تلك الوسائل الإنسانية، وبقدر ما أعجب بها، بقدر ما يبزغ سؤال الحيرة، هؤلاء الذين يحرصون على راحة الإنسان الأمريكي إلى هذه الدرجة، لماذا يهدرون أرواح ملايين البشر في العالم باستهانة وخفة؟ هذا القتل اليومي في العراق، حوادث الاغتصاب، إذلال الشعوب الضعيفة في أمريكا اللاتينية وإفريقيا، أليست نفس الإدارة؟ أم أننا إزاء إدارتين، إدارة أمريكية تتعامل مع الداخل برحمة وسمو، وإدارة أخرى تتعامل مع العالم بقسوة واستهانة، كنت أتأمل حركة الأوتوبيس عندما ينخفض مستواه ليستطيع رجل عجوز الصعود، في نفس الوقت أستدعي إلى الذهن مشهدًا من معتقل جوانتنامو القريب، رجل معصوب العينين، مقيد اليدين، محمول على عربة يد كأنه حيوان، هل الإنسان في نظر الإدارة الأمريكية نوع واحد، أم أنه حامل البطاقة الخضراء فقط؟

الثلاثاء:

عادة قديمة أن أقرأ الصحف قبل تناول الإفطار، يوميًا، ربما في الخامسة صباحًا توضع أمام الباب نسخة من جريدة نيويورك تايمز، إحدى أكبر الصحف في الولايات المتحدة، اعتدت قراءة الجريدة، وملحق الفن اليومي، وملحق الكتب الأسبوعي الذي يصدر يوم السبت، عدد السبت يزن أكثر من كيلو جرام بتعدد ملاحقه الصحفية والإعلانية، أتطلع إلى الصفحة الأولى، صورة ضخمة بالألوان ملتقطة من دار الإفتاء المصرية، يجلس شيخ وأمامه شاب يصغي، وخلف الباب سيدة تنتظر، أما الموضوع فكتبه مراسل الجريدة في القاهرة ميشيل سلاكمان، ويدور بالطبع حول الفتاوى التي صدرت عن المفتي وأحد أساتذة الأزهر، في السطر الأول يتحدث عن فتوى الثدي،

وفتوى شرب البول، الموضوع طويل، احتل الصفحة الأولى، وبقيته على صفحة كاملة في الداخل، لن أستطيع سرد ما جاء به، لكنه ينقل المناقشات التي جرت، وصلتها بالحياة الحديثة، وبالطبع تتخلل السطور نبرة الدهشة والتهكم، أرسلت العدد إلى زملائي في أخبار الأدب الذين يعملون منذ فترة في عدد خاص عن الفتاوى، وسوف يترجم كاملاً، لكنني بمجرد قراءته تراجعت مهمومًا، آسفًا حزينًا على ما يلحق دينًا عظيمًا ورسالة إلهية خالدة على أيدي بعض أبنائه، من الذين يمارسون الذبح الشرعي على الهواء وعبر قنوات التليفزيون، ربما كان هؤلاء مدفوعين من بعض أجهزة المخابرات والجهات التي تستهدف الإساءة إلى الإسلام، لكن الأدهى والأمر هذه الفتاوى الغريبة التي تخرج عن دائرة العقل وكل ما يمت إلى المنطق، وتلحق أبلغ الضرر بالإسلام والمسلمين، لو أن جهة أنفقت المليارات وجندت الجيوش وكافة وسائل الإقناع والبث تشوه ديننا الحنيف، لما وصلت إلى ما ألحقته تلك الفتاوى من ضرر وأذى، وأضرب مثالًا بفتوى إرضاع الكبير، وشرب بول الرسول عليه الصلاة والسلام.

الأمـــن أولًا

الأربـعـاء:

الأمـن، إنـه الهاجس الأول بالنسبة لنيويورك، الخلفية عندي مما سمعته ليست مطمئنة، فلا بد – طبقًا للنصائح القديمة – من الاحتفاظ بمبلغ نقدي من الدولارات لا يقل عن ثلاثين، حتى تعطيه للمدمن الذي سيبرز مطواة أو سلاحًا ما طلبًا لثمن الجرعة، أيضًا لا بد من إغلاق الباب جيدًا، حتى في الفنادق الكبرى، غير أن بعضًا ممن يقيمون الآن أخبروني

بتحسن الأحوال خلال تولي جولياني عمدية نيويورك، وقد قرأت إشادة بالرجل من إدوارد سعيد – رحمه الله – وإدوارد من أصحاب المصداقية العالية جدًّا عندي، لقد وقع حادث الحادي عشر من سبتمبر في فترته، وبذل الرجل جهدًا جبارًا لاستيعاب الحدث المهول.. ومما أذكره له رفضه شيكًا بعشرة ملايين دولار قدمه الملياردير السعودي الوليد بن طلال، في إشارة من جولياني إلى أن المال لا يعالج كل شيء، ولا يكون بديلاً للمآسي الكبرى، في فترة جولياني تحسنت الأوضاع الأمنية إلى حد كبير، والأمن إحساس قبل أي شيء، ليس مظاهر على الإطلاق، وبعد أن بدأت أتجول في المدينة بمفردي أدركت ذلك، قال لي صديق مصري مقيم إن الأمن تحسن مع تقدم الأوضاع الاقتصادية وتراجع نسبة البطالة، حتى الأحياء المعروفة بتخلفها وارتفاع نسبة الجريمة مثل هارلم حيث الأغلبية السوداء، وقع به تقدم، خاصة بعد أن قرر الرئيس السابق كلينتون افتتاح مكتب له في هارلم بدلاً من مانهاتن حيث ناطحات السحاب والشركات الكبرى، بمجرد افتتاح المكتب بدأ انتعاش المنطقة المحيطة به والرواج، أعتقد أن كلينتون واحد من أعظم رؤساء الولايات المتحدة، وحضوره الآن قوي في الحياة العامة، ولتعاطفه مع الزنوج يعتبرونه أول رئيس أسود قبل أوباما. إذا كان الأمن قد تحسن في نيويورك، فإن الحادي عشر من سبتمبر يلقي بظلاله الغامقة، أي مبنى في نيويورك الآن لا بد من إجراءات دقيقة لدخوله، في عمارة مرتفعة قرب شارع المال والأعمال «وول ستريت» قصدت إذاعة لتسجيل حوار، البوابة أنيقة، الحارس ضخم الحجم، إفريقي الأصل، أمامه عدة آلات، يطلب وثيقة إثبات الشخصية، يعرضها لأشعة لاقطة، بعد تصويرها يضغط زِرًّا، تخرج آلة أخرى ما يشبه الإيصال، إنه تصريح المرور، يجب على الزائر الاحتفاظ به، هذا الحارس ضخم المنظر أحد عدة أشخاص يتناوبون على المدخل، يتسلم

البريد ويوزعه على الصنـاديـق، كذلك ملابس السكان إلى محال التنظيف والكواء، لديه نسخ من جميع مفاتيح الشقق، يتسلم الشيكات الخاصة باستهلاك الكهرباء والمياه، للمبنى أدوار سفلية يتم فيها تجميع القمامة بنظام متفق عليه، في العمارة التي أقمت فيها لم تنقطع الموسيقى من المدخل والسلالم، قرأت في المصعد عن اجتماع للملاك في المدخل، في اليوم المحدد رأيت المقاعد مصفوفة والمنضدة التي سيجلس إليها رئيس الاتحاد، ثم فتح ممر جانبي للخروج والدخول جلس به من يرشد السكان، علمت من البك البواب أنه لم يتخلف نفر واحد، تذكرت العمارة التي أقيم فيها بالمعادي وتضم عشر شقق فقط، ومنذ سنوات عديدة لم يحضر اجتماع المالك إلا أربعة على أكثر تقدير!

أقرأ في الصحف عن محاولة تم إجهاضها لتفجير مطار كنيدي الذي تقلع منه وتهبط إليه أكثر من ألف رحلة يوميًا، اقرأ أن من خططوا أربعة مسلمين، أثناء تقليب المحطات التليفزيونية العديدة أرى برامج مختلفة عن الإرهابيين المسلمين، الإسلام والمسلمون في الإعلام المقروء والمسموع لا يذكر إلا مقترنًا بالإرهاب، وثمة تمثيليات أيضًا عن المسلمين الإرهابيين. في معرض جميل، مقام حاليًا بمتحف المتروبوليتان، عن علاقة فينسيا بالعالم الإسلامي، أرى لوحات حفر مطبوعة من القرن السادس عشر، أشخاص يقفون، بعضهم يرتدي ملابس شرقية، آخرون من إيطاليا، التعليق المكتوب يقول: تجار من البندقية ومسلمون من مصر، مع أن هؤلاء يمكن أن يكون بينهم مسيحيون أو يهود، المسلم الآن هو الآخر، هو العدو المتربص، هو الإرهابي أيًا كان، رأيت الرئيس بوش يخطب ضد كوبا، ويطالب الشعب الكوبي بالانتفاضة ضد الإرهابيين، يقصد كاسترو ورجاله، وبالطبع كاسترو ليس إرهابيًا، إنه زعيم ثوري عظيم، لكن كل متمرد على الولايات المتحدة في نظر بوش إرهابي،

غير أن المسلمين في الصدارة، وتتأكد الحملة أو يتعمق المفهوم كلما خرج من بين المسلمين من يذبح على الهواء، أو يتحدث عن إهدار الدم والقتل، في نفس الوقت ينشغل بعض علماء المسلمين بقضايا غريبة، في مشهد أقرب إلى العبث، أتابع من هنا ما يجري حول فتوى شرب بول الرسول من مفتي الديار المصرية، الديار المصرية التي كانت تعلم الدنيا الإسلام وتنشر مبادئه الصحيحة، لا أدري، هل أتحسر أم ألطم؟

الخوف على البنت

الخميس بعد الظهر:

أركب التاكسي، العربات كلها صفراء اللون، المقاعد الأمامية معزولة تمامًا عن الخلفية، لكن ثمة طاقة مفتوحة يتصل الحديث عبرها بالسائق، بعد أن تحركت العربة فوجئت به يتحدث إليّ بالعربية.

«أنت مصري..».

لهجته أقرب إلى الشامية، لكنه جزائري من البربر، قال لي إنه يعيش هنا منذ عدة سنوات، يعمل ستة أيام في الأسبوع، أربع عشرة ساعة يوميًا، يصل دخله الشهري إلى ستة آلاف دولار، يدفع منها ألف دولار إيجارًا لبيت في نيوجرسي، الإيجارات مرتفعة جدًا في مانهاتن، قال إن ما يقلقه مستقبل الأولاد هنا، لديه ولد وبنت، قلت له: أنت تخشى طبعًا على البنت، قال بأسى إن هذا ما يؤرقه، المجتمع مفتوح جدًا، والجيل الثاني لا أحد يعرف ظروفه، إن ارتباطه أقل، قلت له حصن أبناءك بالقيم التي نشأنا عليها ولا تخف عليهم، قال بأسى إنه قلق جدًا على البنت، سألته عن عمرها، فوجئت به يقول إنها وُلدت في مارس الماضي، أي إن عمرها أقل من أربعة شهور،

بالطبع ضحكت، قلت له، يا رجل هذا القلق كله منذ الآن، من يدري كيف يكون المستقبل؟ أمامك الفرصة لتعلمها وتربيها. بعد لحظات صمت، قال إنه لا يتحدث بالعربية في الجزائر، لأنه بربري، بعد لحظات صمت أيضًا، قال إنه عرف مصريتي من لهجتي الإنجليزية وملامحي أيضًا، ثم قال إنه لا يستطيع العودة إلى الجزائر، لا يوجد عمل، والظروف الاقتصادية صعبة جدًّا، مضطر إلى العمل سائقًا لدى الشركة وبذل الجهد لكسب المال والاستمرار رغم خوفه على البنت!

باكستاني في المتحف

السبت:

في إحدى صالات متحف الفن الحديث يقترب مني الحارس ذو الملامح الشرقية، رجل في حدود الستين، سألني: مسلم؟ أجبته: الحمد لله، عندئذ أمسك بيدي، قال إنه من باكستان، جاء إلى الولايات المتحدة منذ أربعين عامًا، قلت إنني من مصر، سألني عن عدد المصريين، قلت حوالي خمسة وسبعين مليونًا، هز رأسه، قال: مصر أمة عظيمة، أومأت شاكرًا، قال بأسى إنهم ينظرون إلى المسلمين جميعًا بعين الشك والريبة، قلت إن هذا مؤسف، قال إننا نؤمن بموسى وعيسى لكنهم لا يؤمنون بمحمد عليه الصلاة والسلام. قلت إننا مأمورون بالإيمان، إن الإسلام يعتقد في الرسل السابقين، أما الآخرون فهداهم الله، قال إن هذا مؤلم، قلت فلندع لهم، قال متوجعًا، لكن أحوال المسلمين ليست على ما يرام.

يدا الرجل لم تفارق يدي، هذا رجل يشكو إليّ حزنه وهمومه، رغم أنه لم يلتق بي قط، ولا يعرف عني شيئًا، لكن مجرد أنني مسلم، فهذا يعني بداية

الثقة، الإسلام هنا ليس دينًا فقط، لكنه هوية أيضًا، بعد أن استفسر عن عملي، والغرض من حضوري، راح يردد: الحمد لله. ورددت معه: الحمد لله..

الكـــل غـــربـــاء

الجمـعـة:

أضطر أحيانًا إلى الاستفسار، عندما توقف الأوتوبيس رقم خمسين الذي يقطع المدينة بالعرض، فتح الباب، قبل أن أصعد سألت السائق إفريقي الأصل عما إذا كان الطريق صحيحًا إلى الحديقة المركزية؟ هز رأسه، وقال إنني سوف أغير الحافلة في طريق ماديسون.

لاحظت لطف الناس في الشارع، دائمًا يختتمون الحديث بعبارة «أهلاً بك» أو «استمتع»، عندما لاحظت دماثة الناس، وإبداءهم التعاون، سألت نفسي، لماذا أو كيف تنتقل هذه الروح إلى السياسة الأمريكية في العالم، خاصة في الشرق الأوسط؟ غير أن صديقًا مقيمًا هنا، قال إن ما يجري في العالم خارج الولايات المتحدة لا يعني الناس هنا إلا بمقدار ما ينعكس عليهم في الداخل، من الأمور المستقرة هنا إدانة الكذب، إذا كذب الأمريكي في إقرار الضرائب، أو في معاملاته مع المجتمع يعتبر ذلك سقوطًا أخلاقيًا، إذن.. ماذا عن الكذب السياسي؟ لقد شنت الولايات المتحدة حربها ضد العراق، بحجة وجود أسلحة الدمار الشامل، وبعد تدمير العراق، واستباحتها من خلال عنف لم يقدم عليه المغول، يتضح أنه لا وجود للأسلحة، ألم يكن ذلك كذبًا لتبرير الاحتلال ونهب الثروات المادية والثقافية؟ يقول محدثي: نعم.. لكن الكذب هنا يعني الخارج، ليس إلى الداخل، أعجب من تلك المفارقة، وأعود إلى تأمل الشارع، الكل يمضي بخطى سريعة، لاحظت ندرة الأطفال، المقيمون هنا في

مانهاتن معظمهم بالغون، يعملون فرادى، يقيمون فرادى، لذلك تتعدد مظاهر الوحدة، في المقاهي، في المطاعم، في الطريق، حيث يضع كل من أرى سماعتين صغيرتين يصغي إليهما إلى موسيقاه، معلنًا قطع الصلة بما حوله.

كل من في نيويورك قادم من جهة أخرى، إما مهاجر، وإما مقيم إلى حين، لذلك الكل غـربـاء، وعندما يصبح الجميـع غـربـاء، تخف مظاهـر التميز أو التعصب.

في المتروبوليتان

المتــروبــوليتـــان:

الســبــت:

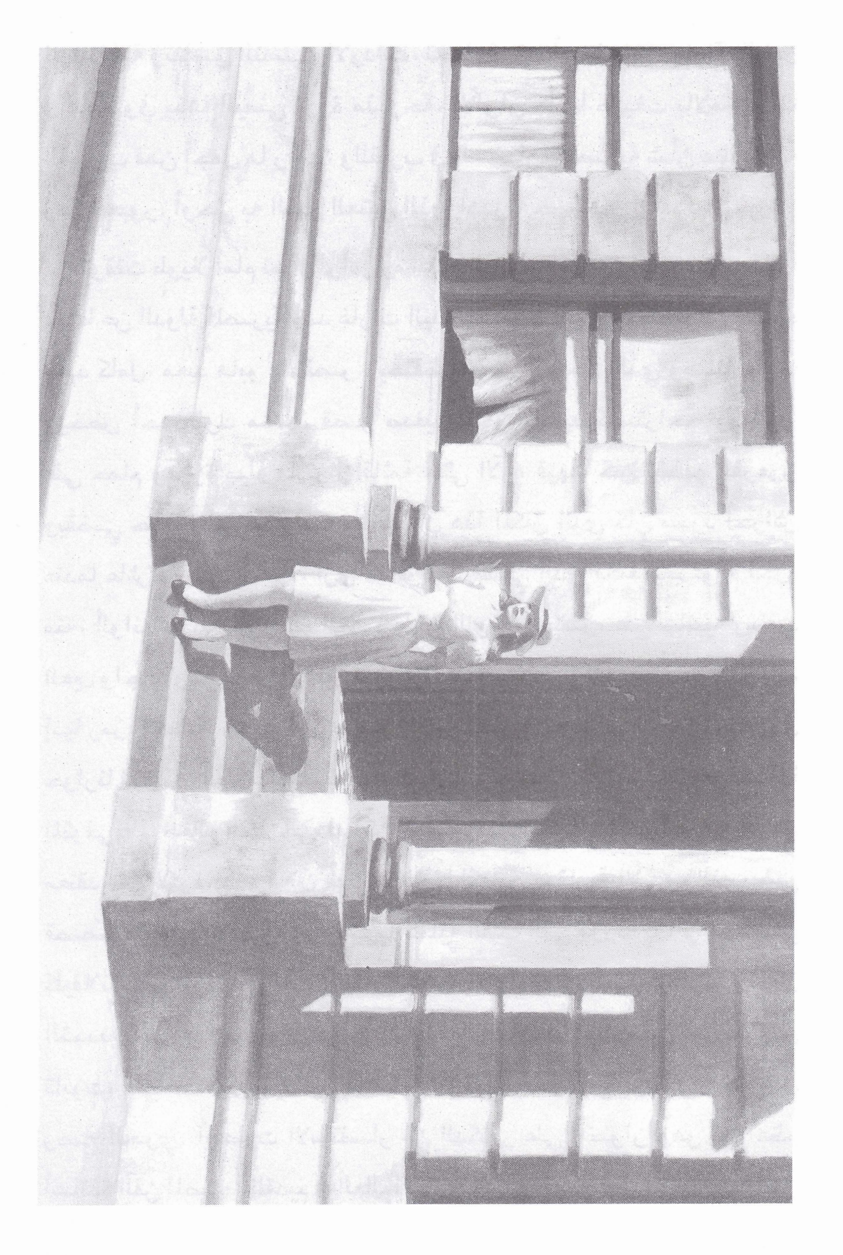
عبرت المحيط الأطلنطي إلى نيويورك أربع مرات خلال ربع قرن، غير أنني لم أقم في المدينة، دائمًا كان مطارها نقطة عبور إلى أماكن أخرى، المكسيك، كليفلاند، واشنطن، إنها المرة الأولى التي سأقيم فيها: الصباح الأول، ما زلت لم أعتد بعد على فرق التوقيت القاهري والذي يبلغ سبع ساعات إلى الوراء، في القاهرة تكون الثانية عشرة ظهرًا، في نيويورك الخامسة صباحًا، رغم الإرهاق فإنني قررت زيارة متحف المتروبوليتان، في كل مدينة أنزلها أقصد متاحفها نهارًا، ودور المسرح أو السينما ليلاً، وفي كل متحف أمضي إلى قسم معين، بل عندما أتردد عليه مرات أقيم العلاقة بقطع معينة، في اللوفر مثلاً يوجد قناع من الدولة الوسطى يشبهني إلى حد كبير، لا بد أن أبدأ به في قسم المصريات قبل الشروع، أتأمله وربما يتأملني، قرأت عن المتروبوليتان، واقتنيت دليل محتوياته، لكن فرق كبير بين أن نرى لوحة في كتاب، وأن نرى الأصل، لا شيء مثل الأصل، لكن الظروف لا تتيح للإنسان أن يرى الأصول كلها، لذلك إذا سنحت الفرصة يجب اقتناصها إلى آخر مدى، طبعًا يقتضي ذلك تحديد الأهداف، هنا قررت رؤية القسم المصري أولاً، ثم تتبع لوحات فنان أمريكي عظيم، خير من عبر عن حالة الوحدة الإنسانية في الحياة الأمريكية، أعني إدوارد هوبر الذي توفي عام سبعة وستين، بدأت بالمتروبوليتان، المبنى ضخم، السلالم عريضة، مهيبة، القسم المصري هو

الأهم، والبداية، مقسم حسب مراحل التاريخ المصري، مرحلة حضارة نقادة، أي ما قبل الأسرات هامة جدًّا، وصلنا منها أوانٍ فخارية، وحُلي، ومومياء لإنسان مدفون يتخذ وضع الجنين، موجود في المتحف البريطاني بلندن، أتوقف كثيرًا أمام مثل هذه المومياء، وأتأمل المسارات التي لم تدر بخلد البشر، أتخيل الرحلة التي قطعتها كل آنية أو قطعة حلي ازدانت بها أنثى يومًا، في نفس الوقت أرى الحاضر في المستقبل البعيد كما أرى الماضي المولي، فهذه المدن الكبرى التي نمر بها وتذهلنا أحيانًا ضخامتها وتدفق الحيوات بها ربما لن يتبقى منها إلا بعض الأواني الصغيرة، أو الآثار الهشة التي لا تنبئ أبدًا بما كانت عليه الأحوال، أتوقف طويلاً أمام كل ما يمت إلى نقادة، أتمنى الاهتمام بالمدينة التي تحمل اسم حضارة تعد الركن الركين في مسارات البشرية، نقادة تتبع الآن محافظة قنا، الوضع الصحيح في رأيي هو تبعيتها للأقصر، وكذلك العناية بها، وقف البناء بالمسلح الذي أفسد مظهرها، إبراز قيمتها الحضارية، وإضافة مزاراتها إلى البرامج السياحية، مثل هذا لن يتم إلا بعد قيام وزارة مستقلة للتراث القومي، تلك هي الفكرة التي أدعو لها وتثير استفزاز البعض من المسئولين، أو المرتزقة التابعين لهم، ولي عودة مفصلة لهذا، لكنني أفضل المضي في زيارة هذا المتحف الهام.

الحديث في القديم

السبت، الثانية عشرة ظهرًا:

في القسم المختص للدولة القديمة مقبرة كاملة من الأسرة الثانية، اكتشفت في بداية القرن الماضي ونقلت محتوياتها كاملة عن الأقصر إلى نيويورك، اسمها «مكتورا» نسبة إلى صاحبها، أجمل ما تتميز به مجموعة التماثيل الخشبية، أهمها حاملة القرابين، فتاة مصرية شابة، قوامها مثالي في



الاستقامة وتناسق النسب والأرداف، تحمل فوق رأسها «قفة» مليئة بالخبز والدوم وفي يدها اليمنى إوزة مذبوحة، الألوان كأنها صيغت بالأمس، أما القوارب فمن أجمل ما رأيت، وللقارب في الحضارة المصرية شأن عظيم، إنه رمز العبور، أوحى به النهر العتيق الذي أهدرنا حرمته في العقود الأخيرة.

توقفت طويلاً أمام تمثال لرأس رمسيس الثالث، الفرعون الذي حارب كثيرًا دفاعًا عن الدولة المصرية ضد غارات البدو وشعوب البحر، وصلنا من عصره معبد كامل، معبد هابو بالأقصر ويحتفظ بالقصر الوحيد الذي وصلنا سليمًا ويخص أحد ملوك مصر، قصر صغير ملحق بالمعبد كاستراحة، ويحتوي على حمام ودورة مياه ما تزال قائمة حتى الآن، فيهما كان يتطهر الفرعون ويقضي حاجته، ها هو رأسه يطالعنا في هذا المكان الذي كان مجرد أحراش عندما عاش وسعى، أخيرًا، أرى التابوت الخشبي الذي أحتفظ بصورة لجزء منه، ألوانه جميلة، طازجة، الغالب عليها اللون الأخضر، على جانبيه رسمت العين واجت، وهي ترمز إلى عين أوزير إله العالم الآخر والمعبود المصري الأول، إنها رمز الحماية، وحتى الآن يرسم بعض المصريين عينًا عند المدخل، ونقول في حوارنا اليومي، العين عليها حارس، العين على جانبي التابوت، يطل من خلالها المتوفى على العالم الخارجي، لم يكن الرسم زينة، إنما كان تعبيرًا عن رؤية، عن معتقد، عن فكرة، هذه العين جعلتها غلافًا لكتابي «مقاربة الأبد» والذي يضم قصصًا متصلة، منفصلة، عن تجربة عملية القلب التي مررت بها في مستشفى كليفلاند، غير أن ما توقفت أمامه رسمان، الأول يمثل الجعران الأسود رمز التجدد والولادة، مرسوم على رأس المومياء، والآخر لم أره من قبل على أي تابوت، على القدمين، ويصور مومياء المتوفى موثقة إلى ظهر ثور، والثور في وضع الجري، أضمرت الاستفسار من الدكتور علي رضوان وهو من أعظم أساتذة الفن المصري القديم في العالم، لعله يفسر لي، ثمة رسم داخل تابوت آخر

يصور المتوفى مرفوع اليدين تمامًا، كأنه يسقط من مرتفع غامض، الخطوط والألوان كأنها تنتمي إلى الفن الحديث، أمتلئ بمفردات المغامرة الروحية الأولى في مسار البشرية. حولي يتدفق الزوار، رحلات جامعية لطلبة المدارس الابتدائية والإعدادية، والثانوية، المرافق يشرح، لقد انقطعت هذه الرحلات من مدارسنا وكانت جزءًا من برنامج التعليم، وأتمنى عودتها إلى كافة المراحل، بحيث تكون مادة لتكوين الطلبة، وبوابة لمعرفة تاريخ المصريين، أقصد تعرفهم عليه بكل مراحله، سواء كان مصريًا قديمًا أو قبطيًا أو عربيًا إسلاميًا، هذه الحلقات المتوالية لا يمكن فصل إحداها عن الأخرى إذا أردنا أن نفهم وأن نستوعب روح هذا الوطن الذي سنصبح جزءًا من ثراه، لم أر أي عربي في الزوار، أما عدد اليابانيين فكان كثيفًا، يتجه الجميع إلى المعبد الصغير الذي أهدته مصر إلى الولايات المتحدة نظير ما بذلته من جهد في إنقاذ آثار النوبة، المعبد المعروف بدندور معروض في قاعة فسيحة تطل على الحديقة المركزية لمدينة نيويورك، وتبلغ مساحتها ما يقارب ميدان العتبة، حوله فراغ هائل منسق ليبرز جمالياته، غير أن المعبد لم يكن هدفي في تلك الزيارة المفتتح، بل بعض القطع الصغيرة التي رأيت صورها في الكتب، خاصة هاتين الشفتين الأنثويتين، الملكيتين.

تلك الشفاه

الثلاثاء - الواحدة ظهرًا:

هذا تمثال ناقص، منحوت من حجر أصفر لم أعرف له مثيلاً في الفن المصري، وصل إلى زمننا متحطمًا، مكسورًا، بقى منه الجزء السفلي للرأس الملكي سليمًا، فقط، هاتان الشفتان، فقط الشفتان، لكن ما بقى منه يكفي، يكفي لمواجهة الجمال، ويكفي للإحساس بالأنوثة الثرية، ويكفي لمحاولة فهم ما كان يومًا، وما زال، وما يزول، وما بقي إلى حين.

لا أحد يعرف على وجه الدقة لمن، التمثال موضوع في قسم تل العمارنة، من خطوطه العامة يبدو أنه ينتمي إلى فن هذه المرحلة، حيث أصبح الفن المصري أقرب إلى الطبيعة التي يبدو عليها الإنسان وليس أسيرًا للصرامة التي استمر عليها منذ الدولة القديمة حيث تفترض القواعد تصوير الملامح الإنسانية وفقًا لقواعد ثابتة، مع بدء بذور الثورة الروحية لأخناتون تحرر الفن من قواعده واتجه إلى تصوير الإنسان والطبيعة كما هما، من هنا تنتمي الشفتان إلى فن تل العمارنة، لكن لا يعرف أحد بالضبط لمن، هنا يحل التخمين، هكذا تصبح كل الاحتمالات ممكنة، الشفتان ثريتان، خصبتان، في انطباقهما على بعضهما البعض تفتح وانفراجة، توحيان بكافة المداخل المؤدية إلى صميم الغياب، بريئتان من كل خطأ أو نقص، تتصلان بالذقن الذي بقي منه جزء كامل الاستدارة، عندما تتحقق النسب المتوازنة نرى الكمال المرجو، رغم اختفاء العنق فإنه يمكن رؤيتهما من خلال ما تبقى، كذلك العينان، ثمة صلة بين الشفتين والعينين، هذا إذا اتجهنا إلى أعلى، أما إلى الأسفل فثمة العنق، كل هذا موجود رغم أننا لا نراه، تلك معجزة الناقص إذا كان الموجود، المتبقي منه دالًا، مكتملاً في حد ذاته، يقدر علماء الآثار أن التمثال لرأس الملكة تـاي زوجة أمنحتب الثالث والد أخناتون، هذا لا يعنيني في شيء، ما يعنيني أن هاتين الشفتين الرائعتين في تماسهما، في انطباقهما قد وُجدتا يومًا، وأن فنانًا عبقريًا لا نعرف عنه أي شيء أبقاهما ليصلا إلينا كرسالة للعصور التي لم توجد فيها صاحبتهما. إنها كانت يومًا ما، لحظة ما، سنة ما، عصرًا ما هناك، تحيا وتسعى، وتنطق وتشرب وتأكل وتتماس من خلالهما، غير أنها انطوت، مضت وما رأيته في المتروبوليتان ليس إلا إشارة دالة، هذا جوهر الفنان، إنه رسالة حافظة، دالة على الوجود، مقاومة للعدم.

أثـــرياء أمـريـــكا

السـبـت، الثـالـثـة ظـهـرًا:

أتهيأ لمغادرة القسم المصري، يكفيني هذا اليوم، الأقسام الأخرى غدًا وبعد غد، يوجد معرض خاص هام للعلاقة بين فينسيا الإيطالية والعالم الإسلامي جاء إلى المتحف من معهد العالم العربي، قررت أن أخصص له يومًا، للذهن قدرة على الاستيعاب، ما يشجعني أيضًا أن البطاقة الصحفية الدولية تعفيني من أي رسوم، سعر الدخول للفرد عشرون دولارًا، مجرد إبرازها يفتح لي الباب مجانًا، الموظفون في غاية الدماثة والرقة، لاحظت أن العديد من القطع المعروضة مهداة من شخصيات أمريكية ثرية، مكتوب اسم المتبرع والسنة، بل علمت أن هؤلاء الأثرياء هم الذين أنشئوا هذه المتاحف الضخمة والمؤسسات العلمية والمعاهد. والمستشفيات، تبلغ قيمة أبحاث قسم القلب بمستشفى كليفلاند سنويًا ستين مليون دولار، كلها تبرعات من الأثرياء والقادرين، وفي المتاحف الأخرى لمحت أسماء روكفلر وفورد وغيرهما على لوحات عالمية مهداة منهم إلى المتاحف، هذا بخلاف المنح الدراسية والعلمية، في مصر لم نسمع مثل ذلك عن الأثرياء الجدد وباستثناء حالة متواضعة جدًا أو اثنتين لم نر أي مبادرة من المليارديرات المصريين لدعم العلم والفن والآثار، بالعكس بعضهم من أجل الربح يدمر الآثار ويهدد الثروة القومية لمصر لإضافة المليار فوق المليار، للرأسمالية الحقيقية تقاليد تثير الاحترام، وتجعل جوهرها قريبًا من الاشتراكية التي حلمنا بها يومًا ولكن ما لدينا الآن لا يمت إلى أي نظام معروف، في كليفلاند سألتهم عن مالك المستشفى، قالوا لي إنه شعب المدينة، كلهم مساهمون فيها، قلت لنفسي: أليس هذا جوهر الاشتراكية؟



ليس مثل الأصل شيء..

الأربعـــاء:

عرفت متحف الفن الحديث الشهير باسم «موما» من الكتب، قبل أن أدخل مبناه أول مرة في ربيع عام ألفين وسبعة، في سنة ثمانية وتسعين كنت في زيارة لمتحف اللوفر، وله مكتبة كبيرة تقع تحت الأرض، تعد من أكبر المكتبات المتخصصة في الفن التشكيلي، من عادتي أن أقتني منها ما أرغب، وجدت مجلدًا ضخمًا يتجاوز ألف صفحة عن متحف الفن الحديث بنيويورك.. طباعة اللوحات به جيدة جدًّا، على ورق مصقول، به أدق التفاصيل عن المتحف منذ تأسيسه وفتح أبوابه للناس في السابع من نوفمبر عام تسعة وعشرين من القرن الماضي، تطالعني صور الذين أداروه، أشرفوا على تنسيقه، أيضًا صور أصحاب المجموعات الفنية التي أهديت إلى المعرض، خاصة من عائلة روكفلر الثرية جدًّا، عندما عرفت متاحف نيويورك اكتشفت أن المقتنيات مصدرها هدايا من تلك الأسر العريقة، الشهيرة برأسماليتها، وبدا حرص كل منها على ترك بصمة على الحياة الثقافية، ذكرني ذلك بأثرياء مصر العظام قبل ثورة يوليو الذين خدموا الفن والثقافة، ويكفي ذكر محمد محمود خليل باشا الذي اقتنى لوحات عالمية من أوروبا عامة وفرنسا خاصة، أصبحت مجموعته تشكل كنزًا ثقافيًّا لمصر رغم ما حدث عليها من اعتداءات منذ السبعينيات في القرن الماضي وصل إلى سرقة إحدى لوحاته الشهيرة «لوحة لفان جوخ» وقيل إنها عادت من الكويت، لست خبيرًا، لكنني كلما وقفت أمامها أكاد أوقن أنها ليست الأصل (**اللوحة سرقت في عام 2010**)، لم يعد لدينا أمثال محمد محمود خليل باشا، أو قوت القلوب الدمرداشية، ولذلك

ظروف عديدة يرجع أهمها إلى طبيعة الثراء وظروف نشأته في كل مرحلة، لقد عرفت متاحف كبرى يمت كل منها إلى بلد له نظام خاص، ويصل التناقض إلى حد العداء كما كان الأمر بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة، في البلد الشيوعي كان احترام الثقافة قيمة أساسية. حافظ الشيوعيون على ما جمعه القياصرة، وعندما زرت متحف الأرميتاج عام ستة وثمانين من القرن الماضي كنت حائرًا بين رؤية روعة القصر الذي لم يمسه أحد خلال الثورة وثراء ورفعة المقتنيات الفنية من مختلف الحضارات. في الولايات المتحدة قام الأفراد الأثرياء بما قامت به المؤسسات في الدول الاشتراكية، المشترك بينهما احترام الثقافة، واعتبارها قيمة عامة للمجتمع كله. هذا ما لم يتحقق بعد في مصر، حتى إذا وجدنا من يهتم بشراء لوحة أو تشجيع عمل فني أو ثقافي، يكون العنصر الشخصي هو الغالب أو السعي إلى قضاء مصلحة أو الاستثمار، ليس الفن في حد ذاته إلا فيما ندر، في زياراتي الثلاث لنيويورك خلال العامين الأخيرين، أمضيت ساعات طوالًا في المتروبوليتان، وفي الموما، ومتاحف أخرى، هاأنذا أمشي من الطريق الثاني إلى الشارع رقم ثلاثة وخمسين، أعبر النواصي، المسافة توازي تلك الفاصلة بين العباسية والعتبة، لكنها ليست في خط مستقيم، أجتاز المربعات التي تنطلق منها ناطحات السحاب، في هذه المرة ألاحظ تزايد اللافتات التي تعلن إفلاس محلات شهيرة وتصفية المعروضات بأثمان بخسة قد تصل إلى عشرة في المائة من الأصل، أحد أعراض الأزمة الاقتصادية السوداء التي تعصف بالولايات المتحدة، أجتاز المدخل المطل على الشارع، أتجه إلى مكتب يجلس إليه عدد من الموظفين الشباب، أبرز بطاقتي الصحفية الدولية، الموظف لا يراجعها، لا يطلبها للفحص، على الفور يقدم لي بطاقة مجانية، القاعدة الأساسية هنا في المجتمع أن الإنسان صادق فيما يقول، لكن إذا اكتشف أنه كاذب، أو أن البطاقة منتهية الصلاحية هنا تبدأ

المشكلة الكبرى، لم يكن الموقف السلبي الذي تعرض له بيل كلينتون سببه أنه أقام علاقة مع موظفة في البيت الأبيض، بل لأنه لم يقل الحقيقة وهو أحد أعظم رؤساء الولايات المتحدة وألمعهم، أتجه إلى السلم المؤدي إلى طوابق المبنى الخمسة، أتوقف أولاً أمام اللوحة التي توضح الأنشطة التي يشهدها المتحف الآن، المتحف مؤسسة متكاملة، فيها معهد للدراسات، ومحاضرات يومية، يلقيها كبار المتخصصين، ومعرض يتغير كل شهر مرة لفنان يكون غالبًا من ثقافة أخرى، دائمًا أبدأ بالاستثنائي، المعروض لفنانة من جنوب إفريقيا أسمع اسمها لأول مرة، اسمها مارلين دوماس، تعرض للمرة الأولى في الولايات المتحدة، إذن إلى الطابق الخامس حيث يقام معرضها، إلى جانب معرض الإسباني الشهير خوان ميرو، ولكن قبل أن أتوقف عندها فلألقِ نظرة على المبنى.

الحيـــاة عـــرض

الأربــعــــاء:

ما ينفرد به هذا المتحف أن تصميم البناء يمزج ما بين الحياة الحقيقية والمعروض، يجعل اللحظة عرضًا مستمرًا، لم أجد هذا في المجلد الضخم الذي اقتنيته، ولكنني اكتشفته منذ الزيارة الأولى عندما لاحظت التكوين الخاص للنوافذ، واللون الرهيف الذي به مسحة من البني، عندما تطلعت من الداخل إلى الخارج لاحظت تغير لون الضوء والطابع الخاص للزجاج الذي يجعل الوجود الخارجي كأنه عرض مستمر، هكذا تبدو واجهات المباني المواجهة، حركة البشر في الطريق كأنها تمت إلى عالم آخر، أما الحديقة المفتوحة التي توزع فيها عدد من التماثيل لأشهر فناني القرن العشرين فبدت ذات طبيعة خاصة، تماثيل لجياكوفتي، لرودان، لميرو، يغطي بعضها

الثلج الأبيض الذي يتساقط منذ الأمس، كلما نظرت من نافذة وجدت رؤية مغايرة للتماثيل، رؤية محفزة على التفكير والتأمل.

عندما بلغت الطابق الخامس، نظرت إلى الجدار المواجه، مصمت تمامًا، مساحة هائلة من اللون الأبيض، لكن قرب الطابق الأول تنفتح نافذة مستطيلة بالعرض، توازي درجات السلم الأخيرة، نرى من خلالها حركة الأقدام والسيقان معزولة عن أصحابها فكأنها إشارات إلى حياة خفية وليست معاينة لحركة حقيقية.

في الطابق الأول دائرة من وسائد مختلفة ألوانها، يمكن أن يتمدد فوقها الزائر بعد خلعه الحذاء، من الطابق الخامس يبدو الزائرون حول الدائرة أو أولئك المتمددون فوق الوسائد أو في قلب الدائرة كأنهم جزء من تشكيل كبير، كأنهم لوحة حية، كذلك تبدو حركة البشر فوق السلالم المتحركة، كأنهم لوحة فوتوغرافية كبرى، لكن ما يجسد الفكرة التي أدركتها تلك النوافذ الفسيحة التي تحيل الخارج كله إلى لوحة عرض ضخمة، فيها الواجهات الصامتة للمباني، والبشر الرائحون والغادون، والمصائر الخفية، مع تكرار المرور بمثلها والنظر من خلالها يتداخل المتحف مع الخارج، فلا ندري أيهما العرض الحقيقي؟

الأصــــل والصـــــورة

الأربـعـــاء:

ليس مثل الأصل شيء..

هذا ما هتفت به في سريرتي عندما فوجئت باللوحات التي أعرفها من كتب الفن التي اقتنيتها من عواصم العالم، وبعضها أنفقت عليه كل ما أملكه،

ليلة عيد الميلاد

الثلاثاء ليلًا

أقف عند الناصية منتظرًا وصول الشاعر، الأديب فرانسوا باسيلي، المطر يتساقط منذ العصر، يضايقني أكثر من الثلج، الثلج يعلق قليلاً بالملابس ثم يتلاشى، أما المطر فإنه ينفذ مباشرة عبر الملابس، إضافة إلى تعلق قطراته بزجاج النظارة، الطقس بارد، درجة الحرارة تحت الصفر، لم أرتد المعطف، قدرت أنني سأدخل إلى السيارة مباشرة، في نفس الوقت أرتدي ملابس داخلية من الصوف، سروالًا طويلًا، وفانلة ذات أكمام، إنه الرداء الداخلي الذي يجعل الجسم شبه مجلد بالصوف تحت الجلباب، إنه اختراع الفلاحين المصريين القديم، في كل سنة أقتني هذا الرداء من عوف، المحل القديم بالحمزاوي والذي ما زال يعرض بعض المنتجات ذات الطابع المصري الخالص، أنظر إليها برضى وحنين، وبعين أخرى يملؤها القلق إلى المنتجات الصينية التي تزحف شيئًا فشيئًا، هذا الطاقم الداخلي يحصنني ضد البرد، خاصة عند السفر إلى البلاد التي تشهد تلك الرياح القادمة مباشرة من عمق القطب.

فرانسوا باسيلي هاجر من مصر عام سبعين، متخصص في الإدارة، جاء إلى الولايات المتحدة، ومثل العديد من المصريين المهنيين حقق نجاحًا، إلا أن مساهماته الأدبية في الصحف العربية وأخبار الأدب التي تفتح صفحاتها للأدباء العرب في المهجر وما أكثرهم الآن، مساهماته هي محور علاقتي به، ما من مرة زرت فيها نيويورك إلا ومثلت في صالونه الأدبي الذي يحضره المعنيون بالثقافة والفن، نتحدث فيه، ونصغي إلى الموسيقى التي

يعزفها على العود عادل مليكة، الذي يحفظ أغاني محمد عبدالوهاب، ويدمع الحاضرون تأثرًا إذ ينشد:

يا مصر أنا عشقت هواكي وبيجري في دمي
أحب نيلك وسماك، إنتي أبويا نتي أمي

عندما وصلت الأسبوع الماضي، طلبت منه أن أزور الكنيسة ليلة الاحتفال بعيد الميلاد لأقدم التهنئة إلى الإخوة الأقباط، من أعرفهم ومن لا أعرفهم، إذ كيف أكون موجودًا في نيويورك ولا أشاركهم أفراح عيد الميلاد، هذا ما أقوم به في القاهرة، أحرص على حضور الاحتفال الكبير بالكاتدرائية، هنا لم أكن أعرف إلى أين أذهب بالضبط، لم يسبق لي ذلك، اقترح فرانسوا أن نذهب إلى المقر البابوي في نيوجرسي. إليه يذهب القنصل المصري العام في نيويورك، وأعضاء البعثة المصرية للأمم المتحدة، والذين يرغبون في المجاملة من الزائرين الذين يتصادف وجودهم مثلي، قرر فرانسوا أن يجيء من نيوجرسي حيث يقيم، إلى مانهاتن حيث أقيم، وتلك مسافة تقارب ما بين دمنهور والقاهرة، رن هاتفي المحمول، قال فرانسوا إنه وصل، وإنه سيخرج من العربة لكي يراني، ثم صاح إنه يراني، وفي نفس اللحظة لمحته، تعانقنا، واستدرت لأركب السيارة إلى جواره لننطلق إلى نيوجرسي.

ليلًا

من مانهاتن إلى نيوجرسي:

ليس أسهل من الحركة في مانهاتن، وأصعب من الحركة في نيوجرسي، هذا بالنسبة لي طبعًا، مانهاتن أحد أقسام ولاية نيويورك، إنها الجزء الأشهر لوجود مراكز المال والثقافة فيه، شارع الوول، شارع برودواي، ثم تخطيط

طباعة فاخرة وأنواع نادرة من الورق، لكنني دائمًا ما كنت ألحظ اختلاف الألـوان بين الطبعات المختلفة، لـديَّ أكثر من عشرين مجلدًا لفنان أحبه وأهوى ألوانه؛ لأنه يرى العالم بعيني طفل، ورأيي أنه من أعظم الفنانين الذين عاشوا في القرن العشرين، إنه هنري ماتيس، أقارن بين طبعات اللوحة الواحدة فألمح الاختلاف بسهولة،هناك عنصر مهم أيضًا وهو حجم اللوحة، بعض اللوحات في الواقع وجدتها أصغر مما تصورت، والبعض الآخر أكبر مما قدرت، حقًّا.. ليس مثل الأصل شيء.

في الزيارة الأولى كنت أتعمد نسيان ما رأيته من صور في المجلد الضخم حتى أستمتع بالاكتشاف، عندما وجدت نفسي أمام لوحة الغجري النائم لهنري روسو كدت أصيح وأنا بمفردي، لولا أنني خشيت تطلع الزائرين واستنكارهم، خاصة أنني كنت العربي الوحيد طوال ساعات أمضيتها في متحف المتروبوليتان، أو الفن الحديث، مرة واحدة فقط، كنت في صالة الفن المعاصر بالمتروبوليتان، كنت أقف أمام تمثال شهير لرودان أحد أشهر النحاتين في الفن الحديث، وهو يُبقي على أصل الصخرة التي نحت منها عمله الفني، فكأنه يذكر بالأصل، وهذا مفهوم صوفي، فوجئت يومئذ بصوت أعرفه يخاطبني بالعربية.

«أهلاً بك في المتروبوليتان يا أستاذ غيطاني».

التفت إلي محدثي قائلاً:

«من الطبيعي أن أجدك هنا».

كان الدكتور عبدالوهاب المسيري، جرى ذلك منذ عام تقريبًا، كان يتلقى أحد مراحل العلاج، ورغم صعوبة حالته لم يكن يكف عن شراء الكتب، وزيارة المتاحف، أشرت إلى التمثال قائلاً:

«ألا تجد رؤية صوفية هنا؟».

تساءل: كيف؟

قلت إن الفنان تعمد إبقاء الصخرة التي نحت منها التمثال، كأنه يذكرنا بالأصل، كأنه يقول، إنما هذا الجسد من تلك الأرض، أليست هذه صوفية؟

قال وهو يتطلع ممعنًا: نعم.. لكنها صوفية مادية!

ورغم أنني لم أفهم معنى المصطلح «صوفية مادية» لم أستمر في حوارنا العابر، كان المسيري من الشخصيات التي أحترمها كثيرًا.

وحــــدة

الأربـعــــاء:

من اللوحات التي توقفت أمامها طويلاً، والتي عدت خصيصًا كي أراها مدة أطول، ثلاثة أعمال لإدوارد هوبر، وهو فنان أمريكي توفي عام سبعة وستين، وهو من الذين عبروا عن حالة الوحدة الإنسانية في أمريكا عامة ونيويورك خاصة برهافة وحساسية وجمال فني بديع، لقد رأيت المدينة بعينيه وهذا جوهر الفن العظيم، إنه يطلعنا على الروح، على الجوهر الخفي، عندما زرت روسيا أول مرة، بمجرد نزولي المطار خيل إليَّ أنني أعرف أصحاب هذه الملامح، تلك الوجوه، ثم اكتشفت أن عظامًا موهوبين حدثوني عنهم من قبل، وصفوهم، أبرزوا انفعالاتهم وجموحهم، هؤلاء منهم جوجول، دستويوفسكي، تولستوي، تورجنيف، جوركي، وأخيرًا وليس آخرًا تشيخوف العبقري، تلك هي أسرار الأدب العظيم، أنه يطلعنا على ما لا نعرف، ما لا ندركه حتى لو رأيناه.

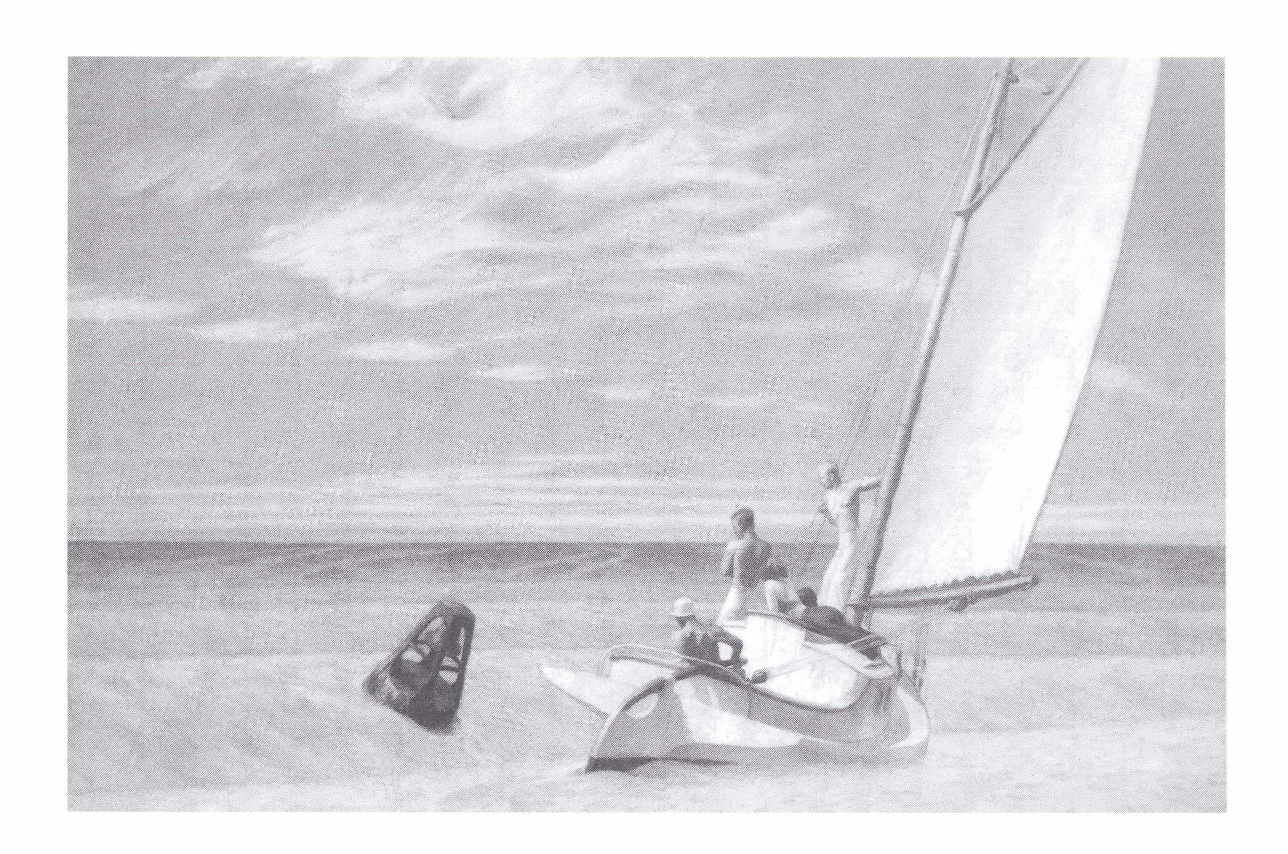
اللوحة الأولى لهوبر، سيدة في ملابسها الداخلية، تقف وحيدة داخل غرفة مليئة بالضوء القادم عبر النافذة ذات صباح يوم أحد، من النافذة

تبدو المدينة الفارغة، مجرد مبانٍ، الغريب أن الضوء الناتج عن أشعة الشمس يشعرنا بالبرد، ضوء بارد صقيعي يجسد حالة الوحدة الشديدة التي تبدو عليها المرأة التي تتطلع إلى البعيد متوقعة شيئًا لن يأتي أبدًا.

اللوحة الثانية لهوبر أيضًا، بيت مطل على السكة الحديد الممتدة بعرض اللوحة، يبدو البيت وكأنه يمضي مسافرًا مثل القاطرة فوق القضبان والفلنكات البادية بوضوح، رؤية غريبة يمكن إدراكها على أكثر من مستوى، يمكن رؤيتها باعتبارها مشهدًا لبيت يطل على السكة الحديدية، ويمكن النظر إليها من خلال رمزيتها، إنما الحياة تمضي على ما يشبه طريق القطار، لا يمكن أن نحيد، أو نفلت إلا عند إدراك النهاية عندما يغادر جميع الركاب.

اللوحة الثالثة غابة جميلة في وسطها محطة بنزين، ثلاث مضخات حمراء، يقف عامل أمام إحداها، ثمة تشابه بين العامل الوحيد والمضخة، غريب.. غريب.

التوقف أمام كل لوحة يحتاج حديثًا مطولاً، وقد اعتدت الأكثر من الفرجة في الزيارة الواحدة، بعد الإلمامة السريعة أقصد أعمالاً محددة، معينة، أريد التملي منها، العمل الفني الذي أتوقف أمامه مطولاً، أستوعبه جيدًا، لا أشتري صورته ولا نموذجًا له، أفضل إبقاءه في ذاكرتي، هكذا أراه كما أريد، أستدعيه عندما أشاء وأصرفه كما أرغب، شيئًا فشيئًا يصبح جزءًا من نسيجي وتكويني.



مانهاتن ببساطة عبقرية، عشرة طرق طويلة تمسك بالجزيرة من أولها إلى آخرها، مائة شارع أفقي، هكذا تنشأ مربعات تنطلق منها ناطحات السحاب المرتفعة والتي بدأ صعودها منذ عشرينيات القرن الماضي، وأشهرها الإمبايرستيت، وبرج كوايزلر الذي اشترته الإمارات أخيرًا، وبالطبع برجا مركز التجارة العالمي اللذان راحا ضحية غزوة نيويورك الشهيرة في أحداث سبتمبر الأشهر، ناطحات السحاب أصبحت رمزًا معماريًا عالميًا، هناك تنافس بين مراكز القوة الصاعدة، سواء كانت محلية أو عالمية على الارتفاع إلى أقصى مدى ممكن، في شانغهاي رأيت أساسات ما وُصف بأنه أعلى برج في العالم، الصين حريصة على بناء ارتفاع لا يمكن للتكنولوجيا الحالية اجتيازه، غير أن إمارة دبي أعلنت عن برج أعلى، وثمة برج آخر في كوالالمبور يوصف بأنه أعلى برج في العالم حاليًا.

أبراج مانهاتن كان لها ما يبررها، فالأرض ضيقة، والتوسع جرى رأسيًا، لكن مع تحول الأبراج إلى رمز، رأينا أحدها يُبنى في الصحراء (دبي) مع أن الأرض فسيحة ولا حاجة إلى التوسع الرأسي، نفس المنطق يسري على شانغهاي، على نهر النيل ثلاثة أبراج كل منها توءم، اقتداء ببرجي مانهاتن اللذين لم يعد لهما وجود، يمكننا اعتبار ذلك تبعية معمارية، من السهل الحركة في مانهاتن، بعكس نيوجرسي الشاسعة والتي تتكون من تجمعات معمارية قليلة الكثافة، بيوت متناثرة، معظمها من طابقين، إنه النمط الأمريكي الشائع، لا بد من معرفة دقيقة بالطرق، بالمداخل والمخارج، من أجل الوصول إلى الكنيسة، اشترى فرانسوا جهازًا صغيرًا يتم تركيبه في السيارات، موجودًا في معظم العربات التي ركبتها هنا، وأول ما رأيته منذ عامين في سيارة الدكتور نائل الشافعي. الجهاز يظهر خريطة ملونة للشوارع أو الطرق أو المكان الذي توجد به العربة، وبعد أن يتم كتابة العنوان الذي

تتوجه إليه السيارة، يبدأ صوت أنثوي إلكتروني في توجيه السيارة بدقة، النظام اسمه جي بي إس، وفي حدود ما أعلم فإنه غير مسموح به أمنيًا في مصر، ولا أعرف المبررات.

أثناء عبورنا شوارع مانهاتن لم نكن في حاجة إلى الاستعانة به، كنا نتجه إلى مدخل نفق نهر الهدسون، ويقع جنوب مانهاتن، مررنا بموقع البرجين الشهيرين والمسمى جراوند زيرو، وقد أطلق هذا الاسم على الموقع بعد أن تم إزالة أنقاض المبنيين تمامًا، وتوجد فيهما الآن حركة بناء وحدات، وخلال زيارتي الأولى التقيت بمهندس مصري يعمل في الشركة التي ستقوم بتشييد برجين آخرين، النفق الممتد تحت النهر طويل، قديم، عمره حوالي قرن، يصب في منتصف نيوجرسي، نمر فوق جسور عالية تعبر مدينة جيرسي حيث يعيش تجمع كبير من المصريين، نصل إلى طريق اسمه السادس والأربعون، يجتاز ولاية نيوجرسي من الشمال إلى الجنوب، عند نقطة معينة طلبت منا الأنثى الإلكترونية الاتجاه يمينًا، وخلال حوالي نصف ساعة تم توجيه العربة عبر طرق ضيقة ومتفرعة، ولولا هذا الجهاز لاستحال وصولنا. لا يوجد مارة يمكن الاستفسار منهم، البيوت متباعدة، مغلقة، بالطبع التوجيه يتم بالأقمار الصناعية.

أخيرًا وصلنا إلى مكان غير مستوٍ، فيه طريق صاعد، لمحنا عربات عديدة، وأشخاصًا يتحركون، سأل فرانسوا أحدهم باللغة العربية، العامية المصرية أيضًا، جاءنا الجواب مؤكدًا أن الكنيسة عند نهاية المرتفع.

داخـــل الكنيســـــة

مـــن التاســـعة إلـــى العاشـــرة:

عندما دخلنا إلى القاعة الكبرى، كانت ممتلئة بالرجال والنساء والأطفال، وكان الأسقف يلقي الموعظة، كان يرتدي الملابس الخاصة بالاحتفال، بيضاء

مرصعة بالرسوم، ولاحظت أنه في منتصف العقد الرابع، ملامحه شابة، وعلمت أن البابا شنودة قام بترسيم عدد من الشباب كأساقفة في المهجر حتى يكونوا قريبين من الأجيال الجديدة، قادرين على تفهمهم والحوار معهم، قبل الموعظة، قرأ رسالة البابا ولفت نظري قوله مخاطبًا أبناءه في أرض المهجر، إن إيقاع الكلمة بالإنجليزية قوي ويحوي دلالة ما مؤثرة، «لاند أوف إيمجدريشين»، مما لاحظته أن فرانسوا كان يسأل خلال توجهنا إلى الكنيسة بالعربية ويتلقى الإجابة بالعربية أيضًا، الأسقف كرر بعض المعاني بالإنجليزية، جلسنا في الصف الأول من المقاعد الطولية، وكان سهلاً متابعة ما يجري في القاعة عبر شاشة عرض تليفزيوني تتصدر القاعة، الاحتفال يستغرق إلى ما بعد منتصف الليل، غير أنهم خصصوا وقتًا للضيوف المهنئين بين التاسعة والعاشرة، في العاشرة تمامًا أنهى الأسقف ديفيد الجزء الأول من حديثه ثم اتجه إلى حيث يجلس كبار الزوار، مساعد وزير الخارجية محمد الضرغامي، القنصل حسين مبارك، كبار الشخصيات، صافحهم وتبادل معهم عبارات المودة، صافحني القس ميسر بغدادي بحرارة ثم خرجنا عائدين إلى حيث تنتظر العربة، انعكس الوضع المرتفع، أصبح منحدرًا، كنا نتحدث عندما فوجئت بأنني في الهواء منزلقًا إلى الأرض بعنف، تلقيت السقطة على راحتي يدي مما أصابهما بتسلخات خفيفة، غير أن قضاءً أخف من قضاء، في مثل هذه الأحوال تظهر كلمة «لو»، دائمًا في السفر أخشى الحوادث المفاجئة التي قد يضطر فيها الإنسان إلى الرقاد لفترة طويلة والعجز، خطورة هذه السقطة أنها تؤدي إلى كسور في مناطق حساسة مثل الحوض أو الظهر، الحمد لله، الله سلم، أصر فرانسوا باسيلي على أن أتحرك وأن أمشي أمامه، لم يكن ثمة ألم إلا في راحة يدي التي استندت إليها وامتصت الصدمة، في العودة كان المطر أغزر والقيادة أصعب، الطرق زلقة

وعند المنحنيات تقترب عربات النقل الضخمة ذوات المقطورات، تبدو وكأنها على وشك الملامسة، واللفظ هنا مجازي، إنها أشبه بعمارة متحركة، أخيرًا وصلنا إلى النقطة التي انطلقت منها، وكنت سعيدًا بتأدية الواجب.

وجـــوه الأزمـــة:

الجمعـــة الأســـــود:

في تفاصيل الحياة اليومية تبدو الأزمة الاقتصادية جلية واضحة، مراكز التسوق الكبرى في ذروة الأعياد خالية تقريبًا رغم الإعلانات الضخمة عن تخفيضات غير مسبوقة تصل في بعض الأنواع إلى أكثر من خمسة وسبعين في المائة، على سبيل المثال جاكت من الماركات العالمية كان يباع بستمائة دولار وبعد الخصم أصبح سعره مائة وخمسين دولارًا، ومع ذلك يمكن للعين الخبيرة أن تلحظ قلة الزبائن، كل من لديه أموال سائلة يحتفظ بها الآن، ربما يفقد عمله، ربما يطرد من بيته، من لديه مدخر لا يضعه في البنك كوديعة، بعد أن أصبح سعر الفائدة صفرًا، أي بدون فائدة، وفي هذه الحالة فإن المدخر ينقص، لأن ما يخصم كخدمة وديعة ما زال ساريًا، الخوف يحكم الجميع، وعندما يقع الخوف يسود الكساد، تتباطأ حركة رأس المال، العقارات أسعارها منهارة الآن، الأزمة بدأت من العقارات، إذ قدمت البنوك قروضًا بلا ضمانات، فجأة أصبح كل شيء مكشوفًا، حتى المطاعم عدد روادها أقل، من اعتاد العشاء في مطعم أصبح يفضل الآن البقاء في بيته، في مواجهة الكساد تلجأ المتاجر، خاصة الكبيرة، إلى وسائل لتشجيع الشراء، تذكرني بالبائع الذي يصعد الأوتوبيس يحمل أمثالها أو سلعًا أخرى، يقف مبديًا التأثر، معلنًا أن صاحب المصنع طلق زوجته وأنه قرر تصفيته، ثم يندب زاعقًا: يا خراب بيتك يا معلم، العشرة بجنيه، وخلال مسافة محطة

واحدة وعبر توالي الانفعالات المعبرة عن حزن البائع على خراب بيت المعلم ينزل السعر إلى العُشر، ويظل الركاب جالسين محملقين، فقد اعتاد معظمهم على مثل ذلك، الأسلوب نفسه هنا، مع الفارق، إذ تعلن المتاجر الكبرى عن البيج سيل (البيع العظيم أو التخفيض الكبير) لمدة يوم واحد فقط، ينتهي اليوم، وبعد أيام تعلن عن ساعات الفرصة، فمن يذهب أبكر يحصل على تخفيض أكبر، ومنذ عامين سمعت من يحكي عن بعض من قضوا الليل نائمين أمام المخازن الكبرى حتى يكونوا أول الداخلين، كان ذلك قبل الأزمة الحالية. في أحد أيام الأسبوع الماضي كنت أقرأ الصحف النيويوركية عندما فوجئت بإعلانات ضخمة تشمل صفحة كاملة تعلن بحروف ضخمة عن «البلاك فرايدي» أي الجمعة الأسود، إنه التخفيض المخيف، حيث يصل إلى تسعين في المائة لبعض السلع، تذكرت صيحات البائع المصري الفقير الذي يستعطف الركاب صارخًا، مولولاً: يا خراب بيتك يا معلم!

أوباما في البيت الأبيض

السبت:

لم يتبق إلا حوالي عشرة أيام على تنصيب أوباما رئيسًا للولايات المتحدة، أحد الأخبار الرئيسية انتقاله من مقر إقامته في ألينوي إلى واشنطن، جاء في طائرة عادية مع أسرته، ونزلوا فندقًا عاديًا بالطبع مع إجراءات الحراسة التي تتناسب مع رئيس منتخب، اختار المدرسة التي سيلحق فيها ابنتيه، الصحافة تتابع التفاصيل، الانتقال، الحقائب، خروج الابنتين إلى المدرسة مع الفصل الدراسي الأول، يهتم الشعب الأمريكي بأدق التفاصيل، خاصة الجانب العائلي، ويُقال إن الرئيس أثناء الحملة الانتخابية يجب أن يبرز علاقته العائلية خاصة مع زوجته، لا بد أن يدللها أمام الناخبين، كذلك

أطفاله، كل شيء مكشوف، يعلن، ما لديه من مدخر أو ثروة تمامًا كما سيعلن عن هذا يوم خروجه من البيت الأبيض، لو أنه يمتلك شركة أو مزرعة فلا بد أن تنقطع علاقته بها تمامًا، أن يسند إدارتها إلى غيره، ميزانية البيت الأبيض معروفة وأي مليم زائد لا بد من موافقة الكونغرس عليه، بالطبع يتم تغيير بعض الأشياء، المفارش، أغطية الأسرة، لكن لا يبدل الأمر تبديلاً، في الأوضاع الطبيعية يتابع الأمريكيون أدق التفاصيل، بدءًا من تفاصيل وجبة العشاء الأولى في البيت الأبيض حتى تناوله القهوة والإفطار مع أسرته في صباحية أول أيام الرئاسة، الرئيس بوش الحالي ما زال مقيمًا في البيت الأبيض، أقام حفل عشاء، جمع فيه رؤساء الولايات المتحدة الذين على قيد الحياة، كارتر وبوش الأب وكلينتون، وبالطبع حضر الحفل الرئيس المنتخب أوباما، ما يقلل من حماس الناس لمتابعة التفاصيل التي اعتادوها الأزمة الاقتصادية المخيفة والتي يضع أوباما الأولوية المطلقة لمعالجتها، لذلك يتطلع الناس في الولايات المتحدة وفي العالم إلى أوباما بأمل، من الأسماء المصرية التي سمعتها هنا خلال الحديث مع أصدقاء صحفيين أمريكيين، اسم الدكتور فاروق العقدة محافظ البنك المركزي، أستاذ اقتصاد مصري في جامعة جورج تاون قال إنه يتابع سياسة الرجل، وإنه أنقذ مصر حتى الآن من آثار سلبية خطيرة، وتذكرت أنني أصغيت في القاهرة قبل ثلاثة أسابيع إلى خبراء في الشأن الاقتصادي، قالوا نفس الرأي في الدكتور العقدة، فلماذا لا نراه ولا نسمعه، حتى الآن لا أعرف ملامحه ولم أسمع صوته، أليس جديرًا بأن يشرح للناس الظروف بدقة وشفافية، وأن يكاشفنا بما يتبعه من سياسات، وأيضًا ما يلقاه من عقبات!



فى مكتبة الأمم

الثلاثاء:

في المتاحف يتمهل الناس أمام المعروضات، بعضهم يجلس على الأرائك المعدة لذلك، أحيانًا أنشغل بتأمل البشر الذين لا أعرفهم ولم ألتق بهم أبدًا لأنني غريب عابر وهم غرباء أيضًا، الكل غرباء حتى وإن أقاموا، أتابع خطوهم، طريقتهم في النظر والتأمل، ألمح فتاة تمشي متمهلة، يلفت نظري أنها ذات قوام عجيب، نحيلة جدًّا كأنها غصن كيف يحتوي جسدها هذا على الأجهزة والأعضاء اللازمة لاستمرار الحياة؟ قوامها كأنه فرع شجرة، لا بروز ولا استدارة، أما رأسها فكأنه لا علاقة له بهذا الجسد الذي شف وخف إلى حد لم أعرفه في أي إنسان من قبل.. ترتدي قميصًا وبنطلونًا، وعلى ذراعها سترة من الصوف، ملامحها جميلة، كيف يتسق هذا الغصن مع الرأس؟

غير أن استفساري بدأ يزول مع التأمل، الحركة، بدا الجسد الاستثنائي كأنه القاعدة، غصن تتوجه زهرة أو ثمرة، تعجبت من النسب ومن الهيئة حتى بدا لي الآخرون كأنهم استثناء، أستعيد حضورها الغريب بعد خروجي من المتحف، أحار، هل ما رأيته حقيقة أم أنها صورة في خيالي تمنيت لو أنها تجسدت يومًا.

في المكتبة الأممية

الأربعاء:

يطل مبنى الأمم المتحدة على نهر، يقع في الطريق الأول بمانهاتن، ومطلًّا على الشارع الثالث والثاني وأربعين العرضي، المبنى الرئيسي من بواكير الحداثة في العمارة، يشبه علبة الكبريت، يتصل به مبنى آخر تقع تحته الصالة الرئيسية الشهيرة، وصالات أخرى مخصصة لمجلس الأمن، ولمجلس الوصاية، والقاعات

المختلفة، والمطاعم، والمقاهي، والمكتبة، دخلت المبنى مرتين كمتحدث، ومرة كضيف، المرتان بدعوة من النادي العربي، حيث ألقيت المرة الأولى محاضرة عن نجيب محفوظ، وكانت العام قبل الماضي، والثانية خلال زيارتي الأخيرة في يناير وكانت للحديث عن تجربتي في الرواية، المرتان رتبهما المفكر والمثقف العراقي علاء الأعرجي، وهو من العاملين القدامى بالأمم، متقاعد حاليًّا، غير أنه شديد النشاط فيما يتصل بالثقافة والحضور العربي في نيويورك، المرة الثالثة كانت بدعوة من الصديق السفير محمد شعبان مساعد السكرتير العام، وهو منصب رفيع يشغله منذ حوالي عام، ويعتبر إلى جانب محمد البرادعي من أرفع ما وصل إليه مصريون في المنظمة الدولية بعد خروج الدكتور بطرس غالي.

دخول الزوار من بوابة خاصة حيث إجراءات تفتيش دقيقة، تقع تحت ما يشبه خيمة يليها مدخل يؤدي إلى مكتب الاستعلامات، حيث يجب تسليم البطاقات مقابل تصريح دخول لا بد أن يعلق حول العنق طوال فترة التواجد وبدونه لا يمكن الانتقال من مكان إلى آخر، إجراءات مشددة لم تكن موجودة قبل غزوة نيويورك عام ألفين وواحد كما يصفها قادة القاعدة من مخابئهم الآمنة في كهوف تورا بورا.

في الطريق إلى المصاعد على الجدار لوحات جميلة لمن تولوا منصب السكرتير العام، أتعرف على داج همرشولد، كورت فالدهايم، أوثانت الذي كان سكرتيرا في الفترة السابعة واللاحقة على يونيو 1967، وبالطبع على بطرس غالي. إن عمري موازٍ لمسيرة الأمم المتحدة منذ نشوئها عام 1945 بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، لذلك يرتبط كل من هؤلاء بأحداث عشتها أو وصلتني أحداثها في مراحل مختلفة من عمري. في الطريق إلى الصالة الرئيسية حيث يلتقي العاملون ببعضهم أو بضيوفهم توقفت أمام فتارين تحوي ما يمثل الحضارات الإنسانية، وبعد رؤية مدققة وجدت ما يجب أن أقوله.

أوزيــــر:

الأربعـــاء:

في فاترينة زجاجية يطالعنا تمثال من البرونز لأوزير سيد العالم الآخر، إله العالم القديم من المرحلة المتأخرة في الحضارة المصرية، تمثال أصلي قيم جدًّا من الناحية التاريخية غير أنه صغير الحجم ومعروض في زاوية لا تمكن الزائرين من ملاحظته بعكس نموذج المعبد البوذي في كمبوديا، ونحت آخر من سن الفيل مهدى من الهند، حتى إذا دخلت قاعة اللقاءات الرئيسية ستجد أن أهم ما يلفت النظر سجادة إيرانية ضخمة مساحتها أربعة في عشرة أمتار، من طراز شيراز، تحفة فنية مهيمنة على القاعة، تمنيت لو أن حضور الثقافة المصرية القديمة أقوى وأرسخ من ذلك. إنني أقترح على وزير الثقافة الفنان فاروق حسني إهداء قطعة مكررة، تمثال ضخم أو جزء من جدارية يكون له مثيل؛ لوضعه في مكان بارز، إما بمدخل الأمم المتحدة وإما في القاعدة الرئيسية، المبنى مركز كوني وإلى جانب الشخصيات التي تتردد عليه على مدار العام، خاصة خلال انعقاد الدورة العامة في خريف كل عام، يوميًّا يدخل آلاف الزائرين كفرادى أو رحلات جماعية للمدارس من مختلف المستويات، وطلبة الجامعات، إن وجود مَعْلَمٍ مصري قديم ليس دلالة على مصر فقط، إنما إشارة إلى الركن الأساسي في الحضارة الإنسانية، أتمنى استنساخ جدارية لمتون الأهرام المحفورة في هرمي أوناس وتي، إنها من أقدم نصوص الكتابة في العالم، لو أن المجلس الأعلى للآثار قام باستنساخ أحد الجدران المكتوبة وإلى جوارها أو تحتها ترجمة باللغة الإنجليزية والفرنسية، إن في هذه اللوحة معنى وتذكرة، المعنى يشير إلى أولى خطوات الإنسانية نحو حفظ ما يفنى، ليس من الظاهر فقط، إنما المعاني أيضًا، إن متاحف العالم تنوب عنا بعرض ثمار حضارتنا القديمة، لكن يظل فرق بين أن يقدم الآخرون موروثنا باعتباره طرفة أو أنتيكة، وأن يقدمه

أحفاد الذين أبدعوا هذه الحضارة باعتبارها رؤية للكون، وخطى مبكرة جدًّا بدأت من مصر نحو المعرفة وكمال الإنسانية، لنبدأ إذن من الأمم المتحدة.

في المكتبة

الأربعاء:

تضم المكتبة الرئيسية آلاف المجلدات، معظمها قواميس لغة من مختلف اللغات، ودوائر معارف، مررت بالأرفف مدققًا، لم أجد إلا موسوعتين باللغة العربية، الأولى الموسوعة العربية الميسرة، وقد صدرت عن دار القلم التي أسسها المرحوم محمد المعلم وهو ناشر كبير وذكي وكان مقتحمًا للنشر الرفيع الثقيل، ومن أنجح ما قدم المكتبة الثقافية وكانت زهيدة السعر (قرشان صاغ فقط)، نحيلة الحجم، وما زلت أذكر العدد الأول منها الذي اقتنيته في بداية الستينيات، وكان موضوعه «اللغة العربية» لعباس محمود العقاد كانت السلسلة بتنوع موضوعاتها ومستوى كتابها الرفيع تشكل ما يشبه دائرة معارف، ويبدو أن إصدار دائرة معارف كان حلمًا يراود محمد المعلم، إذ أصدر هذه الموسوعة التي نفدت منذ سنوات طويلة، وكان من محرريها أساتذة عظام، بينهم على سبيل المثال زكي نجيب محمود، الموسوعة الثانية التي رأيتها موسوعة الصهيونية للدكتور عبد الوهاب المسيري، وقد صدرت عن دار الشروق، فيما عدا ذلك لم أر أي كتاب باللغة العربية، ففكرت في إهداء المكتبة بعضًا من مؤلفاتي، غير أنني أحجمت بعد أن رأيت الأرفف لا تحمل إلا القواميس ودوائر المعارف فقط والمراجع القانونية، بالطبع رأيت موسوعة متعددة الأجزاء تحتل رفًّا كاملًا، الموسوعة العبرية، للأسف لم تكن هناك موسوعة عربية متكاملة لسبب بسيط؛ أنها لم تصدر بعد، وهذا أحد المشاريع الثقافية الاستراتيجية التي يمكن لمصر أن تتبناها إلى جانب مشروع آخر وهو القاموس العربي، هذا موضوع يطول الحديث فيه.

كتب × كتب

مدينة المدن:

يمكن القول بدون تردد إن نيويورك مدينة عالمية راسخة، فيها الثقافات المختلفة. هل أبالغ إذا قلت إنني وجدت الصين في القرية الصينية التي تقع جنوب نيويورك أكثر مما وجدتها في شانغهاي أو بكين؟ أتردد قبل قولي ذلك، لكنني في الحقيقة لا أبالغ، هنا في المدينة الصينية أرى المفردات الصينية مجتمعة، مركزة. المكان مغطى بلافتات عليها حروف اللغة المتميزة والتى تكسب المكان طابعًا خاصًا، المطاعم عديدة بعضها ذو شهرة، خاصة مطاعم السمك التي تقدمه حيًا في الماء قبل طبخه، تمامًا كما يحدث في الصين، قبل تقديم السمكة لا بد أن يراها الزبون تبلبط في الماء، الأنواع التي رأيتها هنا غير موجودة في أي مطاعم أخرى، خاصة القواقع وأصداف البحر، تعرفت هناك إلى مطعم سمك، أطلقت عليه فرج الصيني، نسبة إلى المعلم فرج في الإسكندرية، مرجعيتي في الأسماك والذي لم أعرف مثيلًا له في كافة البلدان التي زرتها. لا في طريقة التقديم، ولا في الإعداد المتقن الذي يحفظ أصول الطهي السكندري العريق، ربما يبدو وجود المطاعم الصينية مبررًا عاديًا، فالمطبخ الصيني أصبح الآن عالميًا، لكن في الصباح يتحول المكان إلى مايشبه سوقًا صينية في الريف الصميم، كافة أنواع الخضراوات والفواكه الصينية طازجة، كذلك الأعشاب والأدوية الطبيعية، وسائر لوازم الحياة. أمضيت وقتًا أتأمل سعيهم، وأصغي إلى لغتهم، وأحاول النفاذ إلى قدرتهم على عدم الذوبان أو الانصهار فيما يحيطهم. إن ثقافتهم تمكنهم من الحفاظ على هويتهم الخاصة في أي بلد ينزلون ويقيمون فيه، ويقال إنهم يحرصون على

الدفن في أرض الصين بقدر الإمكان، وإن كلًا منهم يتوق إلى يوم يعود فيه إلى الموطن الأصلي، حتى لو كان من رابع جيل، هذا الحرص على التميز موجود عند اليهود، ودراسة آليات الحفاظ على الخصائص الثقافية نحن بحاجة إليها، ليس في نيويورك أو بلدان المهجر فقط، لكن في داخل أوطاننا أيضًا.

ثلج.. ثلج

الخميس:

نشرة الأحوال الجوية هنا دقيقة. خاصة عندما يتعلق الأمر بما سيجيء به الطقس غدًا، يمكن الآن التنبؤ بما سيكون عليه الحال لمدة أربعة أو خمسة أيام مقدمًا. أمس جرى التحذير من عاصفة ثلجية. عمدة نيويورك حذر المقيمين من الخروج إلى مسافات بعيدة، أول ما رأيت الثلج في سوريا عام ثلاثة وسبعين، الأيام التالية مباشرة لوقف إطلاق النار، كنت أركب عربة عسكرية متجهًا من حمص إلى اللاذقية على موعد مع قائد القوات البحرية في الثامنة صباحًا. عندما هبت عاصفة ثلجية في الطريق. لم أهتم بخطورة الموقف على الطريق الضيق، إنما ركزت حواسي في اتجاه الثلج الذي يهب من جهة ما في مواجهتنا، كأن قوة خفية غامضة تلقيه في طريقنا. كان سقوطه مصحوبًا بالرياح، هنا في نيويورك رأيت بداية هادئة، ناعمة ميسرة، غير محسوسة، يتسلل من الأعالي غير المدركة إلى الأرض، إلى الأرصفة، إلى حواف البنايات، شيئًا فشيئًا يصبح كل شيء أبيض، يمكن رؤية النثار أثناء قدومه من الفراغ، رغم نزوله الناعم الهادئ، فإنه يلف المدينة بحالة خاصة، حالة استثنائية. في المساء تنعكس الأضواء القوية على السماء المغطاة بالضباب فيبدو كما لو أن ثمة أصداء لحريق كوني بعيد جدًّا وقريب جدًّا، رأيت الثلج متراكمًا على حواف النافذة، اللون الأبيض



يكتمل، يلف كل شيء. أفكر في المكان قبل ارتفاع هذه العمارات الشاهقة، رأيت معنى ناطحات السحاب متجسدًا. عمارة الأمباير ستيت التي شيدت في عشرينيات القرن الماضي تغوص في الضباب الأبيض السابح في الأعالي. هكذا. ناطحة سحاب فعلًا. ماذا كان عليه الحال في منهاتن قبل مجيء الأوربيين؟ كيف كان السكان الأصليون يتفادون الثلج، كيف كانوا يفسرون سقوطه؟ بعد انتهاء العاصفة، يقوم حراس العمارات بإزالته من أمام المداخل. يستخدمون جرافات خاصة، لو أنهم أهملوا ربما يسقط أحد المارة متزحلقًا، عندئذ يحق للمصاب رفع قضية يحصل من خلالها على تعويض لأن حراس المدخل أهملوا وتركوا الثلج متراكمًا. من وراء الزجاج كنت أتابع تساقط الثلج، حركة الناس في الشارع. خطوهم. انحناءهم، سرعتهم، تذكرت قولًا للروائي هرمان ميلفيل في رائعته موبي ديك: «ما أجمل العاصفة إذا كان البيت قويًّا».

صـــوت بـــلادي

الجمـــعـــة:

أحرص على قراءة الصحف العربية التي تصدر في المهجر، تقدم صورة عن الحياة اليومية وخصوصية مفرداتها، من أهم الصحف التي تصدر في نيويورك «صوت بلادي» التي أسسها ويشرف على تحريرها «محب غبور» وهو صحفي قديم وصديق عزيز. أهم ما أبدأ به عند قراءة الصحيفة الأخبار الخاصة بالجالية المصرية والعربية، وكذلك الإعلانات ومعظمها لمحامين متخصصين في شئون الهجرة، والمشاكل الخاصة بالإقامة والخلافات الزوجية وما شابه، كذلك المستشفيات والعيادات الطبية، الجريدة بها نفس وطني جلي، ويكفي البداية من العنوان، من كتابها المنتظمين توفيق حنا،

وهو معروف لأبناء جيلي، معروف بدماثته ورقته ودقته في المتابعة، بدأ حياته في محافظة قنا مدرسًا للغة العربية، ودرَّس للأبنودي ولأمل دنقل وغيرهما، ثم جاء إلى القاهرة، تعرفت إليه في ندوة الأوبرا، كان متيمًا بنجيب محفوظ، وله دراسة رائعة عن اللص والكلاب، نشرت في مجلة الكاتب، منذ سنوات سافر إلى الولايات المتحدة، استقر في ولاية بوسطها، يهاتفني في القاهرة أو نيويورك، يقطر حنينًا إلى مصر، وأحد وسائل ارتباطه بالوطن مساهماته في أخبار الأدب، من خلال مقالاته القيمة عن الحياة الأدبية في مصر خلال العقود الماضية أو متابعاته لما يصدر، ويبدو أنه أتقن التعامل مع الإنترنت، أتواصل معه يوميًا خلال إقامتي، صوته يذكرني بسنوات جميلة، أمد الله في عمره، الصديق «محب غبـور» يصر على الاحتفاء بي كلما حللت، هذه المرة كانت أمسية في فندق كراون بلازا الذي يمتلكه أحد المصريين في جرسي، حيث توجد جالية مصرية كبيرة، كل العاملين في الفندق مصريون، تحلق حولي عدد من الأصدقاء، تحدثنا في كل شيء بصراحة وحميمية، وعندما خرجت إلى الليل البارد كنت مغمورا بدفء اللقاء والحوار.

دفعـــة جديـــدة:

أمشي.. أمشي، تعلمت أن أفضل طريقة لاكتشاف مدينة أن أقطعها سيرًا، من ناحية إلى أخرى أثناء عودتي من متحف الفن الحديث، أمام كنيسة ضخمة يصطف طلاب يرتدون ملابس موحدة، قمصانًا بيضاء وبنطلونات رمادية، لا بد أنهم بالسنة النهائية في مرحلة الثانوية، نهاية الدراسة، نهاية ما، تجمع منتظم، وجوه عديدة، أبطئ خطاي، لا أعرفهم ولا يعرفونني ، قدر لي أن أشهد لحظة هامة في حياة كل منهم، لن أرى أيًا منهم أبدًا، ستغرق بهم السبل، ربما يصبح منهم الممثل المشهور والكاتب المعروف، وربما

رئيس هذا البلد، ربما أستعيد الصور الجماعية التي كنا نحتفظ بها بعد التقاطها في نهاية العام، ناظر المدرسة يتوسط الصف الأول، الجالس إلى جواره المدرسون الأوائل، ثم المدرسون، الصفوف الخلفية الطلبة، للأسف لا أحتفظ بواحدة منها، فقدت لأسباب شتى في رحلة الحياة، في متحف الفن الحديث هنا مجموعات نادرة من الفوتوغرافيا، توقفت أمام إحداها، صورة من بدايات القرن الماضي، تحول اللون إلى البني، لون العتاقة والقدم، إحدى الدفع المتخرجة، عدة صفوف متراصة، العدد كبير، وجوه، وجوه، وجوه. كل منها يحدق إلى نقطة ما، لا يمكن تحديدها. مضى على التقاطها أكثر من مائة سنة، أمامي مصائر شتى، كلها اكتملت، تفرقت إلى جهات شتى، المؤكد أن أصحابها رحلوا جميعًا، لم يعد لهم وجود إلا في هذه الصورة المعروضة بالطابق الثاني من متحف الفن الحديث المعروف بموما، أحد المزارات النيويوركية الأهم بالنسبة لي، يومًا ما ربما يتطلع من لم يولد بعد إلى صورة تضمني كما أتطلع إلى حين الآن.

آمــــيـــــش:

قرب الطريق الثاني توقف الفنان أحمد مرسي أمام محل بقالة كبير اسمه (آميش). قال إنه سيشتري حاجات للبيت. أعرف هذه البقالة. منتجاتها من المزارع مباشرة، لا تستعمل فيها المواد الكيماوية. تمت إلى طائفة تحمل الاسم نفسه (آميش). لا يستخدمون في حياتهم اليومية أي شيء يمت إلى المدينة الحديثة. لا يركبون العربات. يتنقلون بمركبات تجرها الخيول، لا كهرباء ولا غاز في بيوتهم، التدفئة بقطع الخشب أو الفحم، لا يحلقون لحاهم، أما الملابس فطويلة تغطي معظم الجسد، يعيشون في مناطق مغلقة ويتم تسويق منتجاتهم عن طريق محال كهذه، في أمريكا يمارس الناس معتقداتهم الخاصة

بحرية، لقد جاءوا من الطرف الآخر ليمارسوا هذه الحرية، رغم أن المجتمع في عمومه محافظ متدين أكثر من أوروبا، في نيويورك وطبقًا لقانون الدعارة يعاقب القانون على الدعارة، قبل تولي كلينتون كان الشارع الثاني والأربعون من أشهر أماكن العالم للدعارة، ثم صدر قرار إبطالها. بالطبع كل شيء موجود ولكن ليس علنًا. نيويورك من الولايات التي تتيح الحرية للشواذ، أي يمكن لكل اثنين أن يعيشا معًا وأن يسجلا إقامتهما في مكاتب السجل المدني، وثمة مناطق يتمركزون فيها، وولايات أخرى تمنع ذلك، في الشمال الغربي ولاية تعيش فيها طائفة (المورمون)، إنهم يبيحون تعدد الزوجات، ويحرمون النبيذ وأنواع الخمر ومنذ عامين تلقيت دعوة من مركز دراسات الشرق الأوسط الذي يديره الدكتور / إبراهيم كروان، وكان كاتبًا صحفيًّا بالأهرام في الستينيات، غير أنني لم أتمكن من تلبية الدعوة وقتئذ، حدثني صديقي نائل الشافعي عن عالم عبقري، إنه منشئ موسوعة ويكيبديا على الإنترنت، غير أن نائل بادرني بسؤال: هل يمكنك الجلوس معه؟ دهشت من السؤال، قال إنه ينتمي إلى جماعة ضد الاستحمام بالماء، يستخدم الكولونيا فقط، بمجرد النطق بالأوصاف هبت عليَّ روائح لا تطاق، لا أتصور إنسانًا ما يقاطع الماء تمامًا ويمكنني الجلوس إليه حتى لو كان يغطس يوميًّا في بركة من العطور الفرنسية.



ليس بعيداً

الأحد:

الخامسة بعد الظهر. الليل مكتمل، هكذا الشتاء، تتوقف العربة أمام البيت الذي يسكن ابني محمد أحد شققه، يقع بالقرب من مبنى الأمم المتحدة، أنزلت الحقائب قبل أن نتحرك صوب الباب. بدا هدير جماعي، قال مرافقي: إنها فيما يبدو مظاهرة، أسرع باتجاه الناصية، عاد ليقول: إنها مظاهرة ضخمة في مواجهة القنصلية الإسرائيلية، لم أصعد إلى الشقة، إنما وضعت الحقائب عند حارس العمارة الذي يرتدي حلة أنيقة، جاكت ياقوتي وبنطلون رمادي، ويتخذ موقعه خلف مكتب مزود بهواتف للاتصال بالشرطة والإسعاف، ثلاثة يتبدلون على المدخل، يعمل كل منهم ساعات، صافحني الرجل مرحبًا فقد تعرفت إليه من قبل خلال زيارتي السابقة، أسرعت إلى الطريق الثاني، على الرصيف المواجه للشارع الثالث والأربعين، يحتشد أكثر من ألف شخص كما قدرت، يرفعون الأعلام الفلسطينية، بعضهم يلتحف بالكوفيات الفلسطينية التي أصبحت رامزاً عالميًّا، وجوه ملامحها عربية، الهتافات أيضًا بالعربية، اللافتات بالإنجليزية، الكل يحتجون على إبادة الفلسطينيين في غزة، لكن ما لفت نظري ودهشت له وجود متظاهرين يهود، يرتدون المعاطف السوداء، وتتدلى ضفائر من رءوس الرجال، كانوا يحتجون أيضًا على ضرب غزة، عرفت أنهم من طائفة يهودية اسمها «ناطوري كارتا» ضد وجود دولة إسرائيل باعتبار وجودها منافيًا للتوراة، طائفة محدودة العدد، لكن وجودها ذو دلالة، المتظاهرون يقفون فوق الرصيف أصواتهم هادرة، هتافات حقيقية قوية، لكن لا يوجد

أي تجاوز من هذه التجاوزات التي تجري في العواصم العربية، والتي رأيت في الأيام التالية مشاهد لها عندما دبرت بعض الأنظمة مظاهرات ضد السفارات المصرية، عربات الشرطة النيويوركية تصطف أمام المتظاهرين، عدد كبير يشكل ما يشبه سدًّا بين المتظاهرين والسفارة أو القنصلية، الهدف من وجود الشرطة حماية الطرفين، القواعد متعارف عليها في كل بلدان العالم ذات النظم الديمقراطية الحقيقية ، الساعة تقترب من السادسة، حضور المتظاهرين يخف تدريجيًّا، علمت أنها بدأت منذ الرابعة بعد الظهر، التوقيت القاهري الذي أحتفظ به في ساعتي ولا أغيره أبدًا، سواء اتجهت شرقًا، أو غربًا، التوقيت الآن الواحدة صباحًا بعد منتصف الليل، الطائرة أقلعت بي في العاشرة وعشر دقائق، رحلة تستغرق إحدى عشرة ساعة ما تزال مشاهد من الطريق في ذاكرتي، خاصة خلال عبور جبال الألب بأوروبا، أو عبور المحيط، الماء الممتد، لفارق التوقيت تراجع بي الوقت سبع ساعات، المسافة طويلة، لكن وسائل المواصلات الحديثة وأيضًا وسائط الاتصالات، خاصة الفضائيات والإنترنت جعلت العالم أصغر، والفوارق أضأل، في الصباح كنت في القاهرة مهمومًا بما يجري في غزة، في المساء أصل إلى نيويورك لأجد نفسي في خضم ردود الفعل على ما يجري، الصحب المصرية الكبرى أقرؤها في الخامسة بعد الظهر، أي قبل معظم القراء في مصر والعالم العربي، لا يوجد شيء يمكن إدراكه في البعد إلا ما يتعلق بدخائل النفس. أعود إلى البيت، أعلم أن ثمة مظاهرة أخرى غدًا، المظاهرات هناك لا بد لخروجها من الحصول على ترخيص مسبق يحدد المكان والوقت بدقة، كما قلت ثمة قواعد تحترم حق التظاهر وإبداء الرأي، وتحمي جميع الأطراف، في نيويورك ليس من السهل تصور مظاهرات ضخمة ضد إسرائيل، هنا أكبر تجمع لليهود في العالم، ومع ذلك الحقوق المستقرة للتعبير مصانة للجميع، والأغرب كما

ذكرت وجود يهود يتظاهرون ضد إسرائيل وقادتها وسياساتها ويحتجون على إبادة الفلسطينيين في غزة، في منطقتنا تبدو الصورة مغايرة.

ليـــلًا..

فجـر الإثنـــين:

ربما للمرة العاشرة أرى هذا التقرير الإخباري: بيت لمستوطن إسرائيلي على الحدود أصيب بصاروخ حمساوي، الإصابة هزيلة جدًا، عين بوتاجاز محطمة، مستوطنة إسرائيلية تشير إلى السقف الزجاجي المهشم الذي اخترقه الصاروخ، يقف صحفيون ممثلون لمحطات فضائية، وآخرون ممثلون لصحف، المستوطنة التي لم يصبها أي مس تشرح كيف دخل الصاروخ، كيف هشم الزجاج في السقف، حتى وصل إلى البوتاجاز، وأصاب العين، هذا بالضبط ما كانت تحتاج إليه إسرائيل، المبرر.

المبرر قدمه قادة حماس، هل تساوي مثل هذه الإصابات الهزيلة استشهاد ما يقرب من خمسمائة شهيد فلسطيني (حتى وقت كتابة هذه السطور)، هل يسترخص قادة حماس دماء الشعب الفلسطيني إلى هذا الحد، صواريخ هزيلة تطلق على مدنيين، يكون رد فعل إسرائيل استخدام آلة الحرب الصهيونية، بيوت تهاجم بقنابل زنة ألفي رطل، صواريخ تطلق من طائرات إف 16 تستهدف غرفًا بعينها، أعتى آلة حرب في المنطقة تستهدف أطفالًا ونساء، هذه الوحشية الإسرائيلية معروفة للجميع، موازين القوى مختلة تمامًا، إذا لم يكن ممكنًا إلحاق ضرر موازٍ لما يلحق بالشعب الفلسطيني يكون قصف إسرائيل بصواريخ هزيلة من نوع القسام محلي الصنع أو جراد المتخلفة نوعًا من الإنتحار، إلا إذا كان ما أقدم عليه قادة حماس له أهداف أخرى ليس من بينها الشعب الفلسطيني أو القضية الفلسطينية، هنا يمكن

القول إن أخطر ما تمر به القضية الفلسطينية أنها لم تعد مستهدفة لذاتها، إنما يتم استخدامها من جانب أطراف إقليمية وأنظمة لها حسابات معينة لا صلة لها بالقضية، اقلب المحطات الأمريكية والعالمية عبارة (حماس روكت) بالإنجليزية تتردد ليلا ونهارًا، بحيث تبدو (حماس روكت) أشبه بالخطر النووي الذي يهدد الوحش البريء المسمى إسرائيل، تلك هي الصورة الناتجة عن إطلاق صواريخ حماس تجاه إسرائيل، فهل هذا هو الهدف؟ تبرير الوحشية الإسرائيلية ومنحها الغطاء الإعلامي والسياسي؟!!

مظاهــرات عربيــة

الثــلاثــاء:

يبدو العالم العربي مثالًا للفوضى، وساحة للمزايدة، في عدن احتلال السفارة المصرية ورفع العلم الفلسطيني، في الخرطوم وطرابلس العرب رشق السفارات المصرية بالحجارة بالطبع في دمشق المظاهرات هادرة لا تتوقف، نتمنى أن يمتد بنا الأجل حتى نرى نتائج المحادثات السياسية السرية بين النظام السوري وإسرائيل والتي تجرى الآن برعاية تركية، نتمنى أن يمتد بنا الأجل لنرى مصير خالد مشعل وأحمد جبريل وغيرهما من القادة الفلسطينيين الذين ظهروا خلال الأيام الماضية، وقالوا ما قالوه.

في الثقافة العربية والأخلاق العربية، مبدأ احترام الرسول أي السفارة، كان الجيشان المتحاربان يقفان في مواجهة بعضهما، ويتم إرسال سفارة من هنا إلى هناك، فلا يمس من يمثلها ولا يؤذى، ليعود بالجواب، ما هي البطولة في الهجوم على سفارة لا يوجد داخلها إلا عدد محدود من الدبلوماسيين غير المسلحين؟! قارنت بين المظاهرات في الغرب والدول الديمقراطية الحقيقية وبين المظاهرات المدبرة في عواصم الأشقاء العرب، كل نظام عربي يريد أن

يحسن صورته على حساب أحد الأطراف، والطرف الذي اجتمع عليه الكل هذه المرة الشقيقة الكبرى مصر، إنه تصور خاطئ بالتأكيد يتجسد في هذه العواصم المزايدة، ورغم كل شيء فثمة هاجس خفي يؤكد لي أن الهدف الحقيقي لإسرائيل هو مصر، رغم كل الغوغائية العربية التي أطلت علينا من الفضائيات فإن الجوهر لم يغب عني قط، الهدف الحقيقي مصر، وللأسف فإن مصر ليست في أفضل حالاتها.

مظاهـــرة كبـــرى

الســـبـــت:

منذ الأربعاء الماضي تتردد الأخبار عن هذه الظاهرة الكبرى، لقد تم تحديد مسارها من ميدان الأزمنة (تايمز سكوير) في وسط مانهاتن، ثم إلى الطريق الثاني حيث توجد القنصلية الإسرائيلية قرب الأمم المتحدة، منذ ظهر أمس الجمعة بدأ توافد قوات الشرطة سرية وعلنية، تم وضع حواجز حديدية، تحدد المسار المسموح به للمظاهرة، واضح من طول الحواجز حجم المتظاهرين المتوقع، عند النواحي تنتهي الحواجز بحيث لا يتصل وقوف المتظاهرين فتتعطل حركة المرور بين تقاطعات الشوارع لكي يسمح بمرور المتظاهرين عبر المفارق من قسم إلى آخر.

بدأت المظاهرة وسط مانهاتن في الواحدة ظهرًا، ثم تحركت لتصل في الثالثة إلى الشارع الثاني، أو الطريق الثاني الممتد بطول مانهاتن، عدد المشاركين تجاوز الخمسة آلاف رجل وطفل وامرأة أمام القنصلية الإسرائيلية.

الأعلام الفلسطينية هي المنتشرة، لمحت علمًا تركيًا وإلى جواره صورة جمال أتاتورك، واضح أنهم يريدون القول إن المشاركين علمانيون وليسوا من التيار الديني، إلى جوارهم وقف بعض المتظاهرين يؤدون صلاة

المغرب خلف الحواجز، الجميع يرددون الهتافات، البعض حمل أعلامًا لإسرائيل يتوسطها صليب معقوف بدلًا من نجمة داود، لاحظت خلف المظاهرة من اليهود المنتمين إلى ناطوري كارتا والذين رأيتهم مساء الأحد الماضي.

قبل عبوري الطريق. التفتت شرطية زنجية إلى مرافقي الشاب، سألته عن القضية، ماذا يجري هناك؟ قال إن مدنيين عزلًا يقتلون بأحدث آلة عسكرية في العالم، قالت إنها مندهشة، لقد زارت (جزة) ورأت الأهرام، الناس هناك طيبون جدًّا، قال الشاب مبتسمًا: لا. أنت ذهبت إلى الجيزة في القاهرة، غزة في فلسطين. مطت شفتيها حائرة، عادت إلى وضعها المراقب لما يجري على الناحية الأخرى، وكانت الأنباء قد بدأت تصل عن تقدم الدبابات الإسرائيلية إلى غزة في هجوم بري لم تتضح ملامحه حتى الآن.

المنـــدوب الدائـــم

الأحـــــد:

يقع مبنى البعثة المصرية إلى الأمم المتحدة في الشارع المؤدي إلى الأمم المتحدة، المبنى القديم الذي يرفرف عليه علم مصري كبير الحجم لم تنطفئ أضواء نوافذه طوال الأسبوعين الماضيين، طوال الليل، جهد مكثف ليلًا ونهارًا، أقيم على مقربة منه، تابعت اجتماعات الأمم المتحدة من خلال محطات التليفزيون التي يمكن مشاهدتها هنا، السي إن إن لها محطة تبث للداخل الأمريكي، ومحطة نراها نحن في مصر، الإرسال الدولي، ورغم أن الإرسال الدولي للمحطة أراه في القاهرة، فإن رؤيته من نيويورك حيث أقيم الآن يكتسب بعدًا مختلفًا، فالقاعة التي احتشد فيها وزراء الخارجية من الدول أعضاء الأمم المتحدة، لفت نظري الحضور الإعلامي المكثف لمندوب

مصر الدائم السفير ماجد عبدالفتاح، رأيته في يوم واحد ست مرات، في كل منها كان يخاطب الرأي العام الغربي موضحًا موقف مصر، خاصة فيما يتعلق بالموقف مما يجري في غزة، وبالتحديد من إغلاق معبر رفح الذى حاولت وسائل إعلام عربية تصوير الوضع فيه وكأنه قرار مصري صرف، يستهدف حصار أبناء غزة، متجاهلة أن المرور من المعبر يتحكم فيه طرف آخر، هو المحتل الإسرائيلي، وتحكمه أيضًا اتفاقية دولية بضمان الاتحاد الأوروبي. السي إن إن أفردت مساحة من الوقت للمندوب الدائم لمصر، وقد رأيته يتحدث خلال يوم واحد من عدة أماكن مختلفة في مبنى الأمم المتحدة وأمامه من أمام المبنى الشهير، وفي أروقته، خلال ما يشبه مؤتمرًا صحفيًا، حيث احتشد حوله عدد كبير من الصحفيين، وعندما سأله أحدهم عن موقف فرنسا، قال بحزم إنه يمثل مصر ويعبر عن رأيها، أما السؤال عن موقف فرنسا فيمكن توجيه السؤال إلى وزير الخارجية الفرنسي الموجود.

مما أتابعه وأقرؤه في صحفنا المصرية والعربية تبدو تعليقات كثيرة منتقدة ومهاجمة لمؤسسة الخارجية المصرية، ولكن من خلال المتابعة أرى أن ثمة ظلمًا يقع على كثيرين، وعلى المؤسسة نفسها، فما يبذل من جهد بعيدًا عن الأضواء أكبر بكثير مما يبدو. ويغطي عليه الضجيج الإعلامي.

نور العيون يالي شاغلني..
في نيويورك

ما بعد منتصف الليل. في سيارة صديق مصري مقيم، بصحبة أخي محمد الخولي الكاتب السياسي والمترجم بالأمم المتحدة وصاحب الصوت العذب الرخيم، المستوعب لفنون الأداء المصري في الغناء والتلاوة، تلميذ محمد عودة ومحمود السعدني خاصة في الحكي، يدير صديقنا أسطوانة مضغوطة وسرعان ما تعلو الألحان العذبة. أسأل: هل جاء عازف الكمان الرائع سامي الشوا إلى نيويورك؟ نعم قام بزيارة في الخمسينيات، وخلالها سجل راشد الحفل بالاشتراك مع إذاعة نيويورك؟ راشد سوري الأصل، جاء إلى الولايات المتحدة سنة عشرين من القرن الماضي، ابنه ريموند لا يزال يدير محلًا كبيرًا متخصصًا في الموسيقى العربية، الوحيد من نوعه في أمريكا، لديه تسجيلات نادرة لا توجد في العالم العربي. هذا ما أخبرني به محمد الخولي.

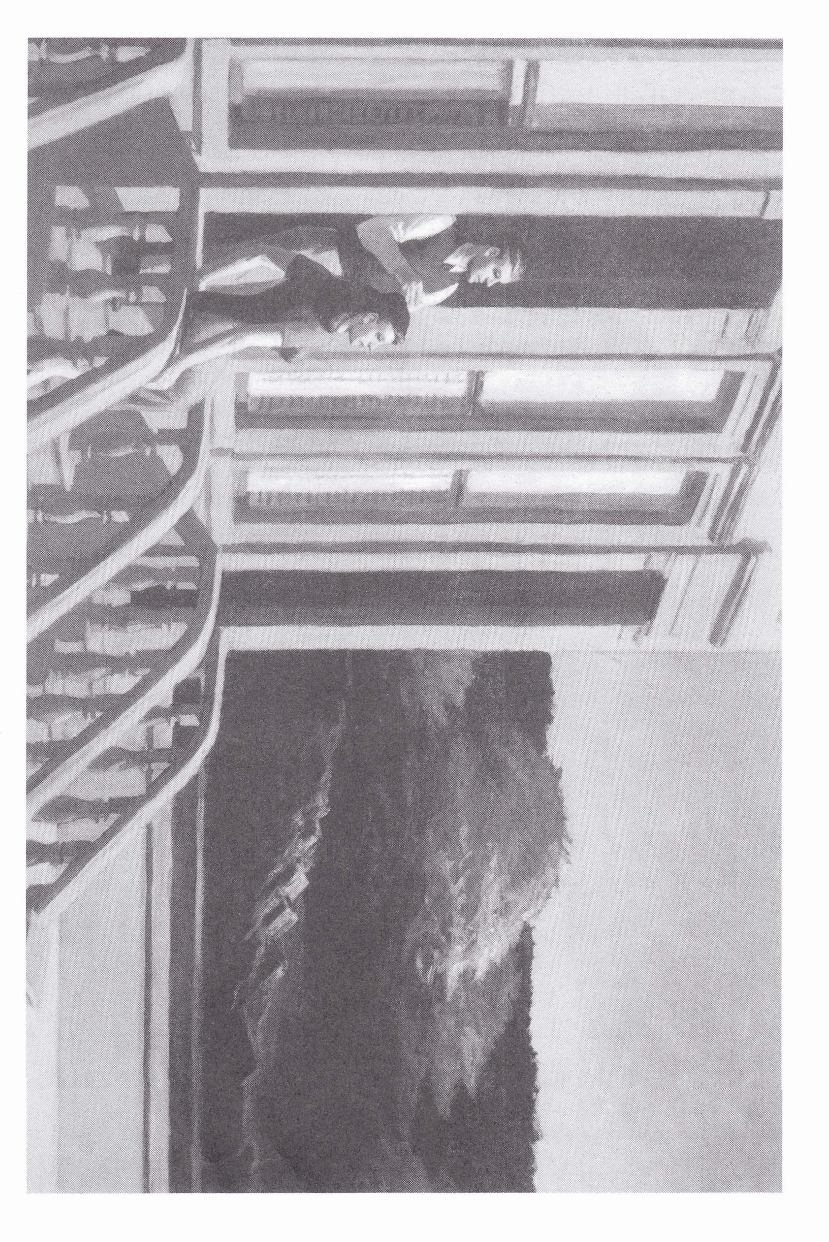
عندما نصغي إلى موسيقانا بعيدًا عن الوطن تكون الموسيقى من المحفزات المستحضرة للوطن نفسه، ما أصغيت إليه هز مني أغوار النفس الدفينة، يبدأ الحفل بعزف منفرد للكمان. إنه الأذان، أذان بكاء ينطق عبر الأوتار التي يعزف عليها أقدر من أمسك بالقوس سامي الشوا المصري ذو الأصول الشامية، المسيحي يبدأ بالأذان، ثم يقدم فقرات متوالية لألحان شهيرة. من لبنان. الأردن، اليمن، السودان، مصر، ليبيا، المغرب، العراق. يصاحبه. أسطوانة نادرة، هل أعود إلى مصر بدونها، خجلت أن أطلبها من صاحبها، سأسافر بعد غد، ليس لديَّ إلا نهار الجمعة، وفيه موعد مع محررة من

النيويورك تايمز، والسبت سأقضيه مع محمد ابني، عندما بدأت أستعيد الأنغام قبل نومي، تعاظم قلقي. هل أرجع إلى مصر بدون تلك الأنغام؟ حالة نادرة من العزف، ربما أضاف إليها الترحال بعدًا، ليس عندي فقط، لكن عند العازف أيضًا الذي وقف أمام الجمهور ذات يوم في الخمسينيات ليلخص الوطن العربي بالموسيقى، هل أعود بدونها، هل سيتاح لي الظرف مرة أخرى؟ علمتني التجربة ألا أرجئ الحصول على ما أرغب إذا كان قريبًا في المتناول.

الجمعة ظهرًا:

الحرارة مرتفعة. أعددت نفسي لأسئلة ذات اهتمام سياسي، لا بد أنها ستدور حول فتوى بول الرسول، الإرهاب، الأوضاع، للأسف عندما تسألنا الصحف الأجنبية لا تتناول أدبنا، إنما تدور الأسئلة حول الموضوعات العامة، طلبت من الصديق حسام فخر الأديب الموهوب أن يحضر حتى يساعدني في الترجمة، أقرأ جيدًا بالإنجليزية، لكن شرح آرائي بدقة يستلزم مساعدة، الرجل كان صوتي بالأمس، عندما قام بالترجمة في ندوة حضرها أكثر من مائة شخص، في جمعية ثقافية يديرها مصري، سأتناولها فيما بعد.

في الموعد المحدد وصلت الصحفية تحمل زجاجة مياه كبيرة، تعرف ألفاظًا عربية، أصولها يونانية، فوجئت أن الحوار كله عن أخبار الأدب، سياستها، محتواها، محرريها، توزيعها، أوضاع الأدب العربي، الحوار سينتشر في يوليو القادم، بعد انتهاء الحوار قمت بصحبة حسام، كنت قد حسمت أمري، سأذهب إلى بروكلين، محمد الخولي زودني بعنوان محل راشد للموسيقى ورقم الهاتف، اتصلت في الصباح، أجابتني سيدة اسمها جمال، وضحت لي الطريق، قلت لها إن اسمي جمال، قالت ضاحكة: إذن سنبحث عن جمال



ثالث، وعندئذ ينفتح الكنز. قلت لحسام إنها المرة الأولى التي سأركب فيها مترو الأنفاق، لم أتعامل معه من قبل، أتجنبه، أفضل الحافلات العامة رغم ما تستغرقه من وقت، اتجهنا مشيًا إلى المحطة المركزية، قال حسام إنه سيصحبني إلى محطة «تايم سكوير» وهناك سأركب الخط رقم ثلاثة ويودعني هو، تقدمني إلى البوابة الإلكترونية. مرر بطاقته، قال إنها تسمح بمرور شخصين، قلت وماذا عن الكمساري، قال أنه لا يوجد كمساري، بمجرد عبوري هذه البوابة لا يسألني أحد، افترقنا عند الرصيف الخاص بالخط الثالث، وعندما لوحت له من النافذة فوجئت أنني أنظر إلى والده اللواء أحمد فخر، وهو من ألمع وأقدر ضباط قواتنا المسلحة، عندما ألتقي أبناء الأصدقاء القدامى أبحث عن أوجه الشبه، نقاط التماثل. إنها وقفة حسام، تمامًا نفس الوضع الذي يتخذه جسد والده، وقفة خاصة جدًا باللواء أحمد فخر، تكوين الجسد كله، كأنه هو الذي صحبني ويلوح لي مودعًا.

في المتـــــرو

الجمعـــة: الواحـــدة والربـــع:

أتطلع إلى وجوه الركاب، نسبة السود أعلى، من الملابس وأوضاع الجلوس. واضح أن المستوى الاجتماعي أقل من الذين أراهم في حافلات نيويورك أو شوارع مانهاتن، على أي حال أنا راض عن نفسي، فليس من اللائق أن أعود إلى مصر بدون ركوب مترو الأنفاق، خاصة بعد أن رأيت سيدة بمفردها تنزل من مدخل ضيق يؤدي إلى إحدى المحطات الثانية بعد منتصف الليل، هل أتردد وأنا الصعيدي؟ على أي حال هأنذا بمفردي تحت الأرض، تحت النهر، أعبر إلى الضفة الأخرى حيث بروكلين التي رأيت مبانيها المرتفعة من مانهاتن والجسر الشهير المشيد في الثلاثينيات، والآخر

الأحدث، جسور نيويورك في حاجة إلى كتاب، أقرأ أسماء المحطات، بالضبط كما قالت لي السيدة جمال، أخرج إلى طريق المحكمة، أمشي مع اتجاه السيارات، الطريق اتجاه واحد، أخيرًا أصل إلى البناية رقم مائة وخمسة وخمسين، المنطقة تشبه ميدان العتبة أو الموسكي، حقائب سفر رخيصة، مطاعم تعلن عن لحم حلال بالعربية، أخرى هندية، زحام في الطريق، خاصة أمام محلات الوجبات السريعة.

أخيرًا.. محل راشد. العنوان بالإنجليزية، غير أن الواجهة الزجاجية تعرض الأسطوانات والشرائط العربية، أعلام الدول العربية. زهور، واجهة أنيقة، أجتاز المدخل متطلعًا إلى الساعة، يمكنني الذهاب إلى متحف بروكلين لأرى القسم المصري، أحتاج إلى ساعة، قرأت عن طريقة العرض الحديثة.

قدمت نفسي إلى السيدة جمال، ريموند راشد ابن راشد المؤسس، رجل ممتلئ طيب الملامح، جميل الحضور، المعرض ينقسم إلى جزأين، الأمامي يعرض المتاح للبيع، الداخلي تتراص فيه علب التسجيلات النادرة، إنه أشبه بمتحف، سألت عن أسطوانة سامي الشوا، ارتحت عندما علمت بوجودها.

ريموند يزهو بصورة والده أثناء زيارته إلى القاهرة عام سبعة وثلاثين، خلالها زار الموسيقار محمد عبد الوهاب، وها هو يقف إلى جواره في صورة فوتوغرافية أبيض وأسود.

بدأت الفحص. أسطوانة لصلاح عرام، أخرى للموسيقار فريد غصن، ثالثة للمطرب الحلبي المرحوم محمد خيري، عازف العود الشهير حمزة علاء الدين النوبي المصري، كنز أمامي، غير أنني وقفت أمام أسطوانة غير مصدق. سنوات طويلة أبحث عن تسجيل لهذه الأغنية في مصر، للأسف لم أجدها، لم أنجح في اقتناصها من الإذاعة، وهأنذا أقتنيها من بروكلين في الولايات المتحدة، للأسف لا يوجد في القاهرة الآن مكان للموسيقى، وشركة

صوت القاهرة لديها كنز في الإذاعة المصرية لا تستثمره - أتمنى أن تكون التسجيلات باقية — في الأربعينيات كانت المكتبات تعرض موسيقى العالم كله، الآن لا يوجد إلا الشحيح، النادر.

الأغنية التي أحببت لمطرب لم يشتهر إلا بها، وكنت أصغي إليها عند لعبي في درب الطبلاوي طفلًا، إنها «نور العيون يا شاغلني» للمطرب محمد أمين، أحفظها عن ظهر قلب، أغنيها بين الأصدقاء عند وقوع الألفة وشبوب المودة، فيفاجأ بها من يستمع إليها، طلبت من ريموند الذي يتحدث العربية أن يضعها في الجهاز، ارتفعت الموسيقى الممهدة إنه لحن محمد عبد الوهاب، ولا أدري لماذا ترقرقت الدموع، هل لأنني بعيد، أم لاستنفار الكوامن أم لإدراكي الثاقب مرور الوقت بأسرع مما قدرت؟ أم لأنني استحضرت درب الطبلاوي من خلال الصوت في بروكلين؟ احترم ريموند وقفتي وإطراقتي فرفع درجة الصوت، وخرجت نور العيون إلى شارع المحكمة في بروكلين نيويورك. يا الله.

إلـــى المتحـــف

الرابـعـــة والنـصـــف:

قدمت إليَّ السيدة جمال أسطوانة لعازف عود عربي كهدية، عند انصرافي قاصدًا المتحف بعد أن اتصل بهم ريموند، أخبرني أنه مفتوح إلى السادسة يمكنني الذهاب، نصحني بالمترو، إن عربات الأجرة قليلة جدًّا، واليوم توجد حركة كثيفة، إنها آخر أيام الأسبوع، عند خروجي قدم إليَّ زجاجة ماء مثلجة، قال إنه لا بد من الماء. في أمريكا الحر شديد والرطوبة عالية.

عدت إلى محطة المترو، أخرجت دولارين ورقيين، الماكينة تحتوي على ثلاث لغات، الإنجليزية، الإسبانية، الصينية بعد شفط الدولارين ضغطت

الزر الأحمر، تناولت التذكرة، قرأت اسم المحطة، لكن يبدو أن خطأ ما وقع، نزلت في المحطة السابقة على محطة المتحف، بدأت أشعر بالإرهاق، الحر، قلة ساعات النوم، لمحت رجلًا يدفع عربة أطفال، سألته عن المتحف، قال إنني نزلت في المحطة الخطأ، دلني على الطريق، مشيت إلى جواره، سألته عن الطفل. أهو ابنه؟ قال إنه حفيده، افترقنا عند الناصية، مشيت حوالي كيلو متر بجوار حديقة عامة، أخيرًا مبنى المتحف الشهير أمامه مباشرة مدخل المحطة، تطلعت إلى الساعة، الخامسة والربع، الخامسة وأربعون دقيقة، اتجهت إلى المدخل، فوجئت بجندي الحراسة يعترضني قائلًا: إن الوقت انتهى، قلت إن صديقًا اتصل وأكدوا له السادسة، قال الجندي: السادسة هذا صحيح، عدا الجمعة تُغلق الأبواب في الخامسة.

أعود إلى المترو، أتجه بثقة إلى الماكينة، أجتاز الباب إلى الرصيف تواقًا إلى العودة لأسمع موسيقى سامي الشوا، ولحن محمد عبد الوهاب «نور العيون يا شاغلني».

مـواجـع قبطيــة

الثــلاثـــــاء:

مما لا يوجد، ما اعتاده الإنسان ثم فقده إلى حين أو إلى الأبد، ما لم يعد في المتناول يؤجج الحنين، وعندما يدخل الإنسان حالة الحنين يقف على مشارف الشعر، هنا يتحول المفقود سواء كان محبوبة أو حبيبًا، وطنًا أو بيتًا، طعامًا أو شرابًا، نسمة عابرة أو شجرة مقيمة، كافة عناصر الحياة المفتقدة، بعيدة المنال تصبح شعرًا أو تكاد الفول المدمس الذي يعد جزءًا من حياتنا اليومية، الإفطار الخاص جدًا بالمصريين والذي لا يفهمه بعض الأعراب فيعايروننا به مع أن تدميس الفول وإنضاجه وتقديمه جزء من عملية حضارة معقدة، هذا الفول يصبح شعرًا في ذاكرة المصريين المهاجرين، يحنون إليه ويسعون إلى اقتنائه وتقديمه إلى ضيوفهم القادمين من مصر، كل أنواع الطعام التي اعتدناها تصبح من مستثيرات الحنين، المذاق الخاص للجبن الدمياطي والذي نفتقده الآن لغلبة المستورد، طريقة إعداد الأسماك وتقديمها، في كوينز بنيويورك مطعم... المصري للأسماك، لا يقدم شريحة مطبوخة في طبق، مشوية أو مقلية، إنما يعرض الأنواع في فاترينة ويتقدم المصري المهاجر فيشير إلى هذه ويترك تلك كما يقوم بذلك عند مطاعم السمك الشهيرة في مصر، خاصة في الإسكندرية، جزء من متعتي الشخصية أن أرقب الحاج فرج في سوق الطباخين وهو يصغي إلى الطلبات، ثم يمد يده طريقة إمساكه بالسمكة، إخراجها من الثلج المجروش، عرضه لطزاجتها، تقليبه إياها، ثم سؤاله عن طريقة الطهي، وإلقائها إلى مساعده الذي يرسلها حيث التجهيز، هذا الطقس كله موجود في نيويورك، كذلك أغاني

أم كلثوم، عبدالوهاب، وصولاً إلى المحدثين، المقهى المصري بكل مكوناته من شاي وقهوة وزنجبيل ومعسل، هذا التنمباك الشعبي الذي صدرناه إلى العالم، مفـردات يثيـر كل منها حنينًا عند هذا، لحظة عند ذاك، ومن خلالـها يتم استحضار الوطن، الوطن ليس معنى مجردًا، لكنه سماء وأرض وبحر وطعام ومذاق وظل وهوى.

بدايةً أحذر من استخدام عبارات مثـل «أقباط المهجر» أو «أقباط معتدلون» و«أقباط متطرفون هناك» إننا بذلك نقسم المصريين إلى فريقين متواجهين، وهذا أخطر ما يواجهنا على المدى البعيد، أخطر ما يهدد الدولة المصرية، ولسلامة الدولة المصرية الأولوية الآن على أي اعتبار آخر. وما أعنيه بسلامة الدولة أن نحافظ عليها موحدة، قوية، لمواجهة دعاوى الفوضى الخلاقة والتقسيم على أساس عرقي وطائفي، وها هو العراق نموذجًا، لقد نظر الدكتور سعد الدين إبراهيم لهذا التقسيم، وأدرك الأستاذ محمد حسنين هيكل خطورة الدعاوى مبكراً فتصدى لمؤتمر الأقليات الذي نقله الدكتور سعد إلى قبرص.

مؤخرًا قرأت له مقالة في المصري اليوم يعتبر فيها كردستان العراق جالية نموذجية، إنني مع إقرار حقوق أي أقلية، ولكن ليس على حساب الكيانات المستقرة، وليس في اتجـاه تأجيج الأحقـاد التاريخيـة والنزعات الطائفية، ما يجب أن تنصب إليه كل الجهود حماية الدولة المصرية من هذا المصير، مصير العراق، أو السودان، وما أعنيه بالدولة أشمل بكثير من نظام سياسي أو اجتماعي، إنه الوجود الشامل للمصريين وللطبيعة وللطاقات، تبدو مصر واحدة، مثل السبيكة المستعصية على الصهر، لكن ثمة نقطة غائرة يمكن النفاذ منها ما بين المسلمين والأقباط، من هنا أقول بالحذر في علاج الأمور، بالجدية في معالجة المشاكل، بالانتباه إلى خطورة المصطلحات، على سبيل

المثال عندما نقول بأقباط المهجر، فهذا يعني وجود نوعين من الأقباط، ويعني أيضًا مسلمي المهجر، الصحيح أن نقول وجود مصريين في المهجر، للأقباط في مصر مواجع، خاصة في الأعوام الثلاثين الأخيرة منذ أن وقف الرئيس السادات معلنًا أنه رئيس مسلم لدولة مسلمة، منذ هذه اللحظة بدأ أقباط مصر يدخلون حالة من الاغتراب، وللأسف ساهمت الثقافة الأصولية في إقامة جدار غير مرئي بين العنصرين، لقد أشارت الزميلة فريدة الشوباشي في مقال هام الأسبوع الماضي لها بالمصري اليوم إلى من يرفض الأكل مع معتنق الدين المغاير، هذه ثقافة تبث منذ الطفولة وفي الثمانينيات كتبت في هذه اليوميات عن حالات محددة في المدارس وكانت استجابة الوزير الرائع حسين كامل بهاء الدين فورية لكن الأمر أكبر وأخطر من جهود وزير، للأقباط مواجع، هذا صحيح، علاجها يبدأ من داخل مصر، والحل في تطبيق مبدأ المواطنة الكامل، أي المساواة المطلقة في الحقوق والواجبات بين المصريين، فليكن هذا الهدف أولوية تجتمع عليها سائر الأحزاب والقوى السياسية، وأن تناقش الأمور بصراحة تامة، فإذا صلح الأمر هنا صلح هناك.

الخميــس:

كأني لم أغادر مصر. لم تكن لقاءاتي بالأمريكيين واسعة، فقط من أعرفهم أدبيًا، وصحفيين، وبالطبع ساعات طوال أمضتها في المتاحف تحتاج إلى أحاديث مطولة، يعيش المصريون هموم الوطن، يتابعون أدق التفاصيل، ولأني قادم من الخط الأمامي فكانت الاستفسارات تتوالى، والمناقشات تبدأ، لم يحدث أن انغمست في مناقشة حول الحزب الجمهوري أو الديمقراطي، أو الانتخابات القادمة، المصريون المهاجرون كنز للوطن الأم لا يستفاد به، الجسور من طرف واحد في معظمها منهم هم، ولعل تجربة

زلزال عام اثنين وتسعين ماثلة في الأذهان عندما تسابق المصريون جميعًا في جمع التبرعات وإرسال مواد الإغاثة.

هل توجد جهة في مصر تربط المصريين بالوطن الأم؟ للأسف لا. إسرائيل تضرب مثلًا في هذا الشأن، لا يوجد يهودي في العالم إلا وله سجل في إسرائيل يحوي جميع وسائل الاتصال به، بالطبع نحن لسنا دولة عنصرية، لكن الصلات مع المهاجرين يمكن أن تعود بالخير على الجانبين، يجب ألا نتعامل مع المهاجرين باعتبارهم عبئًا تخلصنا منه، لكثرة عدد السكان، ولكن باعتبارهم أبناء في الغربة، في نيويورك مصريون يمثلون الدولة، يبذلون جهدًا في هذا المجال، لكن جهودهم فردية، أخص بالذكر القنصل العام شريف الخولي، الرجل الذي لا يهدأ في الحركة بين المصريين، أما السفير الرائع ماجد عبد الفتاح فلا تفوته مناسبة اجتماعية، رغم أن العمل في الأمم المتحدة أقرب إلى التواجد في جبهة قتال بدون صواريخ ومدفعية، يحتاج إلى جهد كثيف وبذل وقت مضن، المصريون في نيويورك في حاجة إلى مركز ثقافي، مركز يعلم أبناء الجيل الثاني اللغة، ويدرس تاريخ مصر، ويبث ثقافتها، مركز يقدم الغنى والمضمون الحضاري لمصر، مركز يدار بعقلية سياسية ثقافية، وهذا ما تحدثت فيه إلى الدكتور هاني هلال، لم أكن أعني مركزًا لمتابعة طلاب البعثات التعليمية، إنما مركزًا حضاريًا ثقافيًا، يخدم كل المصريين ويقوي الجسور بينهم وبين الوطن، الجيل الثاني المولود هناك يذوب معظمه في المجتمع إما بالاندماج وإما بالعزلة، الكنيسة المصرية تلعب دورًا هامًا بالنسبة للجيل المولود هناك، تنظم الرحلات للشباب. خلالها يتم التعرف وتنمو المشاعر التي تؤدي إلى الخطوبة ثم الزواج، ربما هدف النشاط ديني، لكن محتواه ونتائجه وطنية، الارتباط بالوطن الأم، هذا ما أريده لكل المصريين.

سـيـدة جليـلـة

السـبـت:

رأيتها في الحفل العام لجمعية الأطباء المصريين، صعيدية، سمراء، قوامها مصري، في ملامحها جلال وجمال، تنتمي إلى عائلة للوم، في العودة بصحبة القنصل شريف الخولي ركبت معنا، كانت تسكن بيتًا كبيرًا في نيوجرسي، والآن تسكن شقة صغيرة في مانهاتن، تابعتها عندما نزلت متجهة إلى مدخل البيت وحيدة، حدثني أصدقائي المصريون عنها عن جهودها في جمع التبرعات والمعدات الطبية لمستشفى السرطان الجديد، عن دأبها ونشاطها في اتجاه الوطن الأم.

رأيتها مرة أخرى في منزل السفير ماجد عبدالفتاح في حفل العشاء الذي أقامه احتفاء بعدد من المصريين الذين حلوا بالمدينة، وكنت بينهم، إذ تربطني بالسفير المخضرم صلة عميقة أعتز بها من قديم، وبالتحديد منذ توليه رئاسة مكتب المعلومات برئاسة الجمهورية خلفًا للعزيز الحميم مصطفى الفقي، كنت أتأمل الثروة الفنية من اللوحات للفنانين التشكيليين المصريين، لوحة أصلية لمحمود سعيد أعظم فنان مصري حتى الآن وأكثرهم خصوصية، لوحة لمحمد صبري، وأخرى لحامد حنا، وصولًا إلى المعاصرين، البيت رفيع الذوق، تعاقب عليه دبلوماسيون أعمدة من القمم، الدكتور محمد حسن الزيات، السفير الدكتور نبيل العربي، السفير عمرو موسى، أحمد توفيق خليل، أحمد أبو الغيط، ومن قبل ومن بعد الدكتور محمود فوزي أحد مؤسسي الدبلوماسية المصرية العريقة، اللوحات بعضها من المجموعة الخاصة للسفير ماجد والأخرى ملك لوزارة الخارجية التي أعتقد أن لديها أضخم مجموعة من الفن التشكيلي المصري تزين سفارات مصر في العالم،

أقترح على الوزير أحمد أبو الغيط إعداد كتالوج لهذه المقتنيات يهدى إلى زوار مصر وإلى الشخصيات المصرية، أستعيد ملامح اللوحات في تلك الليلة الحميمة في منزل السفير، كنت أقلب الطرف بين جمال اللوحات، وملامح السيدة النبيلة، ليتني تحدثت إليها وحاورتها.

الثـــلاثـــــاء:

لأن رحلتي إلى الولايات المتحدة هذه المرة خاصة بي، لم أتوجه لدعوة من جامعة أو للمشاركة في مؤتمر أو لعمل صحفي، فقد تأهبت لخلوة طويلة، بالطبع خططت للاتصال بمن تربطني بهم صلة، دبلوماسيين مصريين في نيويورك والعاصمة واشنطن، أساتذة جامعة، أدباء مقيمين في نيويورك، أحدهم أورهان باموق الحاصل على نوبل العام الماضي، أصدقاء قدامى، ومن قبل ومن بعد قضاء جل الوقت مع ابني، بالقدر الذي يسمح به وقته، إلا أنني قبل مغادرة القاهرة تلقيت العديد من الدعوات إلى لقاءات مختلفة، كان خبر وصولي قد انتشر من خلال الأصدقاء، منذ اليوم الأول وجدت نفسي محاطًا بعواطف حارة من الجميع، لم أكن أتصور أنني في هذه المدة القصيرة التي أمضيتها ثلاثة أسابيع سوف أعود وقد اكتسبت كل هذه الصلات، هكذا تعرفت إلى مصريين حققوا مكانة رفيعة في هذا المجتمع الصعب القائم على التنافس، وإلى سائقي عربات أجرة، وأصحاب مطاعم وعاملين فيها، بل إنني كنت خلال مشيي الطويل عبر شوارع المدينة المتقاطعة، المستقيمة كرقعة الشطرنج أفاجأ بترحيب مصري جميل: اتفضل. أنظر إلى من يناديني باسمي، جميع الباعة الذين يقفون إلى عربات السجق والمشروبات والوجبات الخفيفة من المصريين، إنهم يسيطرون تقريبًا على هذه الأماكن وذلك النشاط، لم يكتف بعضهم بالترحيب فقط، إنما دعاني إلى

تناول ساندوتش، وإذا أبديت الاعتذار فلا بد من علبة مياه غازية، أو زجاجة ماء، منتهى الجدعنة، بعضهم رغم أن لديه بطاقة الإقامة فإنه يقيم لمدة شهور معدودات، يجمع مدخرًا لا بأس به ويعود إلى أسرته في إحدى المدن أو القرى، أحد العاملين على عربة أكل يتردد أو يعيش بين البلدين، هكذا منذ أربعين عامًا، وسبب عدم استقراره تمامًا هنا تفضيل بقاء الأولاد في مصر. للمصريين هنا هموم ومشاكل ومطالب وتطلعات، قد التقيت بكثيرين، واستمعت إلى كثيرين، وعدت إلى مصر وكأنني حللت ضيفًا على الجميع، من قمة المجتمع إلى قاعه..

أطبـــاء مصـــريـــون

الســـبــت:

عندما وصلت بصحبة القنصل العام شريف الخولي إلى هذا المكان فائق الجمال، المطل على بحيرة جميلة محاطة بغابة، كان الغروب على وشك الاكتمال، دعاني إلى حضور حفل يقام كل عدة شهور، الجمعية المصرية للأطباء العاملين في نيويورك، المسافات هنا طويلة، كنا في نيوجرسي قطعنا أكثر من مائة كيلو متر لنصل إلى مقر هذا النادي الخاص. استقبلنا الدكتور علاء رئيس الرابطة أو الجمعية، تضم حوالي خمسمائة طبيب مصري، منهم المسلمون والأقباط، الرئيس مسلم والنائب قبطي وأحيانًا العكس، يتم الأمر بانتخابات نزيهة مثل نقابة الصحفيين عندنا، ولكن بدون مؤثرات خارجية! بين المدعوين المفكر الدكتور عبد الوهاب المسيري الذي كان في رحلة علاجية، وخلالها كان موضع حفاوة بالغة من أصدقائه وتلاميذه، ليس في نيويورك ولكن في الولايات المتحدة كلها، وقد انتابتني غصة عندما علمت أن علاجه يتم على نفقة أمير سعودي! واضح من مظهر الحضور أنهم يمثلون خلاصة

نجاح المصريين في نيويورك، أطباء من مختلف التخصصات. الملامح المصرية الصميمة، أبديت اعتذاري للدكتور علاء، إذ إنني جئت بملابس صيفية بعد أن أمضيت اليوم كله بصحبة صديق عزيز يقيم في نيوجرسي، وكان صعبًا العودة إلى نيويورك لأبدل ثيابي. أرتدي حلة كاملة، غير أن الرجل مال إلى الأمام قائلًا: إن وجودك شرف لكل المصريين هنا كيفما بدوت، بعد كلمة افتتاحية قام طبيب مصري متخصص في عمليات التجميل، ألقى محاضرة عن التقدم الذي تحقق مع عرض بالشرائح الملونة لبعض العيون والأنوف والآذان قبل وبعد، أنف مقوس قبل، يصبح أرق وأقوم من أنف إليزابيث تايلور بعد، عنق معوج قبل، يصبح منافسًا لعنق نفرتيتي بعد، وجه مكرمش قبل، يصبح أنعم من وجنة عذراء في الخامسة عشرة بعد، لقد تقدم الأمر أكثر، فباستطاعة المرأة أن تطلب من الجراح تقريب ملامحها من عيني هيفاء أو وجنات نانسي، قال جاري معلقًا: إن كثيرات من الحاضرات سوف يذهبن إليه إن آجلاً أو عاجلاً، إلى جواري جلس الدكتور أمجد، المتخصص في الأورام، أمجد معروف للجالية المصرية بمواقفه الشهمة والجدعنة مع المصريين الذين يجيئون للعلاج، وللأسف لم أتمكن من تلبية دعوة إلى بيته؛ لأنني كنت على موعد مع أستاذ جامعي جاء خصيصًا من سان فرانسيسكو (خمس ساعات طيران) ليلتقي بي، إلى جواري أيضًا سمير خليل كان مديرًا لمكتب مصر للطيران منذ أحد عشر عامًا عندما قصدت مستشفى كليفلاند هو صديق حميم للأستاذ طبيب القلب جلال دويدار الذي اتصل به ليوصيه بي في رحلة العودة إلى مصر، هأنذا ألتقي به لقد استقر في نيويورك، وهو أشبه بالعمدة، لطيف الحضور، رأيته عند العديد من الأصدقاء الذين شرفوني بدعوتهم، دعاني الدكتور علاء للحديث، ألقيت كلمة شديدة التركيز عن دور

مصر الحضاري، ومضمونها الروحي، وعندما استمر التصفيق انحنيت خجلاً في مواجهته.

في صالــون باســيلي

الخمــيــس:

ويليام باسيلي مثقف مصري من جيل الستينيات، عرفته من خلال كتاباته التي بدأ يرسلها إلينا من نيويورك في منتصف التسعينيات، مقالاته. أشعاره. كذلك ما ينشره في القدس العربية التي تصدر في لندن، دعاني إلى صالونه الأسبوعي في منزله الجميل الذي يقع فوق ربوة عالية تطل على مشهد كثيف الخضرة، على أفق أخضر حتى في الغروب، درجة من اللون الأخضر لا توجد إلا في أمريكا، لكل مكان في العالم ألوانه وروائحه وشخصيته، أكثر من خمسة وعشرين مصريًا اجتمعوا في بيت باسيلي، التقيت لأول مرة بعالم المصريات سامح إسكندر الذي عرفني في اليوم التالي بالدكتورة دوروثيا رئيسة القسم المصري بمتحف المتروبوليتان، أما الأخوان شريف مليكة وعادل مليكة فملامحهما كأنها منحوتة من جرانيت الأقصر، ستبقى إلى الأبد في ذاكرتي انحناءة عادل مليكة على العود، احتضانه له قبل أن يلامس أوتاره باقتدار ويصاحب صوت محمد الخولي العذب الذي غنى: «يا مصر أنا عشقت هواكي ويجري في دمي». في مصر يمكن أن نصغي إلى صوت محمد عبدالوهاب يردد: حب الوطن فرض عليَّ، أفديه بروحي وعنية. لكن أن نسمع هذه الكلمات هنا في نيوجرسي فهذا له أبعاد مغايرة تمامًا، ويليام باسيلي إنسان مصري صميم، رهيف الحضور، يعلق على جدران بيته رموز مصر القديمة والقبطية والإسلامية، زوجته الفلسطينية ابنة نابلس ربة دار بديعة، أعدت طعام العشاء لهذا العدد كله بنفسها، أما حازم مصطفى فهمي

الدبلوماسي المصري بالأمم المتحدة فلم تكن صلتي به إلا امتدادًا لعلاقة الإخوة بوالده الدكتور مصطفى فهمي المترجم للعديد من النصوص العلمية وأحد أنشط العاملين في مجال الثقافة العلمية، تحدثت لأكثر من ساعة عن نجيب محفوظ، هكذا طلب مني وليام، قال إن الناس هنا يودون الإصغاء إلى شهادة ممن عايشه عن قرب أكثر من أربعة عقود، ومحفوظ هو أحد رموز مصر الآن مثل أبو الهول والأهرام والكنيسة المعلقة والسلطان حسن، إنه الاسم الأشهر من مصر. ليلة مصرية حميمة، دافئة، فاضت بالشجن والجدل في أحوالنا، عندما خرجت الواحدة صباحًا كنت عامرًا بالصور والانفعالات، لكن ستظل صورة باسيلي وهو ينتقل كالطيف بين ضيوفه، بين جدران بيته العامر بالرموز المصرية، وهذا العازف المصري المهيب الذي دفع بملامحه إلى الأمام مصاحبة لصوت محمد الخولي، فتمكنت من ذاكرتي وثبتت.

لجنة مانهاتن

الثـــلاثـــــاء:

الثانية صباحًا، نتجه من جنوب نيويورك حيث الحي الصيني، والإيطالي، والمنطقة المحيطة بالجامعة، حيث الشباب والفنانون، ما يشبه الحي اللاتيني في باريس، أربعة في سيارة الدكتور نائل الشافعي عالم الاتصالات المقيم في نيوجرسي، أجلس إلى جواره، بصحبتنا محمد إدريس المستشار بالبعثة المصرية لدى الأمم المتحدة، ومحمد ابني، عند منحنى الطريق المؤدي إلى قلب مانهاتن، يتمهل نائل، الشرطة تعترض السيارة، اثنان يقفان بعرضه، وإلى جوارهما امرأة شرطية أيضًا، يد أطولهم مرفوعة، يرتدي رجال الشرطة ونساؤها حللاً زرقاء اللون، ويحملون معدات شتى من كلابشات، وعصي كهربائية، إضافة إلى التسليح الشخصي، أما أبرز ما يميزهم فهي الأحجام. يبدو كل منهم مدكوك البنية بارز العضلات، يستوي في ذلك الطويل منهم والقصير، مظهرهم متقارب، يتفق ذلك مع التاريخ الطويل للسطو والإجرام الذي وضع حدًّا له جوليان عمدة المدينة المرشح الآن للرئاسة، وهو المعاصر لأحداث سبتمبر.

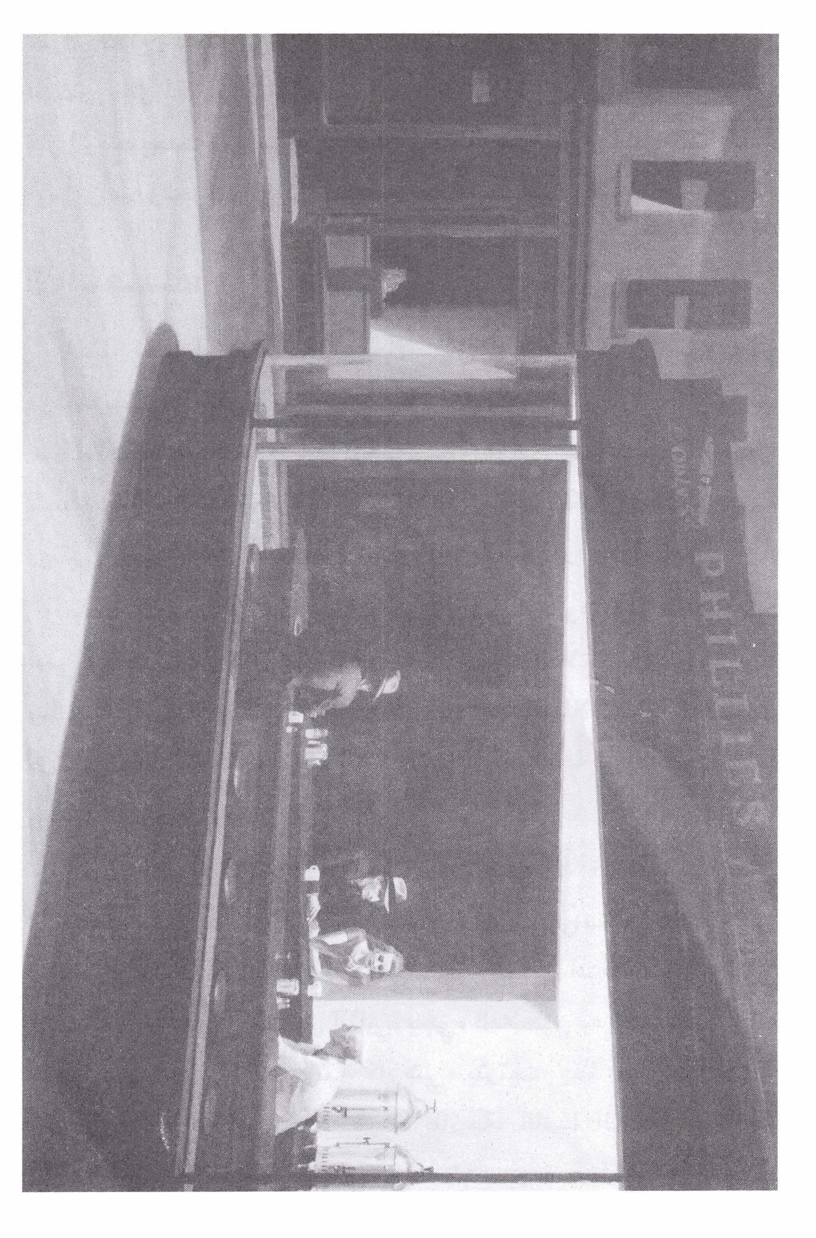
يشير جندي الشرطة بأصبعه إلى جانب الرصيف، يتجه الدكتور نائل بهدوء، يفتح النافذة، أقول إنه آخر ما توقعته أن أجد لجنة مثل لجنة كوبري المنيب التي توقفنا أحيانًا ليلًا، غير أن لجنة مانهاتن هذه ليست ثابتة، كما أنها مختلفة التركيب، إلى جوار الرصيف ثلاث عربات شرطة، وأخرى تبدو كغرفة مغلقة، تحتوي على حاسب آلي، وأجهزة اتصال معقدة.

يقف الجندي الطويل إلى جوار النافذة، إلى جانبه الشرطية، تبدو قوية التكوين أيضًا، لم أر ملامحها جيدًا، يطلب أوراقًا، يفتح نائل الصندوق المواجه لي، يتناول أوراقًا، يقدمها إليه، يبدو أن الجندي يطلب المزيد من الأوراق، يردد نائل كلمة واحدة «بالتأكيد» أمد يدي لأتناول المظروف، يصيح نائل محذرًا.

«من فضلك..»

الشرطي وزميلته يضعان أيديهما على المسدس، يتخذان وضع التأهب صوبي، الجاهل أعمى، كذلك الغريب، شرح لي نائل فيما بعد أنه في حالة اعتراض البوليس للسيارة فلا بد للركاب أن يلزموا أماكنهم، ولا يأتي أحدهم بحركة، وخاصة من اليد في اتجاه خزانة السيارة (كما فعلت أنا) هذا يعني النية أو احتمال تناول سلاح للمقاومة، كان من الممكن أن يطلق أحدهم النار.

نهاية عبثية في مانهاتن. كله ممكن، أيضًا يجب ألا يغادر السائق السيارة لو فتح الباب ونزل فهذا يعني حركة معادية، فإذا اضطر لا بد أن ينزل ويداه مبسوطتان للأمام، فكرت في بعض قيمنا التي تعتبر عدم نزول الراكب للحديث إلى الباشا استهانة وقلة أدب، فكرت هكذا، غير أنني مع شرطتنا يمكن الحديث والتفاهم وإخراج المحمول لإظهار الأهمية، والتلفظ بعبارة «مش عارف أنا مين؟» طبعًا لا أعني شخصي، فلم أنطق هذه العبارة قط لأن من يقولها في الغالب الأعم لا تكون له قيمة على الإطلاق، لاحظت وجود عربات أخرى لم يكن الإجراء خاصًا بنا، إنما بكل السيارات العابرة، سألت عما يجري الآن؟ قال نائل إن رخصة العربة، كذلك القيادة توضع في جهاز للحاسب الآلي موضوع في العربة، عندئذ تظهر كل البيانات الخاصة، عاد الشرطي ليطلب أوراق التأمين، بين الحين والحين تصدر إشارة إلى إحدى العربات المتوقفة بالانطلاق، بعد


PHILLIES

حوالي ثلاثين دقيقة من الانتظار، جاء الشرطي وزميلته قدما الأوراق إلى الدكتور نائل، علق متحدثًا إلى الشرطية التي تلامس خصرها بأصابع يديها، قال إن ذلك يحدث لأول مرة معه، قالت إن هذا يجري طوال الليل، لكنه الحظ، أومأ برأسه وتحركت العربة مبتعدةً عن لجنة مانهاتن الليلة.

الأربـــعـــــاء:

أفضل التعامل مع الباعة في هذه الأسواق المؤقتة، ربما لأن السوق عندي مرتبط بالحركة منذ طفولتي في جهينة، كان المكان متغيرًا مع الأيام، ثمة مساحة مخصصة للسوق، وما تزال، السوق مرتب، منظم، صورة مصغرة للحياة، يبدأ بالطعام ولوازمه من خضار ولحم وفاكهة وغلال وحبوب، وينتهي بلعب الأطفال البسيطة وشاعر الربابة الذي يرفه عن القوم.

عندما سافرت إلى باريس لاحظت وجود هذه الأسواق المتنقلة تحت بيت أخي وصديقي الراحل علي الشوباشي، يجيء الفلاحون بالخضراوات واللحوم والأجبان والمنتجات الطازجة، كذلك الباعة بالملابس والأسطوانات، كل شيء مرتب، وكانت فريدة الشوباشي تعرف الباعة فردًا فردًا، وبينهم حسناوات جميلات يجئن من الريف.

وجدت هذه الأسواق في نيويورك، مما اعتدته أنا أقيم صلات بالبشر في أي مكان أحل به حتى لو عدة أيام قليلة، أتردد على مطعم واحد، أجلس في نفس المكان أو أتعامل مع نفس الشخص، السوق المؤقت يمتد في شارع عرضي، المتعامد على الطريق الثاني، يجيء الفلاحون بعربات نقل صغيرة مزود بعضها بأفران كهربائية، كل شيء بترتيب، بدءًا من باعة الفاكهة والخضر إلى باعة الزهور، منتجات طازجة، خاصة الخضر والفاكهة، الأسعار أرخص قليلًا، لكل مكانه، لاحظت جودة عسل النحل، غير أن

الفاكهة والخضر رغم منظرها المتألق فإن ثمة شيئًا مفتقدًا في المذاق، طبعًا لديّ مرجعية الفاكهة المصرية التي لا مثيل لها، كذلك الخضراوات، إن ثمار المانجو بأنواعها في مصر من المعجزات، كذلك التين البرشومي، خاصة الذي ينمو في الساحل الشمالي، التربة المصرية لا مثيل لها، تربة قديمة، متراكمة عبر آلاف السنين بأخصب الطمي، وللأسف نهدرها الآن من خلال البناء عليها وتبديدها، كذلك ما جرى للزراعة على يدي الدكتور يوسف والي الذي انتهت في عهده زراعة القطن المصري المتفوقة، وخروج طويل التيلة نهائيًّا من أرضنا بعد انهيار «جيزة سبعين»، والتلاعب في مذاق الفاكهة بالتهجين والتخليط.

أتوقف أمام سيدة في خريف العمر، بمفردها، تعرض فطائر من التفاح مغطاة بعناية كما خمَّنتُ، هي التي تعد الفطائر، تعيش في نيوجرسي، ونيوجرسي تلك، إحدى المراكز الخمسة التي تكون ولاية نيويورك أكبر من دلتا مصر حجمًا، تجيء من مسافة تزيد على مائة وخمسين ميلًا (أكثر من مائتي كيلومتر) لتعيش بمفردها بعد أن غادرها ابنها إلى سان فرانسيسكو، أخبرتني بتفاصيل حياتها، والوقت الذي تقضيه لإعداد الفطائر، استيقاظها مبكرة قبل الفجر، بالطبع لها زبائنها مثلي، وبعضهم يوصيها مقدمًا عندما يكون لديه دعوة أو حفلة، إنها تحب رؤية الناس والتحدث إليهم ولو لثوانٍ، هذا متوافر هنا في السوق.

دائمًا أستعيد ملامحها المرحبة، الطيبة، رغم لغتها الإنجليزية ذات اللكنة الأمريكية فقد كانت تبدو لي وكأنها قادمة من أحد الأزقة في الجمالية، الإنسان هو هو، خاصة إذا وجد نفسه وحيدًا، عندئذ يقوى الشبه بالآخر البعيد، للأسف لم أخبرها بسفري يوم.... وعندما يجيء الأربعاء القادم، ربما أطفو على سطح مخيلتها، وربما لا أرد على الإطلاق.

البــورتــريكـــو

الخميـــس:

ماذا يجري؟

البوليس ظاهر بشدة، اثنين اثنين، عند النواصي، أمام مداخل المباني الشاهقة، حضور غير عادي، سألت، قيل لي إنهم البورتريكيون، استفسرت: مالهم؟ قيل لي إنه العيد الوطني، أو اليوم القومي لهم، سيجري ذلك يوم السبت.

بورتريكو جزيرة في الكاريبي، يتحدث شعبها اللغة الإسبانية، انضمت إلى الولايات المتحدة، غير أن شعبها حريص على الاحتفاظ بتميزه، لهم منطقة في نيويورك كانت تُعد أشد خطرًا من حي هارلم ذي الغالبية الزنجية قبل أن يسود الأمن بعد تحسن الأوضاع الاقتصادية وزيادة قوة الأمن، اهتم العمدة جولياني بالعنصرين معًا، الاقتصادي والاجتماعي والأمني، البورتريكيون مثيرون للشغب، في العام الماضي، بعد أن احتفلوا بالعيد القومي في أحد الشوارع الطولية والذي يغلق تمامًا على السيارات، اتجه شبابهم في مجموعات إلى الحديقة المركزية وهاجموا الفتيات وأحدثوا شغبًا عظيمًا، البوليس يحتاط منذ الآن، لاحظتُ بعض العربات ترفع علمًا يغلب عليه الأزرق والأحمر، إنه علمهم، تعجبت لذلك، لكنني بعد أن علمت بعدد المجموعات وأصحاب العقائد في الولايات المتحدة لم أعد أعجب.

مـــكاتـــب

الخمـــيـــس ليـــلًا:

عندما أغمض عيني استعدادًا للنوم، أستعيد مفردات يومي المنقضي، تتوالى عليَّ المشاهد، مكاتب، مكاتب، مكاتب تبدو من خلال الجدران

الزجاجية في الطوابق الأولى، مكاتب في الشقق التي تبدو فراغاتها عبر الواجهات الزجاجية، أوراق، حواسب آلية، موظفات شابات، شبان، يتحدثون عبر الهواتف، الحركة في الطرق سريعة، الكل مسرع، خطوات البعض تبدو أقرب إلى الجري، هواتف محمولة ملاصقة للآذان، بين الخطى المسرعة رجل يرتدي بنطلونًا. يمسك بيد امرأة، ربما زوجته، ربما صديقته، راهب بوذي يلف جسده بالثوب البرتقالي الفاقع غير المخيط، حليق الرأس تمامًا، تتوقف عربة إلى جوار الرصيف، ينزل منها اثنان، كلاهما فاره الطول، أحدهما يتقدم الآخر، يرتدي قبعة، الحذاء لامع، باطن أبيض تقريبًا، يتجهان صوب ناطحة السحاب الشهيرة، شابة ترتدي معطفًا، تمشي بسرعة، تلتهم أصبعًا من الموز، الكل مسرع، الكل يجري، الكل قادم من مجهول مضى، متجه إلى غاية، ربما لا يعرف أي شيء عنها، تتداخل الملامح، تتبادل اللحظات مواقعها في الذاكرة، لكن تظل حركة المدينة بادية، لكل مدينة حركة خاصة بها في شوارعها، في طرقاتها، ويظل للمدينة هنا الإسراع المتصل، والجري، الجري، حتى وإن لاح الثبات.

مكتبة الجمعة:

للمكتبة في الولايات المتحدة شخصية خاصة، إنها ليست مجرد مكان تنتظم حول جدرانه أرفف لبيع الكتب، لكنه مكان للقاء والتأمل، في كل مكتبة تبيع الكتب مقهى لتناول المشروبات، وربما مطعم أيضًا، وركن تعرض به المجلات والصحف مجانًا لمن يرغب، يمكن للإنسان أن يقضي ساعات في قراءة الدوريات والجلوس متأملاً أو تقليب الكتب ثم الانصراف بدون أن يسأله أحد أو ينظر إليه مستنكرًا، وهذا النموذج نقلته مكتبة «الديوان»

بالزمالك، لكن مع فارق الحجم، فالمكتبة في واشنطن أو نيويورك متعددة الطوابق، فسيحة، يبلغ حجم بعضها ما يماثل بناية عمر أفندي التاريخية في شارع عبد العزيز والتي بيعت ضمن ما بيع بثمن بخس.

للمكتبات عالم خاص هنا، لكن أعدادها بالنسبة لمساحة المدينة قليلة، هنا ما يزال التفوق لباريس رغم اختفاء عدد من المكتبات الشهيرة في وسط المدينة وتحولها إلى محلات أزياء أو مطاعم، وعالم المكتبات في باريس غزير متنوع يحتاج إلى حديث خاص، تتفوق الحركة الثقافية في نيويورك من خلال عروض المسرح والموسيقى.

كتـــب قـــديمـــة:

الجمعـــة ليـــلًا:

لمحت مدخلها بين المطاعم الصغيرة المتجاورة في شارع سان مارك بالقرية الشرقية أوما أطلقت عليه الحي اللاتيني، مكتبة، مدخلها ضيق، لكنها ذات عمق، أشبه بالممر،مكتبة للكتب القديمة، بعد دقيقتين أدركت أنني أمام كنز، طبعات قديمة نادرة من عيون الأدب الكلاسيكي مجلدات ضخمة عن الفن التشكيلي، المكتبة للكتب المستعملة، أما الأسعار فزهيدة جدًّا، أمضيت أكثر من ثلاث ساعات، فرحت بمجلد ضخم عن الفنان الفرنسي يعد الأشمل والأدق لرسومه، تأليف بيير شنور، وصادر عن دار فلا ماريون في باريس عام 1984، في نفس العام ترجم إلى الإنجليزية وصدر في نيويورك عن دار ريزولي. الكتاب يقع في ثلاثة آلاف صفحة من القطع الكبير، والورق السميك، يشبه قطعة أثاث صغيرة، ويزن حوالي خمسة عشر كيلو جرامًا (الوزن مهم عند السفر)، لفت نظري السرعة التي انتقل بها المجلد الضخم من الفرنسية إلى الإنجليزية، في نفس العام، هذا هو جوهر الثقافة ومعنى الحركة الثقافية،

نشاط تلقائي، دقيق، مع العلم أن الولايات المتحدة لا يوجد بها وزارة ثقافة، الحركة الثقافية قائمة أساسًا على المتلقي، وعلى تبرعات الأثرياء وهي غزيرة جدًّا، بالطبع أشك في ترجمة مثل هذا المرجع ولو بعد مائة عام، دفعت ثمنه المكتوب عليه بحروف صغيرة، سبعة وعشرين دولارًا، هذا سعر بخس بالنسبة لسعر الكتاب الذي أعتبره متحفًا صغيرًا مركزًا، خرجت من المكتبة بعد منتصف الليل بحمل ثقيل من كتب الفن، بينها مجلد صادر العام الماضي عن الفنانين في نيويورك وهؤلاء لا نعرف عنهم شيئًا، فأغرب ما ألاحظه الآن انقطاع الثقافة العربية عن ثقافات العالم رغم تعدد وتطور وسائط الاتصال الحديثة، وهذا من العجائب المثيرة الجالبة للأسى.

النكبة الثانية.. من بعيد

الثلاثاء:

في البعد يكون تأثير الأحداث أشق وأوعر، هذا حال أعرفه منذ فترة حرب الاستنزاف، فعندما كنت أتواجد في الجبهة أصبح أكثر هدوءًا مما أنا عليه في القاهرة أو في أي مكان آخر، هذا حالي أيضًا في نيويورك مع اختلاف المواقيت، وتغير الأزمنة، وانقلاب الأحوال مع وصولها إلى مدى لم نتوقعه ولم نتصور يومًا حدوثه، هكذا رحت أتابع أحداث غزة في نيويورك، أتنقل بين الفضائيات، عربية وأجنبية، هالني قتال الفلسطينيين الأكثر ضراوة منذ ثمانية وأربعين، عندما رأيت العلم الفلسطيني يُنزع من مقر الرئاسة ويرتفع مكانه علم «حماس»، ذهلت، دائمًا في الفواجع العظمى نتوقف عند لحظة بعينها، لحظة محددة تلخص ما جرى، إنها انتزاع العلم الفلسطيني بأيدٍ فلسطينية، إنها النكبة الأفظع والانتحار المبين للقضية بأيدي نفر من أبنائها، إن الانحياز لفريق ضد الآخر في مثل هذه الظروف موقف خاطئ، خاصة إذا حاول البعض تبرير ما جرى من منطلق اتفاقهم عقائديًّا مع هذا أو ذاك؛ لذلك يجب أن يكون الصدق في الموقف والتعبير دقيقًا، نافذًا، فساد «فتح» معروف أمره، وجود بعض الشخصيات المريبة في القيادات العليا أمر لا خلاف عليه، لكن هذا ينطبق أيضًا على الأطراف الأخرى، فثمة وجوه لا تاريخ نضالي نعرفه لها، بل تحيط بها الريبة، ومنظمة حماس، معروف لكل مهتم بالقضية الفلسطينية أن إسرائيل شجعت قيامها لإضعاف منظمة التحرير الفلسطينية، لا أعرف الكثير عن بعض قياداتها الغامضة، لكن

كثيرين استشهدوا وهم يقاومون الاحتلال في بسالة وعلى رأسهم الشيخ أحمد ياسين، لو أنه على قيد الحياة هل كان سيرضيه ما جرى من أفعال شائنة وحشية مثل إلقاء طباخ أبو مازن موثقًا من الطابق الثاني عشر، الإعدام الفوري للفلسطينيين، تجريد الأسرى من ملابسهم. تمامًا كما تفعل إسرائيل، تدمير الرموز، تمثال الجندي المجهول الذي يشير بيده إلى القدس، تدمير النصب التذكاري للشهداء المصريين، تشبيه أحد القادة المنتصرين (على من؟) ما جرى بأنه مثل فتح مكة، وهذا تشبيه خاطئ على كافة المستويات، الذي فتح مكة خاتم المرسلين، وعندما دخلها عفا عن أهلها بما فيهم الكفار، لم ينكل ولم يعذب كما فعل الذين يرفعون الرايات الخضراء الآن، تداعيات كثيرة، وأسئلة أكثر منطلقها هذه اللحظة الفارقة، تمزيق العلم. هل أضعنا أعمارنا في نصرة قضية خاسرة؟ هل تنتهي القضية الفلسطينية بأيدي فلسطينيين على سلطة وهمية؟ الأمر يخصنا، ليس لما بذلناه من أجل القضية، ولكن هذه الأحداث تجري على حدودنا الشرقية؛ لذلك أنبه إلى أمور، أهمها إمكانية حدوث تدفق جماعي للفلسطينيين إلى سيناء، أذكر هنا بمشروع إسرائيلي لتهجير الفلسطينيين إلى سيناء وتفريغ غزة.

من ناحية أخرى يجب معالجة مشاكل أهالي سيناء معالجة جديدة وعميقة، وقد قُدِّر لي أن أكون قريبًا منهم، وأعرف بينهم أبطالاً خدموا الوطن بتفانٍ، أعود مرة أخرى إلى لحظة إسقاط العلم الفلسطيني بأيدٍ فلسطينية، إلى الإمارة الطالبانية التي تلغي فلسطين كلها ليهلل القائمون عليها ومَنْ والاهم، باعتبار الأمر انتصارًا للإسلام وما يتبع ذلك من تضليل للناس الذين لا تتوافر لهم المعلومات والحقائق، من البعد ومن القرب أهتف بحسرة: وامصيبتاه!

وحـــدة الغـــربـــــاء

الأربـــعــــــاء:

الفن العظيم يلخص الوجود ويبرز مضمونه غير المرئي، من الفنانين العظام الذين هِمْتُ بأعمالهم، فنان أمريكي اسمه إدوار هوبر، توفي عام سبعة وستين من القرن الماضي. لا أظن آخر مثله عبَّر عن حالة الوحدة الإنسانية، خاصة في أمريكا، يصور الأماكن في أيام الآحاد، الشوارع وقد خلت من البشر، مداخل الأنفاق، الجسور، النواصي. للأماكن وحدتها الخاصة أيضًا، في الطريق من مطار جوزيف كيندي إلى المدينة كنت أتطلع عبر النافذة إلى الشارع المزدحم، إلى الأرضية التي يتناثر فوقها بعض المخلفات، وعندما مررنا تحت جســـر قديم للقطـار، أدركت فجـأة أنني في الولايات المتحدة، أنني في نيويورك بالتحديد، رأيت هذا الجزء من قبل في إحدى لوحات هوبر، غير أنني خلال الأيام التي أقمتها طالعت العديد من مظاهر الوحدة، في الحدائق العامة، في المطاعم الرخيصة، خاصة في المنطقة الجنوبية من مانهاتن، حيث الحي الإيطالي، والصيني والقرية، مناطق قريبة من جامعة نيويــورك، مطاعم، مشارب، مسارح صغيرة تفرز الفرق الفنية الأمهر التي قد يتاح لها الحظ في الشارع الأشهر برودواي، في المطاعم الراقية يجلس الناس حول المناضد متواجهين، أحيانًا يكونون عشاقًا، أو أسرة أو في عشاء عمل، لكن المطاعم الشعبية تكثر فيها حالات الوحدة، في أحدها رأيت فتاة جميلة، في العشرينيات تجلس بمفردها، كانت الساعة تقترب من منتصف الليل، أمامها طبق وسلة خبز وكوب ماء، تأكل بيد وتتطلع إلى الأمام، كأنها لوحة لهوبر، في سوق كبير (سوبر ماركت بالفعل) قسم كبير للطعام الجاهز، أصناف مختلفة، يتناول كل زبون علبة

من البلاستيك مقسمة إلى خانات، يضع فيها ما اختاره، سلطة، أرزًا، خضارًا، دجاجًا، لحمًا، حلويات، ثم ينتظم في صف ليدفع ويمضي إلى مكان فسيح مليء بالمناضد والمقاعد، كل منهم يجلس بمفرده، وأصعب حالة من الوحدة عندما يأكل إنسان بمفرده، أتذكر جملة مصرية جميلة أعلقها في مكتبي (البركة في اللمة)، هنا اللمة موجودة، ناس كثر، لكن كل منهم مفرد، وحيد. في الشوارع يندفع الناس، كل بمفرده، أرى أحياناً رجلًا أو امرأة في حالة من الأناقة الشديدة، أناقة خاصة، في حافلة صعد رجل كأنه خارج من أحد أفلام الخمسينيات، حلة أنيقة، قميص من مربعات صغيرة، الألوان تتفق مع الجورب البادي من الحذاء اللميع، الزراير النحاسية، ثمة شيء في مظهره يقول إنه أمريكي، أمريكي وليس شيئًا آخر. تدفق البشر في الشوارع كثيف، كلهم مسرعون، رغم أنهم جمع فهم فرادى، الناس متعاونون، إذا سألتهم عن عنوان، يتوقفون ويجيبون إذا كانوا يعلمون، فيهم قدر كبير من اللطف رغم أن بعض الأصدقاء وصفوا أهالي نيويورك بالترفع، لكنني لم أجد ذلك فيمن قابلت، المدينة تخلو من الأطفال تقريبًا والعجائز، لم أر الأطفال إلا نادرًا، كل المقيمين فيها جاءوا من مناطق أخرى، كلهم غرباء؛ لذلك يألف الإنسان نيويورك بسرعة، إنها حالة فريدة في المدن، بمجرد النزول إليها يصبح الزائر مواطنًا، لأنه لا يوجد مواطنون معمرون، كل من قصدها غريب، وعندما يصبح الكل غرباء ينتفي الإحساس بالغربة، لكن تبقى الوحدة، التواصل صعب، ولم أعرفه إلا مع المصريين الذين سعيت إليهم وسعوا إليَّ وسوف أتحدث عنهم بتفصيل أكثر في يومياتي القادمة، انتفى عندي الإحساس بالغربة في نيويورك، إنها مدينة الإقامة المؤقتة حتى وإن طال المدى، تمامًا.. مثل الحياة.

مانهـــاتـــــن

الخمـــيـــس:

تتكون مدينة نيويورك من خمس مناطق كبرى، لكن عندما نقول اسمها ينصرف الذهن مباشرة إلى ناطحات السحاب، إلى مانهاتن، الجزيرة المستطيلة التي كانت مستنقعات وأحراشًا، وتم تخطيطها بحيث تنطلق إلى أعلى لضيق المساحة. لا يمكن لإنسان أن يفقد طريقه لأن التخطيط واضح جدًّا، شوارع طولية فسيحة (بوليفار). الأول والثاني حتى السادس، لكل منها اسم، يمتد كل منها بطول الجزيرة، تتقاطع معها شوارع عرضية يحمل كل منها رقمًا، ويوميًّا أمشي لمسافة طويلة من الشارع الخامس والأربعين حيث أقمت إلى حيث توجد المتاحف، وأبعدها متحف جوجنهايم في الشارع التاسع والثمانين، أما المترو بوليتان فيقع في مواجهة عدة شوارع بدءًا من التاسع والسبعين حتى السادس والثمانين، الجزء الجنوبي الذي يقع في مواجهة بروكلين المنطقة الثانية الأهم عتيق، شوارعه يحمل كل منها اسمًا، بعضها يشبه المناطق الخلفية حول ميناء الإسكندرية، المحيط قريب، هنا يقع حي المال الشهير، شارع الجدار (وول ستريت) حيث مقر البورصة، وحيث مقياس نزداك الذي يتعلق به اقتصاد العالم، فلو حدثت به هزة لانهارت أسواق وأفلست شركات عملاقة، ليس في الولايات المتحدة إنما في أقاصي الأرض، الشوارع المؤدية إلى البورصة مغلقة على السيارات منذ الحادي عشر من سبتمبر خشية هجمات محتملة من القاعدة، الشوارع المؤدية إلى البورصة لا توحي بأهميتها، الطريف أنه يرمز للمكسب والخسارة بحيوانين، الأول هو الثور رمز المكسب، وله تمثال ضخم عند المدخل المؤدي، والثاني هو الدب الذي التهم الربح، ولذلك لا يوجد له تمثال، مبنى البورصة نفسه يشبه مبنى

الغرفة التجارية في الإسكندرية، وكلاهما يستوحي العمارة اليونانية القديمة، غير أن مانهاتن تبدو شخصيتها في الليل، عندما يكتمل الليل وتضاء النوافذ في الأبراج العالية، تتقاطع أصداء الضوء في الطرق الطويلة التي تخلو من الميادين، لم أعرف إلا ميدانًا واحدًا مستديرًا مساحته أقل من مساحة ميدان العتبة، اسمه كولومبس، يتوسطه تمثال نحيل، هزيل، يشبه تمثال طه حسين الذي سخط عملاق الأدب العربي وحوله إلى خيال مآتة.

مكتـــب إدوارد

لكم كتبت هذا العنوان على مظاريف الخطابات:

البروفيسور إدوارد سعيد

طريق النهر الشرقي – نيويورك

منذ منتصف الثمانينيات ، وقبل لقائنا الشخصي عام ثمانية وثمانين في القاهرة خلال زيارته التي جاءت بعد سنوات انقطاع عن المدينة التي عاش فيها مع أسرته إثر الهجرة من فلسطين، هأنذا في نيويورك، أقف عند إحدى نواصي الشارع الثاني منتظرًا عربة أجرة تقلني إلى العنوان، الموعد المحدد للوصول هناك الحادية عشرة، لم أعرف أن هناك حافلة تقلني من الموضع الذي أنتظر فيه إلى أمام البيت مباشرة إلا عند عودتي فعلاً.. الغريب أعمى ولو كان بصيرًا.

سائق عربة الأجرة باكستاني، غير راضٍ عن الأحوال الاقتصادية، إنه يعمل كثيرًا ليكسب أكثر ولكن الحصيلة لا تكفي، ملامحنا المتشابهة شجعته على الحديث المتواصل، بينما يطل عليَّ من أفق ذاكرتي وجه إدوارد سعيد ذو الملامح الإنسانية الطيبة، هذه الملامح رحلت إلى العدم لن أراها مرة أخرى إلا من خلال الصور والذكريات، سألتقي برفيقة عمري، مريم سعيد، صحبتها في

القاهرة أكثر من مرة، لكم تمنيت أن ألتقي بها في نيويورك، لكنني دائمًا كنت أعبر مطار المدينة إلى جهات أخرى في الولايات المتحدة أو أمريكا اللاتينية، إنها المرة الأولى التي أقيم فيها بعد أن أصبحت نيويورك بدون إدوارد، لكم تردد صوتي عبر الهاتف في هذا البيت الذي أقصده الآن، مرة من مصر، من أماكن أخرى في العالم، لقد عرفني إدوارد كروائي قبل أن يعرفني كشخص، وقدم الزيني بركات في جريدة الصاندي تايمز، ورشحها للترجمة والصدور في مطبوعات بنجوين وكتب لها المقدمة، حقًّا إنني مدين له، مدين لنزاهته الثقافية، وإلى شخصه الذي كانت تلخصه كلمة واحدة فقط (النبل) هأنذا أصل إلى العنوان، هنا كان يقيم واحد من أعظم مثقفي القرن العشرين.

العمارة كلاسيكية، راسخة، تنتمي إلى بدايات القرن العشرين، تتكون من اثني عشر طابقًا، تقع على ناصية، تطل على حديقة ممتدة بحذاء النهر، متدرجة نحوه ومن هذه النقطة يلوح الجسر الذي يربط نيويورك بولاية نيوجرسي حيث يقيم معظم المصريين المهنيين والذين حققوا مكانة في المجتمع، إدوارد كان يقيم هنا باعتباره استاذًا في جامعة كولومبيا، ومن المتعارف عليه أنه بعد الرحيل يتم إخلاء المسكن ليحل أستاذ آخر، غير أنه في حالة إدوارد اختلف الأمر، إذ اجتمع مجلس إدارة الجامعة بكامل هيئته واتخذ قرارًا باستمرار سكن الأسرة إلى الأبد، وهذه سابقة تحدث لأول مرة تقديرًا للمفكر العظيم.

المصعد من الطراز القديم، هأنذا أتوقف، تفتح لي خادمة أو مديرة البيت، ترحب بي، أنتظر قدوم السيدة مريم، نتصافح بحرارة، تدعوني إلى الدخول، يغمرني ضوء قوي مريح، البيت يسبح في ضوء نقي مرشح، قادم من السماء الصحو وانعكاساته على النهر العريض الذي يعد جزءًا من المحيط، الكتب في كل مكان، الجدران، الأرض، نفس الوضع في مكتبتي بالقاهرة، أرض

الكتب تحت الأرفف التي ضاقت بما تحمل، تحدثت عن ذكريات مشتركة، ثم سألت عما إذا كان صدر كتب بعد رحيله، قالت مريم إن كتابًا جديدًا صدر بالفعل عنوانه (أسلوب آخر)، ويضم كتابات عن العلاقة بين الموسيقى والأدب، صدر عن دار فينتاج بوكس، قدمت إليَّ نسخة، بدأت قراءتها في إقامتي بنيويورك، وبعد عودتي قررت أن أرسلها إلى الصديق الدكتور جابر عصفور لبدء إجراءات الحصول على حقوق الترجمة تمهيدًا لصدور الكتاب في المشروع القومي.

في البيت بيانو كبير، كان إدوارد عازفًا ماهرًا، وقدم عروضًا مشتركة مع الموسيقار اليهودي العالمي بيرنباوم.

حدثتني مريم عن أفكاره الأخيرة، عن بدء اعتقاده بقيام دولة واحدة تضم الإسرائيليين والفلسطينيين وأن يتعايش الجميع على قدم المساواة، بحيث يمكن أن يرأس هذه الدولة يومًا يهودي أو مسلم أو مسيحي، دولة تقوم على أساس علماني، وليس دينيًّا، لكن قبل ذلك لا بد من تفهم الآخر جيدًا، قالت إن هذه الفكرة يتحدث عنها أيضًا يهود مثل يوري أفيتري وفارشفسكي، قالت إنه من الضروري أن تكون هناك مراكز دراسات متخصصة عن أمريكا في العالم العربي، وكذلك دراسات متخصصة في الولايات المتحدة عن العالم العربي، كان ذلك أحد الأفكار الأساسية في المرحلة الأخيرة من حياته، معرفة الآخر، العرب، الإسرائيليين، العرب، الأمريكيين.

قالت إن عدة مؤسسات دولية تدعم أفكار إدوارد من خلال أنشطة محددة، حكومة الأندلس على سبيل المثال، تدعم نشاط الأسرة وتلاميذ إدوارد بقوة، الحاكم اسمه إيمانويل شافيل، يعنيه جدًّا إقامة علاقات قوية مع العرب، في سيفيليا تأسست مؤسسة بارنبوم – سعيد تدعو عازفين مهرة من العالم، ويقوم بارنبوم بتدريبهم وتقديم عروض موسيقية مشتركة.

بين العازفين يهود، وهذه مشكلة في العالم العربي، قلت لمريم إننا لسنا ضد اليهود كديانة ولكننا نتخذ موقفًا من الصهيونية باعتبارها حركة سياسية لها أهداف استيطانية.

قالت إنها تعرف الحساسيات الحالية، رغم أنهم يهمهم جدًّا تقديم عروض موسيقية في القاهرة والإسكندرية لكنها تعرف صعوبة ذلك.

صمتت لحظة وقالت:

«أنا مقهورة كتير».

قالت إن عازفة من الإسكندرية انضمت إلى الفرقة بشكل فردي وتشارك في العروض التي يقدمها بارنبوم.

قالت إن مشروعًا يتم الآن في أوروبا لإنشاء مؤسسة ثقافية باسم إدوارد سعيد، وفي الجامعة الأمريكية ببيروت تم إنشاء كرسي لدراسات الأدب المقارن يحمل اسمه، ورُصد لهذه الميزانية مليونان من الدولارات، يتم الآن في إطار مؤسسة إدوارد سعيد إجراء اتصال بطارق علي، وعمل مجموعات من الكتاب في البلاد العربية، ودعوة مفكرين من الغرب أمثال تشومسكي، وعقيل بلجرامي، وجاكلين روز (من بريطانيا) لعمل ندوات مشتركة تقام في العالم العربي والعواصم الغربية، في تركيا أقامت جامعة بوسفور بالاشتراك مع الناشر التركي لأعماله مؤتمرًا كبيرًا.

قالت مرة وهي تعود إلى فكرة الإوركسترا المشترك مرة أخرى، إنها كتبت للدكتور إسماعيل سراج الدين وإنه طلب مجيء الأوركسترا في الشتاء. بالطبع ستكون سعيدة جدًّا لو عزف الأوركسترا في المكتبة، اتصلت بالموسيقار شريف محيي الدين وقال: إنه لديه فريق رفيع المستوى منهم ثلاثة عشر عازفًا، لا يمانع في اشتراكهم. لكن حتى الآن لم يتم اتفاق محدد.

قالت مريم إنها أجرت اتصالات مع السيدة الأولى في سوريا وإنها لا تمانع. سألتها عن ترجمات كتب إدوارد، قالت إنها تتقدم، والآن مقروء في أكثر من ثلاثين لغة، قالت: إن آخر طبعة صدرت من كتاب (الاستشراق) في البرازيل، وقد اعترضت على الغلاف لأن الناشر ضمن صورة مسجد في إيحاء إلى أحداث الحادي عشر من سبتمبر، غير أنها رفضت ذلك، مهما كانت اعتبارات التوزيع.

سألتها عن الأبناء، ابتسمت برقة، قالت: إن «وديع» في كاليفورنيا يدرس الحقوق أما «نجلاء» فتدرس المسرح.

سمحت لي السيدة مريم بدخول مكتب إدوارد سعيد، تقع الغرفة على الناصية، مدججة بالكتب، صناديق ورقية مليئة بأوراق، سطورها تحمل كلمات إدوارد بالقلم الرصاص، كان يستخدمه في الكتابة، السيدة مريم نظمت كل شيء، ورتبت ما يمكن نشره، وهذا ينتمي إليه الكتاب الذي صدر أخيرًا.

لقد ظل إدوارد يعمل حتى آخر يوم، تذكرت لقاءنا في مدينة دبي، عندما حصل على الجائزة التقديرية لسلطان العويس، كان المرض في بدايته، وتذكرت مجيئه إلى مدينة طنطا في نهاية التسعينيات، عبوره من نيويورك إلى القاهرة، إلى طنطا، ليشارك في مناقشة هاني حنفي أحد تلاميذه في جامعة كولومبيا، وتلميذ الدكتورة رضوى عاشور، تذكرت ملامحه المجهدة، والتي لم تخف حيويته الفكرية وجسارته.

تطلعت إلى مقعده، إلى مكتبه الذي تُرك على حالته، إلى المشهد الذي كان يراه إذ يجلس للإبداع الفكري، أصغيت إلى الصمت، إلى حضوره، وخُيِّل إليَّ أنه يراني من نقطة ما يستحيل أن أحددها.

الغربــة فــي الوطــن

الثـــلاثـــــاء:

لم يعد يمر يوم إلا ونقرأ عن شباب ألقوا بأنفسهم في اليم سعيًا إلى الهرب من مصر والرسو على شاطئ اليونان أو إيطاليا، يتم الإبحار من الساحل الليبي والآن من المصري، لم يعد يخفى أن ثمة عصابات تبيع الوهم، يستدين الشاب عدة آلاف من الجنيهات وقد يبيع قطعة أرض أو نصيبه في بيتٍ آل إليه بالميراث، ويقدم؛ لعل وعسى، في نيويورك التقيت شابًا خرج من قريته في الدلتا قاصدًا الأكوادور في أمريكا اللاتينية، عبر ثماني دول، حتى وصل إليها، كل ما هو مزود به رقم هاتف لشخص مصري في الأكوادور، عبر حدود بعض الدول في مخازن عربات النقل حتى دخل إلى الولايات المتحدة وحصل على الإقامة، سجل جمال عمر الذي يتمتع بموهبة أدبية ما مرًّ به، وقد نبهني الأديب حسام فخر إلى هذه التجربة الثرية العميقة، وآمل أن تصدر قريبًا في كتاب، سوف تسفر تجارب المصريين ومعاناتهم أدبًا واقعيًّا جديدًا خلال السنوات المقبلة، سيكتبه من نجا منهم، من سينجو من خداع العصابات وحراس الحدود الذين يصوبون بلا رحمة في المليان، سينجو من يعبر الموج العالي، ولكن يظل السؤال: لماذا؟ ما الذي أوصل المصريين الذين عرفوا بارتباطهم والتزامهم وكراهية الغربة حتى إن المصري كان حتى الستينيات إذا انتقل من قريته إلى المدينة على بعد كيلومترات قليلة يقسم بغربته، الآن يتوزع المصريون على قارات العالم الخمس، إنني أضع نفسي مكان الآخرين، دائمًا أطالب في مواجهة ما يستعصي على الاستيعاب أن يضع الإنسان نفسه مكان الآخر حتى يفهم، هذا الشباب الذي لا يجد فقط عملاً، ولكن ينقطع أمامه بصيص أي أمل وهذا هو الخطير، انسداد أبواب

الأمل في عمل كريم، نظام تعليمي يخدم أوضاعًا اقتصادية لم تعد قائمة، سوق عمل محدودة في مواجهة أعداد غفيرة من الخريجين ينهون دراستهم إلى الشارع ولا بارقة ولا شعور لديهم أنه ثمة من يعمل من أجلهم، الغريب أن عددًا من المشروعات القائمة يستعين بالعمالة الأجنبية، أخبرني مستثمر كبير جدًا أنه لا يجد التخصصات التي يحتاج إليها في العمالة المصرية، لذلك....... الذي يؤدي بالشباب إلى الهرب صوب المهالك، ممَّا يطالعونه من فساد، فلنتخيل شابًا لا يجد بصيص أمل في عمل، ثم يقرأ أن من يماثله سنًا يتقاضى شهريًا – بالطرق الرسمية – مائة ألف جنيه مكافآت وحوافز، لمجرد أنه مقرب جدًا من سيادة الوزير، فليتخيل كل منا نفسه مكان أحد هؤلاء الشباب وهو يطالع مثل ذلك، في البحر لنش ينتظر البائسين الفاقدين الأمل، ولنش في المرسى أمام الفيلا في مارينا للفتى العبقري الذي أسعده الحظ بالقرب، فلنتأمل.

انقطـــاع الإرســـال:

الأربـــعـــــاء:

تنتابني الرغبة في العزلة، أغلق الهاتف بكل أنواعه، ألوذ بمكتبتي، لا أستمع حتى إلى الموسيقى، أجلس عند حافة المقعد، أنحني إلى الأمام، أغمض عيني، أرى داخلي، تمر أمام بصري الألوان المستعصية على الفهم، تتوارى الأصوات الوافدة إليَّ من الطريق، يضعف إحساسي بمرور الوقت، تتداخل في ذاكرتي الملامح، وتبدو قسمات لناس ظننت أنني نسيتهم، يفد عليَّ كل ما لا يوجد، أزداد انحناء على نفسي حتى لأكاد أتقوس، أدرك أنني بعيد، بعيد جدًا عني.

وَصْــل الجســور

الثــلاثـــــاء:

يتوق المصريون في الخارج إلى التواصل مع الوطن الأم، خاصة الجيل الأول، يعيشون أدق التفاصيل من خلال الإنترنت، والإلمام بالصحف من مواقعها الإلكترونية، والتواصل مع أنواع الطعام المصرية، واستعادة الذكريات، والتوق إلى تقديم شيء ما، في جميع اللقاءات التي حضرتها في نيويورك كانت الهموم مصرية، والمناقشات حول ما يجري في مصر، في الولايات المتحدة، في أوروبا، في أستراليا، في آسيا، أدباء مصريون يكتبون بالعربية، يعالجون موضوعات جديدة، يتوقون إلى النشر في مصر، والحضور الأدبي في مصر.

من يهتم بالمصريين في مهاجرهم الجديدة؟

باستثناء جهود فردية من دبلوماسيين مصريين نشيطين، والكنيسة القبطية التي تضع برامج للتواصل مع رعاياها، أساسها ديني فما أكثر المذاهب المسيحية في الغرب، لكن هذا يؤدي إلى مضمون وطني عميق، باستثناء هذين العنصرين لم أجد جهدًا منظمًا، ولا جهة ذات مرجعية تتبنى وترعى التواصل المفترض.

هل من المعقول أن مدينة نيويورك، إحدى أهم مدن العالم تخلو من مركز ثقافي مصري؟ مركز يقدم الثقافة المصرية، ويكون مركزًا لتواصل المصريين مع الوطن الأم، حدثني العديد من المصريين في نيويورك عن استعدادهم للإسهام في إنشاء هذا المركز، إننا في حاجة إلى إنشاء مركز ثقافي ليس بالمفهوم الحالي الذي تتبع فيه هذه المراكز وزارة التعليم العالي والتي ينحصر دورها

الرئيسي في رعاية ومتابعة الدارسين في الخارج، إننا بحاجة إلى مراكز ثقافية تقدم المضمون الحضاري لمصر، تصل المصريين بالوطن الأم، تعلم أبناء الجيل الثاني اللغة العربية، تنشر دعاية عميقة لآثار مصر ومواقعها السياحية، هذا اقتراح أدعو الدكتور أحمد نظيف إلى تبنيه. ولنبدأ بعواصم العالم الكبرى التي يتواجد فيها مصريون بأعداد كبيرة، نيويورك، لندن، تطوير المركز الثقافي في باريس، أثينا، فيينا، شانغهاي كنقطة هامة في جنوب شرقي آسيا، سيدني بأستراليا، لنبدأ بنيويورك التي يعتبرها البعض عاصمة العالم الثقافية الآن.

من ناحية أخرى خرجت بنتيجة مؤكدة خلال زياراتي الثلاث إلى الولايات المتحدة عبر أحد عشر عامًا، ولكل زيارة ظروفها الخاصة جدًا؛ إننا لانعرف شيئًا عن الولايات المتحدة الأمريكية، لا ثقافيًا ولا اجتماعيًا، وقد يبدو هذا غريبًا بالنسبة لبلد يُعد القوة العظمى الوحيدة الآن، نحن في حاجة إلى معهد متخصص في الدراسات الأمريكية، متخصص في الولايات المتحدة على كافة المستويات، ومن الأفضل أن ينشأ من خلال جهود خاصة، هذا اقتراح أضعه أمام السفير المخضرم عبد الرءوف الريدي ويمكن إنشاء هذا المعهد من خلال المجلس المصري للشئون الخارجية الذي يرأسه بتمويل من رجال الأعمال، مركز ثقافي مصري في نيويورك، مركز دراسات متخصص في الولايات المتحدة أو في أمريكا كلها شمالية وجنوبية، أتصور أنهما ضرورة لفهم أدق وعلاقات أسلم، وما أعنيه العلاقات الثقافية بالمعنى العميق والأشمل، والعلاقات السياسية ليست إلا جزءًا منها.

معـــرفـــــة

الخمـــيـــس

سألني الدكتور نائل الشافعي

«إذن .. أنت من جهينة؟»،



أومأت معتزًا. عندئذ استأنف أسئلته.

«هل لك صلة بترة الحاجر.. أو ترة الدقيشية؟»

هنا تطلعت إليه متسائلاً: كيف عرفت هذه الأماكن؟. بدأ يشرح لي المشروع الذي أسسه على شبكة الاتصالات الدولية (الإنترنت) دائرة معارف عربية يقوم المستخدمون للشبكة بتأسيسها. بإعدادها عن طريق إرسال المواد التحريرية، وذلك على غرار الموسوعة العالمية «ويبكديا» التي أسسها عالم اتصالات أمريكي شهير كان أستاذًا لنائل في معهد الإم آي تي في بوسطن، وهو أهم معهد اتصالات في العالم. أسرة المشير الجمسي على سبيل المثال أرسلت ملفًا كاملاً عن عميدها. سعدت بما قاله لي الدكتور نائل إن أنشط المشاركين من صعيد مصر. وبالتحديد من جهينة. تطابق هذا مع ما لاحظته خلال ترددي على جنوب الصعيد الأقصى، انتشار الإنترنت بسرعة كبيرة، مدينة الأقصر الآن مغطاة بالكامل. أي لا يحتاج فيها الإنسان إلى وصلة عبر الهاتف أو اشتراك في الشبكة السريعة. لقد عشنا تطورات حادة في حياتنا، في طفولتي كان هاتف واحد في دوار العمدة، وكان وصول تلغراف يثير الخشية والتوجس وقد يعلو الصراخ قبل قراءته، كانت العفاريت تأوي إلى قمم النخيل، معروفة بأسمائها، تقطع الطريق على الناس، الآن العالم كله حاضر في أقصى المناطق من خلال الإنترنت والفضائيات، تطور كبير جدي في سنوات قليلة أعتبره نعمة، يوميًا أتابع موسوعة المعرفة وأقرأ الجديد فيها، وأدعو المتمكنين إلى الإضافة.

عاكف أبادير

الأربعاء

رأيته لأول مرة في منزل الدكتور نائل الشافعي، بين مجموعة من الأصدقاء أمضيت يومًا كاملاً في منطقة جميلة بنيوجرسي، عندما تحدث إليَّ لاحظت

أن نطقه بطيء، يتوكأ على عصا، متخصص في نجيب محفوظ وترجم بعض أعماله، أبدى رغبته في تحديد موعد خاص، عنده أسئلة عديدة حول الأستاذ ويريد أن يسمع إجابات محددة لأنه بصدد إعداد بحث عنه، علمت من الأصدقاء أنه أصيب بجلطة في المخ وأنه تماثل للشفاء منذ أسابيع، تحدث إليَّ في الهاتف بعد يومين. قال إنه يرغب في تحديد الموعد. قال إنه سيأتي إلى مانهاتن. سألته: كيف؟ قال إنه يقود سيارته، أشفقت عليه، لم أستطع تخيل إنسان في حالته يقود عربة، صحيح أن كل الإمكانيات تسخر هنا لتسهيل الحياة على ذوي الاحتياجات الخاصة، ثمة ممرات خاصة لصعودهم أو نزولهم، أماكن في المواصلات العامة، تجهيزات لتسهيل حركتهم، أماكن انتظار، اقترحت عليه أن أحضر إلى مكان قريب من بيته، وعندما وصف لي المنزل أدركت أن الوصول إليه معقد، أتحرك بحرص في المدينة، في اليوم التالي اتصل بي، سألني عن اللقاء، استفسرت منه عما يريد أن يعرفه عن محفوظ، قال ما لم ينشر، قلت إنني نشرت كل شيء في كتابي «المجالس المحفوظية» وما لم أعلنه في حياة الأستاذ لن أعلنه بعد رحيله، لديَّ نسخة وحيدة يمكنني أن أتركها له. جاء صمته على الطرف الآخر من الهاتف معبرًا عند عدم اقتناعه. بقدر ما شعرت بالاحترام لرغبته إتمام البحث مع ظروف مرضه بقدر ما شعرت بتقاعس عن اللقاء. سافرت عائدًا إلى مصر بدون أن نلتقي، أرسلت إليه الكتاب بالبريد، لكننا لم نجلس، بعد عودتي إلى الوطن بأيام، فتحت البريد الإلكتروني، وجدت رسالة من الصديق الأديب، سباسيلي معممة إلى العديد من الأشخاص ينعي فيها عاكف أبادير الذي صعدت روحه إلى السماوات العُلى. ويصف بدقة الطريق إلى الكنيسة التي سوف يتم الصلاة عليه فيها بناحية بروكلين، وكيفية الوصول إليها، أدركني حزن وشعور عميق بالذنب لأنني لم ألتق بالرجل الذي لم تقعده الإصابة الجسيمة عن العمل والبحث والانتقال، بينما أقعدني عن لقائه الكسل وخشية التيه، أدركني ندم عميق، احتسبت ذلك من أخطائي.



ذات العيون
الخضراء في نيويورك

الثلاثاء

أحد تجليات الدولة المصرية القوية، العريقة في العالم سفاراتها، أقصد مقار البعثات المصرية، خاصة في العواصم الكبرى، في باريس يقع المقر في قلب الحي السادس عشر، في مواجهته قصر عريق، تحفة معمارية، مقر الإقامة للسفير، في نفس الميدان سفارة الولايات المتحدة، لكم تبدو متواضعة بالقياس إلى القصر العريق الذي تشغله السفارة المصرية، كذلك الحال في لندن، وللمقر في لندن واقعة جرت في العشرينيات، كان المبنى مؤجرًا، وعندما أتيحت الفرصة لشرائه أرسل السفير الذي لا أذكر اسمه الآن - خطابات إلى الحكومة المصرية، يطلب فيها اقتناص الفرصة، وكان المبلغ المطلوب خمسة آلاف جنيه إسترليني، غير أن الحكومة المصرية لم تستجب بحجة عدم توافر البند الذي يسمح، عندئذ قرر السفير أن يشتريه من ماله الخاص، وعندما حان وقت مغادرته قرر أن يهدي المبنى إلى الحكومة المصرية، منذ سنوات اكتشفت لوحة في سقف إحدى الغرف لفنان بريطاني مشهور، تم بيعها بستة ملايين جنيه إسترليني، وأخبرني من أثق به، أن هذا المبلغ استخدم في بناء المقر الشامخ لوزارة الخارجية على النيل، خلال ترحالي في عواصم العالم دخلت معظم مقار السفارات، وأيضًا مقار الإقامة، بل إنني في ظروف استثنائية نزلت ضيفًا على أصدقاء أعزاء من السفراء، هذه المقار بعضها من الآثار المسجلة، القصر الذي توجد فيه سفارتنا بروما من التحف التاريخية، وتحيطه غابة، في قلب منطقة بورجيزي الفاخرة، هذا القصر أهدته الدولة الإيطالية إلى مصر

في العشرينيات، كانت العلاقات بين الأسرة العلوية المالكة والدولة الإيطالية قوية، حميمة، المثير أن القصر وملحقاته لم يكن مسجلاً، يبدو أن الإهداء لم يوثق، وخلال سفارة الدبلوماسي المخضرم أحمد أبو الغيط أدرك الموقف، فاتخذ الإجراءات التي تم خلالها تسجيل المبنى، وإلا كان ممكنًا فقده في أي ظرف. هذه المقار التي يَرقى بعضها إلى مستوى معماري رفيع في حاجة إلى توثيق، ليست المباني فقط، لكن ما يوجد بها من تحف نادرة، ولوحات فنية تمثل في حد ذاتها ثروة، وبمناسبة الضجة التي أثيرت حول لوحة «ذات العيون الخضراء» لمحمود سعيد، أقترح على الوزير أحمد أبو الغيط إصدار كتاب لمقتنيات وزارة الخارجية، أن يطبع طباعة فاخرة، مثل الكتاب الذي صدر مؤخرًا عن كلية الفنون الجميلة بالإسكندرية والذي قام بتمويله المهندس محمد سعيد الفارسي، خريج جامعة إسكندرية، ومصمم وباني مدينة جدة الحالية التي تعد من أجمل المدن العربية التي حقق فيها الفارسي توازنًا مدهشًا بين الأصالة والمعاصرة، مقتنيات وزارة الخارجية يمكن أن تكون مجلدًا رائعًا، يسهم في تمويله بعض رجال الأعمال المثقفين مثل نجيب ساويرس ومحمد فريد خميس وأحمد هيكل، وأحمد بهجت، أثق أنه لن يتردد أحدهم في دعم مثل هذا الكتاب الذي يمكن أن يهدى إلى زوار الدولة المصرية، والخارجية خاصة، ويمكن إصداره بعدة لغات، آمل أن يبدأ الوزير أحمد أبو الغيط هذه الخطوة كإبراز لأحد الكنوز الثقافية والفنية المجهولة للمصريين وللعالم.

الخميس / نيويورك

في العدد 746، الصادر بتاريخ 28 أكتوبر الماضي، أثار زميلي طارق الطاهر، أحد أقدر المحررين الثقافيين في الصحافة العربية، على صفحات أخبار الأدب، قضية اختفاء لوحة محمود سعيد «ذات العيون الخضراء» من سفارتنا في واشنطن وظهورها في دبي من خلال صالة المزادات الشهيرة

كريستي، اللوحة معروضة للبيع في المزاد بخمسين ألف دولار، ومنذ نشر الموضوع قامت الدنيا ولم تقعد، وصل الأمر إلى النائب العام، وتم إبلاغ الإنتربول لوقف بيع اللوحة واستردادها.

يوم الخميس قبل الماضي، حل عيد الشكر، أحد الأعياد الرئيسية في الولايات المتحدة، وفيه تبطل حركة البيع والشراء، وله حديث يطول، تخلو شوارع المدينة يوم العيد، تبعث المدن الكبرى الخالية على التأمل، هذا ما كنت مستغرقًا فيه عند توجهي إلى مقر إقامه المندوب الدائم في الأمم المتحدة الصديق ماجد عبد الفتاح، دعاني الرجل للقاء السفير محمد شعبان الذي لم يكن موجودًا في مقر الأمم المتحدة عند وصولي، الدعوة خاصة وحميمة في هذا اليوم الخاص، عندما دخلت إلى الصالة تقدمني السفير ماجد ليتوقف فجأة أمام لوحة من اللوحات القيمة الموزعة على أرجاء البيت، فوجئت أنها اللوحة المفقودة أو التي قيل إنها معروضة في سفارة واسعة بدبي بعد اختفائها من سفارتنا بواشنطن، قال إنه كتب إلى القاهرة، وكل الأطراف تعلم بوجودها هنا، رحت أتطلع إلى ذات العيون الخضراء، نفس الشخصية التي تظهر في معظم لوحات الفنان، الأنثى ذات التضاريس القوية، إفريقية البث، خصبة الأنوثة، إنها خادمته التي رسمها في كل الأوضاع، وهام بتكوين جسدها الذي أوصى إليه بغزير إبداعاته، محمود سعيد هو أحد الفنانين المصريين القلائل الذين لا يشبهون أحدًا، لامرجعية لهم في الغرب، إنه مثل سيف وأدهم وانلي، وعبد الهادي الجزار، معظم الفنانين الآخرين أعمالهم متأثرة بمذاهب أو بفنانين غربيين، محمود سعيد نسق بمفرده، ولو أنه وُجد في باريس خلال نفس الفترة التي عاشها في مصر لأصبح في شهرة موديلياني وجوجان وفان جوخ، طلبت من الصديق السفير ماجد أن أتفحص اللوحة، خاصة ظهرها، على الظهر رقم 449 وهو نفس الرقم الذي أعيرت به من متحف

الفن الحديث إلى وزارة الخارجية، ثم ثلاثة أختام لمتحف الفن الحديث، أما العلامة التي توقفت أمامها طويلاً فملصق محل البراويز، نوع الورق المذهب والحروف التي كانت مستخدمة في الأربعينيات، مكتوب عليها:

«ليون أماراجي

تشغيل براويز ومذهبات

10 شارع البورصة الجديدة

33 سليمان باشا

سجل تجاري 407272»

لا أدعي أنني خبير في اللوحات الحقيقية والمزورة، لكنني خبير بعالم محمود سعيد وتقنياته في الخطوط والألوان، والإحساس به، وبالأختام، وبملصق الخواجة ليون أماراجي، كنت أمام اللوحة الأصلية تمامًا، والتي انتقلت من سفارتنا في واشنطن إلى مقر إقامة المندوب الدائم في الأمم المتحدة، وقت سفارة عبدالفتاح بدوي إلى الأمم المتحدة. ماذا إذن عن ذات العيون الخضراء التي ظهرت في دبي؟ لقد انتشرت ظاهرة تزييف لوحات المشاهير من الفنانين المصريين والذين دخلت أعمالهم السوق العالمية مؤخرًا لجدارتها وتفردها، بعض لوحات محمود سعيد تتجاوز المليون جنيه الآن، كذلك الجزار، وحامد ندا وسيف وأدهم وانلي، إذن اللوحة التي عرضت في دبي مزورة، كان الأمر مفاجأة، وبالنسبة لي كان حدثًا صحفيًا نادرًا، خاصة أن الأمر كله بدأ من أخبار الأدب، طلبت من السفير ماجد عبدالفتاح أن ألتقط له صورًا إلى جوارها، استجاب الرجل مشكورًا وتحمل جهلي بالتصوير وأساليبه، هكذا جاءت الصورة التي تصدرت غلاف أخبار الأدب هذا الأسبوع لتضع حدًا للضجة التي ما تزال أصداؤها تتوالى.

في جامعة كولومبيا

إذا ما ذُكرت جامعة كولومبيا على مسمعي، أو قرأت اسمها، فإن اسم إدوارد سعيد يقترن على الفور بها، اسم يستدعي اسمًا، عرفت إدوارد من خلال نصوصه قبل أن أعرفه شخصيًا، كذلك هو، قرأ روايتي الأولى (الزيني بركات) في مطلع الثمانينيات، تحمس لها وكتب معرفًا بها في أكثر من صحيفة غربية، إضافة إلى محاضراته وندواته والحلقات الثقافية التي أعدها للإذاعة البريطانية، ثم اقترح نشرها في مطبوعات بنجوين الشهيرة وكتب لها المقدمة ورشح المترجم الدكتور فاروق عبد الوهاب مصطفى أستاذ الأدب العربي بجامعة شيكاجو والذي أصبح الآن من أبرز المترجمين القادرين على نقل النصوص الصعبة إلى الإنجليزية، كان لقائي بإدوارد في القاهرة عندما جاءها زائرًا عام تسعة وثمانين، وتعرفت إليه شخصيًا وإلى أسرته وصحبته إلى الأماكن القاهرية التي تشكلت فيها ذكرياته الأولى، وإلى القاهرة القديمة، مازلت أذكر انفعالاته وهو يجوس خلال الأماكن التي عاش فيها نجيب محفوظ واكتشفها أدبيًا وفكريًا، تعددت اللقاءات في أماكن مختلفة، وحصلنا عام سبعة وتسعين على جائزة سلطان العويس معًا، رغم لقائاتنا المتباعدة فقد كان حاضرًا عندي بقوة، بشخصه الدمث الرقيق، بثقافته ورؤيته التي جعلته من أكبر مثقفي القرن العشرين، ومن أصحاب الضمائر الإنسانية والرؤية الفسيحة التي تنحاز للعدل وتتجاوز التعصب، يمكن القول إن إدوارد كان صاحب الصوت المسموع الوحيد والمؤثر والمختلف والمقدر في الغرب عامة والغرب الأمريكي خاصة الذي لا تزال الرؤية العربية والثقافة العربية بعيدة عنه، مبهمة، لم ينفذ إليها إلا اثنان، إدوارد بعلمه

ومواقفه، ونجيب محفوظ بإبداعه، تابعت صراعه مع المرض، تعايشه معه وانتصاره عليه لمدة عشر سنوات، كان سرطان الدم يحاول أن يصرعه، لكن سنوات مرضه كانت من أخصب سنوات حياته في إبداعه الفكري، وأكثرها وضوحًا في موقفه من السلطة الفلسطينية ومثالبها، أذكر أنه عبر المسافة من نيويورك إلى مصر في ذروة مرضه، ليتجه مباشرة من مطار القاهرة إلى جامعة طنطا، ليشارك في مناقشة رسالة دكتوراه تقدم بها هاني حنفي أحد الذين درسوا على يديه في جامعة كولومبيا، بعد وفاته اجتمع مجلس إدارة الجامعة العريقة وقرر إطلاق اسمه على كرسي دراسات الشرق الأوسط، ويشغله الآن الدكتور رشيد الخالدي، كذلك قرر مجلس إدارة الجامعة تخصيص مسكنه للأسرة مدى الحياة، وقد زرت رفيقة عمره في هذا البيت الجميل، والذي ما تزال كتب إدوارد وأوراقه وأقلامه في نفس مواضعها التي تركها فيها، باستمرار كنت أتمنى الاقتراب من حياته الجامعية، أن أزوره في جامعة كولومبيا التي تعد من أعرق جامعات الولايات المتحدة، هأنذا أسعى إلى مبنى الجامعة في نهار بارد، السابعة مساءً، برفقة الدكتور نائل الشافعي خبير الاتصالات، والفنان الشاعر أحمد مرسي، نسعى إلى الجامعة حيث تبدأ محاضراتي في السابعة والنصف، عند الباب يتلقى الدكتور نائل اتصالاً هاتفيًا من ابنه علي الطالب في الكلية، يقول لي الدكتور أسامة الباز والسفير ماجد عبد الفتاح حضرًا إلى القاعة..

بعثــة مقـاتـلــة:

يولي الدكتور أسامة الباز البعد الثقافي في العمل الدبلوماسي اهتمامًا أساسيًا، ويرجع ذلك إلى أفقه الإنساني الفسيح، وإلى ثقافته الرفيعة، لا أذكره إلا كأحد أعضاء الجماعة الثقافية منذ الستينيات، علاقته الوطيدة



العميقة بالدكتور لويس عوض، ويوسف إدريس، ولطفي الخولي ومحمود السعدني وغيرهم. وقد لعب دورًا كبيرًا في حل المشاكل المستعصية أو التي ظهرت فجأة في الحياة الثقافية، مثل مشكلة الحكم الذي صدر بالتفريق بين نصر أبو زيد وزوجته، وقد كتبت عن الدكتور أسامة من بعيد، وأكاد أثق أن الكتابة عنه من قريب صعبة، وإن كانت المشاعر التي لا تحدها مدة ولايحصرها مكان تجاهه عميقة.

السفير ماجد عبد الفتاح، فهو سفير من ألمع الدبلوماسيين، غزير المصرية، عرفته خلال فترة عمله مديرًا لمكتب المعلومات برئاسة الجمهورية، شغل موقعه لمدة خمس سنوات، واقترب كثيرًا من الرئيس مبارك، وأعتقد أن هذه السنوات كانت من أغزر سنوات خدمته، ولديه تفاصيل إنسانية عديدة من خلال تعامله اليومي مع الرئيس، آمل أن يخرجها يومًا في كتاب، إنه رجل قوي الحضور، لا يحب الأضواء، يعمل بكثافة شديدة، وأسميه بيني وبين نفسي، الدبلوماسي المقاتل. القتال في الأمم المتحدة يكون من أجل قرار لصالح مصر، أو ترشيح شخصية مصرية لموقع دولي، إضافة إلى القنوات الأخرى العديدة التي آمل أن ألقي الأضواء عليها خلال اقترابي منه، عندما علمت بوجود الصديقين الكبيرين تأثرت وانتابني إحساس بالاعتزاز، سوف أتجاوز البعد الشخصي والثقافي إلى ما يمثله حضورهما من تقدير رموز الدولة للمثقفين والمبدعين.

كان حضور مريم سعيد من بواعث تأثري أيضًا، وقد بدأت المحاضرة بتحيتها وتحية ذكرى إدوارد وإهداء كل كلمة أنطق بها إلى روحه، من الأساتذة الذين حضروا من خارج الجامعة البروفيسور بيير كيكيا أستاذ الأدب العربي في إكسفورد سابقًا، وقد تقاعد الآن وله دراسات مهمة في الشعر العربي، بدأ علي نائل الشافعي رئيس النادي العربي والطالب

النشط بالجامعة بافتتاح الندوة. ثم قدم صديقي القديم الدكتور محسن الموسوي قراءة نقدية لأعمالي، وهو يشغل الآن منصب أستاذ الأدب العربي بجامعة كولومبيا، أما الأديب الموهوب حسام فخر فقد كان صوتي لمدة ثلاث ساعات، في المحاضرات التي أتطرق فيها إلى أفكار دقيقة، أفضل التحدث بالعربية، حسام من أقدر المترجمين، إنه الآن رئيس قسم الترجمة الفورية بالأمم المتحدة لكافة اللغات، وبيننا حوار مستمر، فإلى جانب دقته هو عليم بأفكاري الأساسية، والتماهي بيننا مثالي، ثم هناك بعد شخصي حميم، فهو ابن الصديق الأعز اللواء أحمد فخر، وابن شقيقة صلاح جاهين.

طريـــق الحريـــــر:

شاءت الظروف أن أحاضر خلال شهر واحد في ثلاث مدن من العالم، خلال زيارتي لها أكملت دورة كاملة حول الكوكب الأرضي، الأولى خلال زيارتي للصين وقد ألقيت محاضرتين طويلتين، الأولى في أكاديمية العلوم الاجتماعية، والأخرى بجامعة بكين، والثالثة في معهد القوميات، عدت إلى القاهرة لأقضي أربعة أيام فقط، طرت بعدها إلى فينسيا، لأفتتح النشاط الثقافي المصاحب لمعرض فينسيا والعالم الإسلامي، وقد شاهدت هذا المعرض كزائر في نيويورك خلال مايو الماضي بمتحف المتروبوليتان. ثم قدر لي أن ألقي المحاضرة الافتتاحية عن التأثيرات المعمارية العربية في فينسيا، فكأنني قطعت طريق الحرير كله الذي كان يبدأ من الصين وينتهي في البندقية (فينسيا)، غير أن الرحلة في الماضي كانت تستغرق حوالي ستة شهور، الآن تتم في حوالي سبع عشرة ساعة من الطيران مع التوقف في القاهرة، أو أقل من ذلك بساعتين، إذا تمت مباشرة، لقد أمضى ابن بطوطة الرحالة الشهير حوالي عشرين عامًا ليقطع هذه المسافة، بالطبع كان يتوقف

في المدن وأحيانًا يتزوج ويعمل بالتدريس، أسأل نفسي: من رأى أكثر؟ الذين قطعوا الطريق بواسطة القوافل في شهور أم أمثالي الذين يصلون من الصين إلى أوروبا أو العكس في ساعات معدودات الآن؟ بالتأكيد الذين قطعوه على الأقدام شاهدوا أكثر، وعاينوا أعمق، ورأوا أشمل، إن إلغاء حاجز المكان بالمواصلات الحديثة يلغي أيضًا جزءًا هامًّا من الخبرة الإنسانية.

الثـــوابـــــت:

خلال المحاضرات التي ألقيها أفضل الاتصال المباشر بالمستمعين، القراءة من الورق تقيم حاجزًا، إنني أعد نفسي جيدًا من الداخل، في الساعات التي تسبق المحاضرة أفضل الجلوس وحيدًا، لا أرد على الاتصالات الهاتفية، وقبل الموعد بثلاث ساعات أنشغل بموضوع بعيد تمامًا، أتابع التليفزيون، أقرأ صحفًا، أو جزءًا من كتاب لا صلة له بما سوف أتحدث فيه.

خلال محاضرتي في كولومبيا، ركزت على عدة نقاط، أهمها رؤيتي للأدب من خلال تجربتي الخاصة، وفكرة الخصوصية الثقافية وضرورة احترامها، وهذه فكرة أساسية، في مواجهة ما يتم الترويج له من صراع الثقافات، في رأيي أن الثقافات تتفاعل ولا تتصارع، وثراء الإنسانية في تنوع ثقافاتها وليس في تشييد نمط ثقافي واحد، ركزت أيضًا على الخصوصية الثقافية لمصر، كل فكرة من هذه الثوابت تحتاج إلى يوميات كاملة، أتمنى أن يمتد الأجل حتى أتعرض لها بالتفصيل.

عبر المحيط

الأربعاء

تقلع طائرة مصر للطيران إلى نيويورك يوميًا في العاشرة صباحًا من القاهرة، رحلة مباشرة تستغرق حوالي اثنتي عشرة ساعة، تصل إلى نيويورك في الثانية والنصف ظهرًا، يمنحنا هذا إحساسًا بقصر الرحلة وكثافة الوقت نتيجة فارق التوقيت الذي يبلغ سبع ساعات، أعرف طراز الطائرة، بوينج 777، طائرة جبارة ذات محركين، أطلقت مصر للطيران أسماء مصرية قديمة، سافرت على (تاي) اسم الملكة الأم لأخناتون، إلى بكين وإلى نيويورك، أي أنني درت حول الكوكب خلالها، لا أدري اسم طائرة اليوم لكنها تهمني أكثر من الطائرات التي سافرت فيها خلال عمري كله، بخيالي سوف أتتبع المسار، أعتبر الخروج من مصر قد بدأ، ليس عند الإقلاع ولكن عند عبور حد البر فوق الإسكندرية، هنا أشعر أن السفر قد بدأ بالفعل، والعكس عند العودة، ساعة من الطيران وتظهر صخور جزيرة كريت، ثلاث ساعات وتحاذي الطائرة مدينة روما، عبور الألب وقممه الشاهقة يعني الاقتراب من فرنسا، في الثانية والنصف ظهرًا تبدأ الطائرة عبور المحيط الأعظم، لسبع ساعات ستحلق فوق الماء الممتد، لعبور الأطلنطي تكتيك خاص يتقنه طيارو مصر للطيران المهرة، في كل أسفاري خلال السنوات الأخيرة أفضل السفر معهم، يكفي الانضباط في المواعيد الذي حققه الفريق أحمد شفيق وزير الطيران، أيضًا تحسن الخدمة الملحوظ، طائرة مصر للطيران إلى نيويورك تعني بالنسبة لي خصوصية عميقة منذ عامين، منذ أن بدأ محمد ابني عمله هناك، لكن منذ اليوم الأربعاء ستعني لي خصوصية أدق، تمامًا

كما كان قطار الثامنة، رقم 980، بالنسبة لأبي، كان إذ يذكره أو يمضي إلى المحطة يتدفق ساريًا بالحنين إلى جهينة، كان يحفظ جميع المحطات التي يقف عليها القطار، عاش نصف قرن في القاهرة وحلم العودة إلى القرية المنبع يراوده، أحفظ مسار الطائرة، أستعيد معلومات الرحلة من الشاشة الصغيرة للحاسب الآلي، الارتفاع، السرعة، درجة الحرارة، لقد حلقت كثيرًا وركبت جميع أنواع الطائرات المدنية والعسكرية، لكن لطائرة مصر للطيران المتجهة اليوم إلى نيويورك مكانة خاصة، خاصة.

اليوم بدءًا من التاسعة ليلاً سوف أجلس أمام الحاسب الآلي، سأكتب الحروف التي تشكل اسم مطار فيتزجرالد جون كيندي، سأبحث عن جدول الطائرات، خاصة التي تتجه إليه، مواعيد هبوطها، وصولها، لن يستريح قلبي ولن يهدأ أمري حتى أروي الكلمة الدالة على الهبوط، ملامسة الأرض بسلام، ذلك أن طائرة اليوم تحمل روحي وجزءًا غير هين من كينونتي، ابنتي ماجدة التي تصحب زوجها لتبدأ حياتها معه هناك، لهما السلامة..

على حدود القطب الشمالي

بصراحة كنت قلقًا، المسافة طويلة، طيران حوالي ثلاث عشرة ساعة مباشر، اعتدت السفر خلال السنوات الأخيرة منذ أن استقر ابني في نيويورك وتلته ابنتي ماجدة، أن أسافر لزيارتهما على متن مصر للطيران، حيث أجد الألفة والبسمة، وأحتاط للمفاجآت، أقول لنفسي، لو أدركني نصب أو إرهاق فسأجد من أتفاهم معه رغم علمي أن قوانين الطيران واحدة، هذه المرة لا أسافر في إجازة، إنما بدعوة من جهتين، مركز كينيدي الثقافي في واشنطن للمشاركة في الأيام الثقافية العربية التي تستمر لأسبوعين، حدث يعد الأول من نوعه في إطار العلاقات الثقافية والسياسية بين العالم العربي والولايات

المتحدة، الدعوة الثانية من مركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة بيركلي والذي يرأسه معماري مصري حقق مكانة علمية مرموقة في العالم وهو الدكتور نزار الصياد. مركز كيندي حدد المسار، أي جهة رسمية أو شبه رسمية في الولايات المتحدة ملزمة باستخدام الشركات الأمريكية عند سفر موظفيها أو دعوة ضيوفها، وهذا يشبه الوضع الذي كان سائدًا عندنا في الستينيات والذي سخر منه البعض في الزمن التالي مع بداية الانفتاح السعيد، مع ملاحظة أن الولايات المتحدة رأس النظام الرأسمالي في العالم، ولاتأتيها شبهة الشمولية أو الاشتراكية، وإن كانت الأزمة الاقتصادية الأخيرة ستسفر عن متغيرات عميقة ضد كل المفاهيم السابقة، وهذا مما يطول ويعمق الحديث فيه.

الشركة أمريكية، بدأت منذ شهور خط طيران مباشر بين القاهرة ونيويورك، هناك أطير مرة أخرى إلى واشنطن، قبلت على مضض، فى مبنى مطار القاهرة القديم اتجهت إلى القسم المخصص للسفر، والسفر إلى الولايات المتحدة يقتضي إجراءات خاصة، قوبلت بترحاب من الموظفين المصريين العاملين في الشركة، وعند تحديد مكان الجلوس، سألت عما إذا كانت الطائرة مزدحمة، أم نص نص؟ قال الموظف إنها غير مزدحمة، عندئذ طلبت منه أن يغلق المكانين المجاورين لمقعدي، أي أن يظلا خاليين، هكذا يمكن أن أضع كتبي التي أصحبها معي إلى جواري، أن أتحرك بدون أن أزعج أحدًا، ما لم يعجبني أحد من الأسرة، أو صاحب حميم، فإنني أفضل في الرحلات الطويلة الاستغراق في الذات، يزعجني جدًا لو تصادف ركوب أحدهم إلى جواري والإصرار على تبادل الحديث، في مثل هذه الرحلات الطويلة أختار كتبًا عميقة، فلسفية أو علمية، ونصوصًا صوفية، ورواية ليست سهلة، في حقيبة يدي كتاب صادر عن المنظمة العربية للترجمة في بيروت، «المضمر»

دراسة حديثة صادرة في فرنسا عن الكلام الذي تضمنه أحاديثنا ولاننطقه، و«المواقف والمخاطبات» للنفري، و«البحث عن الزمن الضائع» لمارسيل بروست، و«الفراغ والامتلاء» عن الفن الصيني، وبالطبع ديوان الحماسة لأبي تمام، ومجلد من ألف ليلة وليلة، وبالطبع القرآن الكريم الذي أصحب منه طبعة قديمة جميلة صادرة في تركيا، ويمكن وضعها في الجيب.

أعرف أنني لن أقرأ هذا كله، ولكنني لا أشعر بالأمان والهدوء إلا إذا صحبت هذا العدد من الكتب، حتى إذا حدثت معجزة وتمكنت من استيعاب هذه الكتب، لا أجد نفسي وحيدًا بدون رفقة، أكثر ما يقلقلني أن أجد نفسي بدون كتاب أقرؤه، أو ورق أبيض وأقلام اعتدت الكتابة بها.

الطائرة من طراز قديم، صفان من المقاعد، كل صف من ثلاثة، جلست إلى جوار النافذة لأرقب لحظة الإقلاع ومفارقة ثرى الوطن، موعد الإقلاع مناسب، الثانية عشرة ظهرًا، سيمتد النهار حتى الواحدة صباحًا عند وصولي نيويورك، محطتي الأولى، فارق التوقيت الآن سبع ساعات.

المســـار

أتذكر آخر رحلة إلى نيويورك لزيارة الأبناء، لم يتركني طاقم ضيافة مصر للطيران، كانت إلى جواري سيدة أمريكية مبهورة برحلتها إلى الأقصر، مشغولة بالملكة نفرتيتي، وطوال الرحلة تسألني عن بعض ما يتعلق بها وتدون ما أقوله باهتمام، لاحظت أن المضيفتين متقدمتان في العمر، بل إن إحداهما بدت مقطبة، متجهمة، لكنني شيئًا فشيئًا بدأت أكتشف عناصر أمومية في طلتها وعنايتها وطريقة خدمتها. خلال الرحلة ائتنست بها، رغم أننا لم نتبادل حوارًا، ولم أطلب منها شيئًا، فكل نصف ساعة تقريبًا أقوم لأمشي حتى مؤخرة الطائرة، أطلب كوبًا من الماء، في مصر للطيران أطلب

زجاجة كبيرة فيقدمون لي اثنتين، ذلك أن تعليمات الطبيب، الدكتور جلال سعيد تقضي بالحركة على فترات متقاربة، ثم شرب الماء بانتظام، والنوم إذا أمكن، المضيف الأمريكي لم يقتنع بطلبي زجاجة ماء كاملة، قال إنني عندما أحتاج ما عليَّ إلا ضغط الزر، ولأن خجلاً قديمًا يستقر عندي فضلت المشي والشرب معًا، في منتصف الطريق فوجئت بالمضيفة الأطول قامة والأصغر سنًّا تقدم إليَّ زجاجة ماء، يبدو أنها أدركت حاجتي إلى ذلك، أومأت إليها شاكرًا.

المسار أعرفه، بعد ساعة تظهر جزيرة كريت، ثم إيطاليا، ثم عبور جبال الألب، خلال الطيران، وفي الطائرات الحديثة المزودة بأجهزة صغيرة للرؤية تعرض عدة قنوات للأفلام والإعلام والمعلومات. أفضل تثبيت الشاشة على خريطة الرحلة والمعلومات المتعلقة بها، أحرص على معرفة موقعي من الكوكب خلال السفر، الطائرات الحديثة لا تتيح الرؤية المفصلة للأرض، لما نمر به، رغم التواجد في مجال معين فإنه يظل غير مدرك لنا إلا بقوة المخيلة، لايتم التوحد به إلا إذا وقع طارئ قد يكون فيه الحد الذي لاوعي معه، مثل هبوط اضطراري مؤلم، أو حادث تقني.

خلال فترة توقف الفيلم المعروض على الشاشة المعلقة أمام المقاعد، لا توجد شاشة خاصة بكل مقعد لقدم طراز الطائرة. تبدو الخريطة، لاحظت أن المسار الذي تتخذه الطائرة مغاير لما عهدت، عبرت البحر الأبيض باتجاه تركيا، ثم أوروبا الوسطى، قرأت أسماء مواقع ومدن مررت بها، مثل براتسلاف عاصمة سلوفاكيا، بودابست، بحيرة البالاتون، فيينا، ميونيخ، كل مكان من هذه يرتبط بفترات، بأشخاص، بنوازع، بلقاءات، بمواقف شتى، في الطيران يتحول الوجود إلى أسماء، فقط أسماء، ما إن يظهر أحدها حتى يولى كل اسم موقوت، محدد بمدة ظهوره على الخريطة التي تشير إلى

المرور به، أسندت وجهي إلى النافذة المستديرة مواجهًا الفراغ اللامحدود، لا يعرف من عرفوني، من يقيمون بهذه الأماكن التي لاقيتهم فيها أنني أعبر الفراغ فوقهم بسرعة تقارب الألف كيلو متر في الساعة، حتى لو أحيطوا علمًا فماذا يعني ذلك؟ الأسماء توحي بالعوالم، منها تبدأ، الواقع أسماء، إنها الفكرة الأساسية في رواية «رن»، خلال سفري إلى الصين كنت مشغولاً برؤية الشمس لحظة الشروق، وقفت في الفراغ الذي يلي كابينة القيادة، خرج قائد الطائرة ليتحدث معي، قال إن الطيران صوب الصين مختلف عن عبور الأطلنطي، في الطريق إلى الصين يكون البر قريبًا، لاتزيد المسافة عن أقرب مطار عن ساعة، أما عبور الأطلنطي فيقتضي تكنيكًا خاصًا الهدف منه تحقيق الأمان، لم أسأله التفاصيل، تصادف خلال عودتي في يناير الماضي أن التقيته يقود الطائرة من طراز بوينج 777، عندما ذكرني بنفسه قلت إنني أذكر حوارنا كلمة كلمة وأحتفظ بعنوانه وهاتفه.

ما تزال الطائرة تصعد شمالاً، تجاوزت النرويج إلى بحر الشمال، هذا مسار مختلف، أقرب إلى اليابسة معظم الوقت، نمر قرب أيسلنده، أحفظ عاصمتها، قرأت الاسم «ريكيافيك» في جريدة المساء عام سبعة وستين، استخدمته في قصة قصيرة، تتجه الطائرة إلى ساحل مغطى بالجليد، نحن على حافة القارة القطبية، جرينلاند، نمر فوق مساحات شاسعة مغطاة بالثلوج البيضاء، الساعة الآن الثامنة والربع بتوقيتي القاهري، ما تزال الشمس هنا في منتصف السماء، شمس بعيدة، بادية، لا أعرف ملمسها خارج الطائرة، غير أن هذه الثلوج تنبئ ببرودتها، بثلجيتها، شمس ظهورها يبث البرودة أكثر وأعمق، مجرد صورة ظاهرة شمس تذكرني بالضوء صباح الآحاد في لوحات إدوارد هوبر التي أستحضرها بذاكرتي كثيرًا. مشهد مغاير لما عرفته في رحلاتي السابقة، حيث الطائرات تعبر فوق المحيط،

لست ساعات لايلوح إلا اللون الأزرق للمياه، وليس حضورنا إلا نقطة عابرة على سطح لون العدم، محدقًا في الفراغ أستدعي الحالة التي تلازمني منذ التوجه إلى المطار، شجن محوره ماجدة ابنتي.

مــاجـــي:

لكل سفر مقام، لكل رحيل نغم، بل إنني أحيانًا أكاد أوقن أن لكل حياة مقامًا، ليست الحياة إلا رحيلاً طويلاً بين نقطتين، محطتين، الميلاد والموت، وإذا كانت الرحلة الأساسية لها مقام، فإن كل ارتحال يصاحبه نغم يحدد حال صاحبه، منذ اتجاهي إلى لحظة الإقلاع وماجي (ماجدة) تهيمن عليَّ، أراها أينما وليت وجهي، تطالعني بقسماتها الجميلة، الوديعة، الطيبة، ما أجمل هذه الكلمة التي لا أقدر على تحديد مستوياتها ومضامينها، كلمة تشيع في لغتنا العامية، نقول فلان «طيب» أو فلانة «طيبة» عينا ماجي ابنتي تطلان عليَّ من كل فج، حتى لو أغمضت عيني فإنني أراهما، في سبتمبر الماضي، بالتحديد في السابع عشر منه سافرت لتبدأ حياتها بعيدًا في نيويورك مع زوجها أحمد، صحيح أن الظروف مواتية والحمد لله على كل شيء، لكن عندما تبدأ الحيوات في اتخاذ مساراتها يبدو العادي غير عاديٍّ، وما ألفناه يصير نادرًا، قصيًّا، بعد أن أصبح وجودها يأتيني عبر الهاتف اختلف الأمر، مما خفف الأثقال وجود اتصال مباشر بين القاهرة ونيويورك، تقلع طائرة مصر للطيران في العاشرة صباحًا لتصل نيويورك في الثانية والنصف ظهرًا، أي التاسعة والنصف بتوقيت القاهرة، منذ أن بدأ محمد ابني عمله في نيويورك أحرص على تلبية الدعوات التي تأتيني من الجامعات والمؤسسات الثقافية المختلفة وقد كنت أعتذر طوال السنوات الماضية لبعد المسافة ولأنني لم أكن أعرف الولايات المتحدة جيدًا خاصة

نيويورك التي تعد بحق حالة فريدة بين المدن، إذ يمكن أن يجد كل إنسان شيئًا من المدن والأماكن التي نشأ فيها هناك قبل مجيئه إلى هنا، بالطبع لايولد الشعور بالألفة فجأة، إنما يقتضي الأمر وقتًا، أحرص على زيارة محمد مرة على الأقل كل عام، وبعد استقرار ماجي أصبحت الزيارة زيارتين، أمضيت ثلاثة أسابيع عند الانتقال من العام الماضي إلى الحالي، البرد وعر، غير أن الأيام كانت دافئة بالمشاعر، خاصة مع اكتمال الأسرة، دائمًا تقول ماجي «نحن الأربعة»، الآن تقول «نحن الخمسة»، لقد عرفت لحظات عديدة من الوداع. ما زال بعضها يهيمن عليَّ، مثل أول سفر لي كموظف في أوائل الستينيات، عندما حرص أبي على مصاحبتي إلى محطة مصر، حتى جلوسي في القطار، ما زلت أرى نظرة الدهشة والحنو في عينيه، كأنه يطالع تبدل الأوقات باستغراب، كأنه يرقب الولد الذي كان يخشى عليه عبور الطريق منفردًا وقد شب وبدأ يسعى بمفرده في البلاد، هذا حالي مع محمد وكذلك مع ماجي، فما أغرب العودة واستعادة الموقف! العودة إلى نفس النقطة في اللحن، تكرار النغم، ما زلت أذكر، غير أن أصعب ما مررت به وداعي لماجي في المطار ظهر السادس عشر من يناير الماضي (الآن مارس من نفس العام).

صحـــراء جـــي إف كينـــدي

ماجي تدير لي ظهرها، أستند إلى السور الذي نطل منه على الطابق التحتي حيث بدأ المسار إلى بوابات الرحيل، الآن أعرف الطريق، بل أحفظ عناوين المتاجر والمطاعم على الجانبين، تلك المؤدية إلى المرحلة ما قبل الأخيرة، عندما ينفصل الأحباء قسرًا كل مسافر لا بد أن يعبر البوابة الإلكترونية

بمفرده، تمامًا كلحظة الميلاد والرحيل، لايأتي إنسان مع آخر، ولايرحل مع آخر أيضًا.

عندما قاربت اجتياز الباب المؤدي إلى الخارج حيث تحول الجدران والحواجز بيني وبينها صحت مناديًا غير عابئ بمن يحيط بي، بمن يتقدمني أو يتأخرني، بمن سيرى في ندائي هذا تجاوزًا للمألوف.

«ماجي..»

توقفت، التفتت، لوحت بيدها، لوحت بيدي على امتدادها مستديرًا إلى الجهة المؤدية إلى البوابة حتى لا تعود مرة أخرى ويمر بي ذلك الألم الذي يصدر عن ألمها. أصرت أن تصحبني إلى المطار رغم إلحاحي على بقائها، أن نودع بعضنا البعض أمام البيت، غير أنها أصرت، كنت أفكر في عودتها، في انفرادها، لكم سيبدو الطريق موحشًا، بعد إتمام إجراءات التسجيل وشحن الحقيبة! صحبتها إلى أحد المقاهي، حرصت على الإيغال في الحكي، إيراد تفاصيل عديدة، هذا شأني عندما أريد الالتفاف على لحظة حرجة أو تجاهل موضوع حساس، دقيق، قديمًا قالت لي صاحبة حميمة: أنت تتكلم حتى لا تتكلم..

من أجل ماجي قبلت مشاركتها وجبة سريعة وهذا نوع من الطعام لا أقربه ولا أفضله، رحت أذكرها بذلك ضاحكًا، تعمدت تكرار تاريخ مجيئي القريب، الخامس من مارس أبدأ سفري - رحلتي تلك التي أدونها - أي بعد شهر ونصف، تطلعت قلقًا إلى الساعة، كان الوقت الحرج يقترب، ما زال أمامي عبور بوابات التفتيش الإلكترونية، خلع الأحذية وإخراج المحتويات المعدنية، اعتدت ذلك، حتى لحظة الشروع في افتراقنا كان كل شيء يبدو عاديًا، إلى أن مددت يدي لمصافحتها واليد الأخرى لتلمس كتفها تمهيدًا لميلي

مقبلاً رأسها، فوجئت بها تنحني على يدي دامعة، تقبل يدي، تقول إنها طوعي، إنها تحت أقدامنا، إنها تخفض لنا جناح الذل من الرحمة، تتساءل، لماذا السفر؟ لماذا اخترعوا الطائرات؟، كدت أقول لها إن الطائرات هي التي تجيء بنا كما تذهب، لكنني لزمت الصمت، نطقي لم يطاوعني، أي كلمات أمام جيشانها المفاجئ هذا، ضممتها إليَّ واجتهدت ألا يطفر دمعي، رددت أخيرًا عبارات تؤكد ضرورة عودتها قبل حلول الليل، عندما استدارت وقفت أتابعها، لم أعرف خطى متثاقلة، وحيدة كتلك، لم أعد أعرف، لم أعد أرى إلا هي، تحولت ساحة المطار المزدحمة بالمسافرين من كل جنس وإلى كل جهة، بالأمن الظاهر والخفي، بالأدلة والموظفين وعمال النظافة والبائعين، تحولت الساحة إلى صحراء، إلى خلاء تعبره ماجي، ماجي التي كنا نخشى نزولها إلى الطريق بمفردها تحت البيت في حلوان ثم المعادي، صحيح أنها عاشت سنة بمفردها في لندن، ومن قبل في باريس شهرين، لكن هذا كله كان مؤقتًا، مراحل دراسة وتعود، الآن هي تبدأ حياة جديدة في مكان بعيد، مغاير، أعرف حالها، فليس سهلاً أن يغادر الإنسان ما اعتاد عليه مهما كانت مباهج الحياة الجديدة.

ماجي..

ستظل صيحتي تلك من أغرب ما أقدمت عليه، ليس في أسفاري فقط، إنما في مسار عمري، صيحة بعثت بها روحي.

أستعيدها في سفري هذا أثناء تحليق الطائرة فوق أطراف القارة القطبية، فوق تلك الثلوج البيضاء، ربما انطلاقًا من استعادتي لموقف الوداع هذا. هيمنت ماجي على الرحلة كلها منذ اتجاهي إلى المطار حتى إقلاع الطائرة الأمريكية متخذة هذا المسار.

ليــــلًا:

تتوالى أسماء البلاد والمدن، سرعة الوسائل حجمت المكان، إنني أعبر أسماء وأحيانًا ما أرى مشاهد لقرى ومدن وطرق كلها تتشابه من أعلى، أيهما الأغزر فائدة؟ ذلك الزمن الذي كان السفر فيه بقوة الرياح، أو على الدواب، أو مشيًا، خلال الترحال القديم كان الوقوف على المعالم والتفاصيل أدق وبالتالي كانت المعرفة أكثر، غير أن تقدم الوسائل يسهم في التكرار، بمعنى أنني لو رحلت إلى بكين في القرون الوسطى، في الأغلب الأعم لن يتم ذلك إلا مرة واحدة قد تستغرق أعوامًا كما جرى مع ابن بطوطة، الآن يمكن التردد على بكين عدة مرات في فترة قصيرة، لكن من يعرف أكثر؟ مسافر الماضي أم مسافر العصر الحديث؟

بعد عبور جرينلاند تقترب الطائرة من كندا، هذا المسار قطعته طائرة مصرية ركبتها عام تسعة وثمانين من القرن الماضي عندما سافرت برفقة ماجدة زوجتي إلى المكسيك عن طريق نيويورك.

السادسة تقريبًا وصلت الطائرة، لن أنسى من طاقم الضيافة وجه السيدة العجوز التي كانت تخدم بحنو، كانت مصدر راحة بحركتها المتمهلة وماتبديه من عناية، الأنثى هي الأنثى مهما كان العمر والمظهر، منبع وإثارة ودفء للكافة، للجماد والإنسان أيضًا.

عندما هاتفتني ماجي قبل سفري طلبت منها ألا تأتي إلى المطار، قلت لها إنها لن تدخل، ولن أخرج، للشركة الأمريكية التي أسافر عليها مبنى مستقل، سيتم تغيير مساري داخله، أما محمد فلم أكن لأطلب منه، أو أوافق على اقتراحه أصلاً، فعمله الشاق يقتضي منه جهدًا غير هيِّن في الأمم المتحدة.

كما توقعت، اجتزت مكتب الجـوازات إلى صالة الخطوط الداخلية مباشرة حيث أستقل الطائرة المتجهة إلى واشنطن، مسافة قصيرة لن تستغرق إلا حوالي ساعة، لكن، مضطر إلى الانتظار ثلاث ساعات حيث تقلع في العاشرة والنصف، أي في الرابعة والنصف بالتوقيت القاهري، أي أنني سأكمل حوالي عشرين ساعة في الطريق حتى أصل إلى الفندق لأغمض عينيَّ وألتمس النوم.

مثل كل مدينة إداريــة، تبدو واشنطن شديدة الإحكام في التخطيط، واضحة، أقرب إلى المعسكر، فمنزل القائد يمثل المركز إلى جواره وزارة الخزانة حيث المال، وعلى نفس الخط من الناحية الأخرى مبنى الحرب، البنتاجون بأضلاعه الشهيرة ومبانيه المتعاقبة، الكابيتول في مواجهته المكتبة الشهيرة العريقة والتي أمضيت فيها يومًا كاملاً خلال زيارتي الأولى العام الثالث من هذا القرن، عندما جئت للمشاركة في ندوة أقيمت بمناسبة تقاعد الروائي الفلسطيني عليم بركات الأستاذ بجامعة جورج تاون، وفي القاعة الرئيسية لقسم الشرق الأوسط دهشت عندما رأيت مجلدات مجلة الهلال كاملة في الصالة الرئيسية، ومجلة «التطور» التي أصدرها في العشرينيات شبلي شميل اللبناني وكانت تروج لمذهب داروين، تعتبر مكتبة الكونجرس ذاكرة العالم، المعروض في القاعات ليس إلا عينات مما يعتبرونه ثمينًا، أما الكتب الموجودة في المخازن، والمعروضة الآن رقميًا من خلال الإنترنت فتشمل كافة الثقافات، إلى جوار الكونجرس ومطبعة الدولة التي تنتج الدولار. تتوالى سلسلة من أهم متاحف الولايات المتحدة لم أر منها إلا متحف الفن الحديث، كل متحف يحتاج إلى أسبوع كامل ولم تكن زيارتي طويلة في المرتين اللتين أتيح لي فيهما التردد على واشنطن، يهيمن على هذا كله مسلة مصرية، شاهقة الارتفاع، بيضاء اللون، في الليل يلمع عند قمتها ضوء أحمر

كإشارة تحذير للطائرات، المسلة مبنية حديثًا، وسمعت من يقول إن داخلها مصعدًا، لم أتأكد من ذلك، إنها تعتبر مركز المدينة واعتمدها المخطط كمنطلق للشوارع الرئيسية التي تطل عليها البنايات الضخمة لمؤسسات الدولة الفيدرالية ومعاهد الأبحاث التابعة لها، وبالطبع جامعة جورج تاون، ثمة جسر يؤدي إلى ولاية فرجينيا، أطلقت عليه كوبري الجلاء، لأنه يؤدي إلى الولاية التي تعتبر بداية الجنوب، أي الصعيد الأمريكي، بالطبع كنت أتطلع إلى المسلة بين الحين والحين، من كافة رموز الحضارة الإنسانية اختاروا هنا المسلة المصرية ليغرسوه في وسط العاصمة الاتحادية كأنها علم يرفرف فوق الجميع، وكان ذلك مصدر زهو خافت ينبض بين الحين والحين.

واشـــنطن صبـــاحًا

الإثــــنـــيـــن

نخرج من الفندق قاصدين منطقة المتاحف. بصحبة الشاعر المغربي محمد بنيس، وفيروز التميمي مديرة الصندوق العربي للثقافة بعمان والذي أسسه غسان سلامة وزير ثقافة لبنان السابق، نمشي غير مترددين بخريطة أو دليل، فقط أشار لنا حارس البوابة الإفريقي الأصل إلى الاتجاه المؤدي، سوف أكتشف فيما بعد أن المركز الثقافي المصري يقع في بناية جميلة، قديمة وسط الطريق الذي يقع عليه الفندق ولكن عند بدايته، وأرى أن هذا البيت الجميل يجب أن يتحول إلى مركز ثقافي بالفعل تقدم فيه عروض موسيقية وتقام فيه المعارض مثل المركز الثقافي في باريس، ليس من المعقول أن يقتصر على كونه مقرًا للمستشار الثقافي الذي يتبع وزارة التعليم العالي. أي يكون مختصًا بالأمور التعليمية فقط، سوف أكتشف أن الطريق نفسه يُؤدي إلى البيت الأبيض، لكننا عندما خرجنا لم نكن نعرف،

قال صاحبي محمد بنيس الذي أقدره كثيرًا وأتدفق بالكلام عند صحبته أن الرحلة لا تكتمل إلا بالضياع، هذا صحيح، خلال الفقد يتم اكتشاف ما لا نعرف، المهم أن تتاح لنا الفرصة كي نحكي ما جرى لنا خلال الضياع، ها نحن في بداية مارس، شمس مشرقة ويوم دافئ أعقب بردًا قارسًا، المدينة تتأهب للربيع، الكل ينتظر تفتح الورود يابانية الأصل، تضفي على الضوء لونها البنفسجي الخفيف، البعض يجيء من مسافات بعيدة لكي يرى تفتح تلك الزهور، تلوح المسلة، نمضي في اتجاهها، نصل إلى الناحية الخلفية للبيت الأبيض، ثمة حواجز صناعية من الخرسانة تحول دون الوصول إليه خاصة أن الطريق الذي تمر به العربات محاذٍ، تلك أحد آثار غزوة نيويورك، قبل ذلك كان الوصول إلى كافة جوانب البيت الأبيض ممكنًا سيرًا على الأقدام، الآن أصبح ذلك ممكنًا من الجهة الرئيسية فقط، ها نحن نمضي في الشارع الذي تتوالى فيه المتاحف الكبرى، متحف التاريخ الطبيعي، متحف الفن الحديث. وهذا هدفنا، أستأذنت فيروز التميمي في الانصراف هكذا فارقنا وجودها الجميل، اتجهنا إلى مدخل المتحف، جميع المتاحف في واشنطن بلا مقابل عكس متاحف نيويورك، فقط يستوقفنا رجل الأمن الزنجي ليقلب بهدوء محتويات الحقيبة الصغيرة التي أمسك بها وتحتوي على كراسة صغيرة (أجندة) أدون فيها ملاحظاتي وبعض الأوراق غير الهامة، أما جواز السفر والنقود الاستراتيجية فأحتفظ بها في جيب الصديري البلدي الذي أرتديه تحت القميص مباشرة، ثمة موقع بديل للنقود الفكة في جيب الجاكتة، هكذا يكون حالي في السفر، حتى لو كنت متأكدًا من اكتمال أمن المدن التي أنزلها، الغريب ضعيف مهما كان، نعبر إلى الطابق الأول للمتحف في الحادية عشرة صباحًا ونخرج منه في الخامسة والربع، توقفنا أمام لوحات عصر النهضة الإيطالي، ومراحل الانتقال إلى بدايات الفن الحديث،

ثمة لوحات هامة لفان جوخ، تولوز لوتريك، بول سيزان، بيكاسو بالطبع وخوان ميرو وماتيس، لم أكن ملمًّا بمحتويات المتحف، كذلك محمد بنيس، لذلك عرفنا متعة الاكتشاف، كان سروري عظيمًا برؤيتي لوحة «العرس» لبيتر بروجل، وهذا فنان هولندي أحببت أعماله وتعقبتها في المتاحف التي تقتني أعماله، أول ما رأيت من لوحاته الأصلية في متحف الفنون الجميلة المجرى بالعاصمة بودابست، لوحتان، الأولى لصلب المسيح والثانية موعظة ليوحنا المعمدان، ورغم تعدد المجلدات الضخمة التي أقتنيها عن أعماله فلم أجد صورًا للوحة صلب المسيح بالتحديد، وقد رسمها وفقًا لأسلوبه الفريد الذي يصور الحياة اليومية بكل ما فيها من جمال وتشوهات، أكبر مجموعة لبروجل في متحف فيينا، قاعة كبيرة مخصصة له، وتحتوي على أربع عشرة لوحة، بعضها كبير المساحة، ومنها لوحات مشهورة طالعتها في الكتب ولديّ مستنسخات منها، مثل يوم الإفطار بعد انتهاء الصيام الكبير، أمضيت يومًا كاملاً لتأمل هذه اللوحات والاستمتاع برؤية الأصول، مهما بلغت دقة الطباعة فليس مثل الأصل شيء، في الخامسة والنصف خرجنا إلى الشارع مرة أخرى، بدأنا طريق العودة بعد تناول طعام سريع في مقهى يديره أحباش، لاحظت وجود عدد كبير من الإثيوبيين المهاجرين، يعملون في المطاعم، خاصة الفتيات المنتميات إلى القومية الأمهرية، وهن على جانب كبير من الجمال، وبين ملامحهن كنت أرى قبسًا من نفرتيتي التي أكاد أثق من أصولها الإفريقية.

أمــام البيــت الأبيــض:

لم نكن نعرف الطريق بالضبط، غير أننا كنا نمضي في اتجاه الفندق، مشينا في طريق مواز لوزارة الخزانة، إذن، المبنى المجاور هو البيت الأبيض،

تتوالى الأعمدة الرومانية في المباني، الواجهات العريضة، السامقة تذكر بمعابد الإمبراطورية التي وحدت أوروبا، وسيطرت على معظم الشرق الأدنى ومنه مصر التي تحولت بكل عظمتها إلى مجرد ولاية تابعة تزرع القمح لملء سلة روما والأباطرة، مرجعية العمارة في العاصمة الأمريكية عمارة الإمبراطورية الرومانية، يخالطها عمارة دينية، يمكننا أن نلمح رسالة حنين إلى روما ومعابدها وكنائسها وقصورها. خاصة في مباني الدولة الرئيسية، مجلس الشيوخ، مكتبة الكونجرس، بعض الوزارات، أما البيت الأبيض فهو متواضع جدًّا بالقياس إلى ما يجاوره، خاصة مبنى وزارة الخزانة الضخم، المستطيل ويشغل مساحة كبيرة، لمحنا طريقًا مفتوحًا يمر أمام البيت الرئاسي، عبرنا إليه، لم تكن هناك حواجز أو حراسة مدججة، ما لمحناه عربتان تنتميان إلى الشرطة تقفان أمام البيت، عربة أخرى في الجهة المقابلة، الطريق العرضي فسيح، البعض يمارس رياضة الجري أمامه، علمت أن العربات تمر به حتى عام واحد وألفين، توقفت بعد غزوة نيويورك، كنا نرى عربات تعبره، يبدو أن لها صلة بالبيت الرئاسي أو لديها تصريحات خاصة، الأصل في فكرة وجوده بين الناس، أن الحاكم من الشعب، مقامه بينهم، على مقربة منهم، يأتي إلى موقعه بهم، ويغادره طبقًا لأصواتهم، تلك هي الفكرة الأساسية في بناء قصر عابدين في القرن التاسع عشر، ونزول الخديوي إسماعيل من القلعة للإقامة فيه بين الناس بدلاً من موقعه في المكان الذي يشرف على المدينة كلها من علو سامق والذي عاش فيه سلاطين المماليك والولاة العثمانيون قرونًا متوالية، أراد الخديوي نقل التقليد الأوروبي النابع من سيادة الديموقراطية بعد الثورة الفرنسية، بالطبع الفارق كبير بين قصر عابدين الذي يحتل مساحة كبيرة وتحيطه الأسوار وبين البيت الأبيض، أو المنزل رقم عشرة داوننج ستريت، أو قصر

الإليزيه، لكن الفكرة التي دفعت الخديوي هي النزول من القلعة والإقامة بين الناس، كانت خطوة أولى في بلد تحكمه المركزية منذ آلاف السنين، الطريف أن أحد كبار المعلمين الذين يسكنون بجوار القصر اتبع تقليدًا قديمًا عند المصريين، في اليوم الأول لوصول جار جديد يقدم الجيران القدامى صينية طعام على أساس أن الجار القادم لم يدبر أموره بعد، هكذا تصرف المعلم ابن البلد مع الجار الجديد وأرسل الطعام إلى القصر، لكن الجار الجديد لم يكن شخصًا عاديًا، والوصول إليه دونه حواجز ومراحل، قبض الحرس الملكي على المعلم وأودعوه السجن، ولا تذكر المصادر مصيره، وإذا ما كان الخديوي قد علم بالأمر أم لا.

ها نحن أمام البيت الأبيض مباشرة، لم يعترضنا أحد، كان باستطاعتنا العبور والوقوف مباشرة أمام الباب الذي تجمع أمامه بعض السائحين والزوار، لكننا اكتفينا بالوقوف في المواجهة على مقربة من أحد المواطنين الذي يقيم هنا منذ عام سبعة وثمانين وتطلق عليه وسائل الإعلام هنا مجنون البيت الأبيض.

الرجل قريب من الخمسين، يرتدي بنطلون جينز وسترة من الصوف، شعر رأسه غزير، طويل، يربطه على شكل ديل حصان، يقف أمام ما يشبه الكشك الخشبي، داخله فراش، وجهاز حاسب إلكتروني، إلى جواره قائم خشبي عليه عناوين لصحف ومجلات كتبت عنه، قائم آخر كتب عليه شعاراته المناهضة للحرب النووية والمناهضة لسيد البيت الرئاسي، كذلك عنوان موقعه على الإنترنت، كان يفارق مقعده ليحملق تجاه البيت الأبيض خصره بأصابع يديه، بعض الزوار يقفون إلى جواره لالتقاط صورة، أصبح أحد معالم المكان، لم يمنعه أحد ولم يتخذ ضده إجراء، ولأن استيعاب ذلك صعب على أمثالنا، خطر لي أنه ربما يكون جزءًا من التكوين، أي أنه حارس

متخفٍّ أو رجل أمن مستتر، لكن.. لماذا يضطرون إلى ذلك وأحدث وسائل الرقابة متوافرة هنا، في الطريق من المتحف إلى البيت الأبيض مررنا بمبنى ضخم، إنه مبنى المباحث الفيدرالية أو كما يُعرف هنا بالإف بي آي، إنه وزارة الداخلية الفيدرالية، قرأت على المدخل اسم «إدجار هوفر»، تذكرت كتابًا مترجمًا إلى اللغة العربية في الخمسينيات ربما يحكي تاريخ هذا الجهاز البوليسي. كنت نسيت اسم إدجار هوفر هذا تمامًا، جلسنا أمام البيت فوق دكة مواجهة له تمامًا، قلت لصاحبي محمد بنيس إن بعض النوافذ مضاء، والبعض الآخر مطفأ، رحنا معًا نتخيل ما يجري هناك في الداخل، الطابق الأول مخصص للرئيس، به المكتب البيضاوي، لا بد أن الطابق الثاني مخصص لعائلة الرئيس، أشرت إلى نافذة جانبية مضاءة، ربما كان ذلك المطبخ وميشيل زوجته تعد الآن طعام العشاء للأسرة، قال محمد بنيس لا بد أن طباخًا يقوم بذلك، قلت إنهم عائلة بسيطة، وعندما انتقل إلى واشنطن نزل في فندق عادي قبل مراسم التنصيب، كان الليل قد اكتمل تمامًا، وثمة نسمات منعشة بها مس من برودة، طال بنا الحديث، تطرقنا إلى الشعر، إلى صديقنا المشترك الراحل محمود درويش، وتحدثنا عن ملابسات غيابه وتصاريف القدر، ونصوصه العظمى، خاصة «الجدارية» و «في حضرة الغياب»، ثم عدنا لنتحدث عن البيت الأبيض وبساطة الإجراءات الظاهرة للتأمين، وهذه المباني المحيطة وما لم نكن نعرفه عن الولايات المتحدة، وعن التناقض بين الداخل والخارج، بين إنسانية الشعب الأمريكي، وشطط السياسة في بعض أماكن العالم، خاصة الشرق الأوسط، سادنا صمت وكنت أتأمل المباني المجاورة للبيت الأبيض، هل يسكنها أمريكيون عاديون أم أنها مخصصة لبعض الإدارات؟ قررنا استئناف المشي عائدين، مررنا قبل نهاية الساحة المستطيلة بمنزل عليه لافتة «بلير هاوس»، على الفور تذكرت أنه

بيت الضيافة الذي ينزل فيه رؤساء الدول الذين يقصدون البيت الأبيض خلال الزيارات الرسمية، ها هو اسم آخر طالعته في الصحف مرارًا منذ سنوات، ثم غاب عني، وهاأنذا أمامه مباشرة، كنت مرهقًا، متعبًا من المشي طوال اليوم خاصة في المتحف، لكننا أصررنا على الوصول إلى الفندق مشيًا رغم فقدان الطريق، طال بنا الأمر أكثر من ساعتين، كنا نستوقف البعض لنسأله، في إحدى المرات كانت أسرة يمضي أفرادها مسرعين، واضح أنهم يتجهون إلى حفلة ما، مرة أخرى سألنا عامل بناء، وفي جميع الأحوال كنا نلقى معاونة واستجابة، يتوقف من يمضي ليصغي ثم يصف الطريق بقدر ما يعرفه، هذا مقياس هام في المجتمعات التي أنزلها، في بعضها يعتذر المارة بجفوة واضحة أو يعتذرون بدون أن يتوقفوا، هنا في الولايات المتحدة، في المدن التي أتيح لي أن أنزلها، نيويورك، واشنطن، كليفلاند، رأيت مشاهد كثيرة خلال الحياة اليومية أكدت انطباعًا عامًّا عندي بإنسانية المجتمع وطيبة الناس، ربما لأن المجتمع كله قام على الغرباء المهاجرين، أتذكر بيت الشعر الشهير لوالت وايتمان.

«أيها الغريب هناك

لماذا لا تكلمني وأكلمك؟»

هذا الشعور بالغربة يظل باعثًا للتقارب، خاصة في أماكن التجمع، مثل البارات والمقاهي والمطاعم، إنها الغربة التي عبر عنها الفن الأمريكي، خاصة في أعمال هوبر وسيجال، وأشعار والت وايتمان الإنسانية الرائعة.

يبدو مركز كيندي الثقافي للساعي إليه مشيًا على الأقدام كأنه معبد قديم صيغ تصميمه برؤية حداثية، ثمة شيء ذكرني بمعبد أبيدوس، أو الدير البحري، الواجهة الشاهقة، الأعمدة المستقيمة الصريحة لرؤساء أمريكا السابقين، صروح ضخمة في العاصمة واشنطن تضم رفاتهم، جورج

واشنطن، إبراهام لينكولن، ويبدو أن النية كانت متجهة إلى إقامة صرح لجون كيندي بعد اغتياله، إلا أن زوجته رأت ألا تقيم نصبًا صامتًا، إنما مؤسسة حية تذكر به في كل يوم، هذا ما سمعته في واشنطن من أصدقاء أمريكيين، لعله المركز الثقافي الأضخم في الولايات المتحدة، يحتوي على عدة مسارح، أحدها للأوبرا يتسع لألف متفرج، وقاعات مجهزة، ومكتبات ضخمة، في هذا المقر المهيب أقيم مؤتمر الثقافة العربية في مارس الماضي، وتمت دعوة أكثر من ثمانمائة فنان وأديب من العالم العربي كله، المؤتمر أو المهرجان استمر أسبوعين وكان عنوانه «أرابيسك»، وتم التعاون مع مؤسسات أهلية منها «المورد» في مصر، إنه الحدث الأول من نوعه في تاريخ العلاقات العربية الأمريكية، وخلال السنوات الماضية كنت أكتب وأتحدث إلى مسئولين أمريكيين منهم سفراء عملوا في القاهرة عن غياب البعد الثقافي في العلاقات العربية الأمريكية خلال العقود الأخيرة وما ترتب على ذلك من تباعد بين الشعبين، جهل كل منهما للآخر، خاصة أن حركة الترجمة بين الطرفين وهنت خلال العقود الأخيرة، أما الترجمة المخطط لها في الخمسينيات فقد اتسمت بالدعائية رغم أن نصوصًا هامة تخللت هذه البرامج المدعومة أمريكيًّا، أذكر منها سلسلة القصص القصيرة التي كانت تصدر عن دار الكرنك، وبعض إصدارات مؤسسة فرانكلين، ويتصدر ذاكرتي الآن كتاب المعماري فرانك لويد رايت، الآن تعود مشاريع الترجمة بدون خلفية أيديولوجية ربما لاختفاء الحرب الباردة، أما هذا النشاط الذي جئت مشاركًا فيه فلم أعرف له سابقة في تاريخ العلاقات الأمريكية - العربية، نهارًا كانت تعقد الندوات الأدبية، ولاحظت إقبال الجمهور الأمريكي، القاعة التي تتسع لمائتي شخص كانت ممتلئة تقريبًا، مع العلم أن كل فرد كان يدفع خمسة عشر دولارًا ليدخل القاعة ويتابع المناقشات، في المساء كانت تقام

العروض الفنية، جاءت فرق من جميع أنحاء العالم العربي، بالطبع لم يكن ممكنًا متابعتها كلها؛ لأن أيام البرنامج الأدبي كانت محدودة، سبقها وتلتها عروض من المغرب إلى دول الخليج، أتيح لي أن أشاهد ليلة الفنان اللبناني مارسيل خليفة، وقد قدم عزفه في المسرح الكبير الذي كان يغص بالمشاهدين، بطاقات الحفل نفدت قبل أيام، ومارسيل له حضور عالمي قوي، ولولا الدعوات الخاصة التي وجهت إلينا لما أمكن رؤية العرض، نفس الشيء في حدثين آخرين قُدر لي أن أراهما؛ الأول عرض كسارة البندق لفرقة باليه نيويورك، وقد أعد إعدادًا فنيًّا حديثًا، وهذه الفرقة من أشهر فرق العالم، بهرت بالعرض، لقد تحول البشر خلاله إلى حضور لوني وأطياف، لي خبرة طويلة بالألوان، ولعلي لم أر طوال حياتي استخدامًا بارعًا لمكونات الجسد الإنساني كأطياف، في لحظة معينة من الرقص يتحول كل التكوين الجسدي إلى طيف، طيف لوني في مواجهة آخر، أما التشكيل فيقوم بإبراز المضمون، والرسالة الخفية، المبثوثة في العرض. تعتبر نيويورك الآن أهم مركز في العالم للعروض الموسيقية والغنائية، رؤيتي لفرقة الباليه الشهيرة جعلتني أقرر السعي لرؤية عروضها في كل زيارة إلى نيويورك، أما العرض الذي كان مفاجأة لي، فأقول معتذرًا عن تقصيري، إنه كان مصريًّا، لم أعرفه في القاهرة، وقدر لي أن أشهده في واشنطن، وأن أتعرف على فن العبقري، الفريد، الحاج أحمد الجزار.

صاجـات الحـاج أحـمـد

في مسرح الشرفة جلست في الصف الأمامي متأهبًا لرؤية فرقة موسيقية مصرية يقودها المايسترو فتحي سلامة، لم أعرفها رغم شيوع صيتها، ذلك أنني لم أحاول التعرف على الموسيقى الحديثة إلا فيما ندر، لقد تكون

مزاجي واستقر عند الموسيقى العربية الكلاسيكية والموسيقات الغربية منها، التركية والإيرانية، ثم الهندية والصينية، لم أبدأ محاولة الاقتراب من موسيقى الجاز، والبلوز، إلا في العشرين عامًا الأخيرة، لم يكن هناك مكان واحد فارغ في المسرح، انفرج الستار عن الفرقة الضخمة، ثم دخل المايسترو فتحي سلامة، لم يلتفت إلى الصالة، لم ينحنِ محييًا رغم هدير التصفيق الذي قابله، لكل طريقته، بدأ العزف، فوجئت بالمستوى الرفيع للموسيقى وللعازفين خاصة عازفي آلات الإيقاع، أحدهم أذهل القاعة وللأسف غاب عني اسمه، إبداع فتحي سلامة الجميل تلخص في إزالة الحواجز بين الموسيقى الشرقية وموسيقى الجاز، رغم اختلاف الإيقاعات فقد استطاع الوصول إلى صيغة ممتعة امتزج فيها الشرقي بالغربي.

لاحظت رجلاً يجلس في الصف الأخير، المقعد الأول، كان يرتدي جلبابًا بلديًا، وكانت جلسته جلسة ابن بلد بالفعل، يتلفت حوله قليلاً، ثم يتكئ على مقدمة ركبته متطلعًا إلى الأرض، ثم يعتدل.

من هو؟ ولماذا يرتدي بمفرده جلبابًا بلديًا؟ ماذا سيؤدي بالضبط، ظلت تساؤلاتي حائرة، خاصة أنه ظل صامتًا لأكثر من خمس عشرة دقيقة، فجأة حانت لحظته، رفع أصابع يديه وصدحت الصاجات، صاجات نحاسية، قوية الصوت، تنحدر أصولها من الزمن المصري القديم، كانت تصنع من العاج وتستخدم في المعابد خلال الرقصات المقدسة، لم يسبق لي أن رأيت عازفًا منفردًا للصاجات، دائمًا كانت الصاجات مرتبطة بالراقصات الشرقيات، مجرد حلية، ولكن هنا على المسرح، في واشنطن، رأيتها عنصرًا أساسيًا، لأول مرة أرى عزفًا منفردًا (سولو)، بدأ الحاج أحمد من مكانه الذي يجلس فيه، لفت الأسماع والأبصار بقوة، فجأة قام، فارق مكانه، نزل إلى مقدمة المسرح وهو لايكف عن العزف، ارتفع صوت الإيقاع المعدني الصدّاح لعلها

المرة الأولى التي أبحلق فيها بسمعي وبصري كأني طفل مبهور بما أرى وأسمع، ليس العزف المتقن، الجميل، الجديد عليَّ، إنما بحضور الحاج أحمد الأصيل، البديع، وحيويته، عزف في كل اتجاه، الاتجاهات الرئيسية والفرعية، عزف واقفًا ومنحنيًا وراكعًا ونائمًا فوق المسرح ليضرب خشبته بالصاجات الرائعة، بدل الصاجات بمهارة، بسرعة وتغيرت الأصوات، لكن لم تتغير القدرة على الإبهار، أصبحت صاجات العم أحمد بديلاً للفرقة كلها، هل كان لا بد من قطعي هذه المسافة كلها لأسمعك يا حاج أحمد؟ تأثرت جدًّا بأدائه، بحضوره، ولم يحدث أن سمعت تصفيقًا كهذا من قبل، لقد أحدث الحاج أحمد بصاجاته المصرية الأصيلة تأثيرًا عميقًا وممتدًّا يفوق كل ما تقوم به الجامعة العربية في واشنطن!

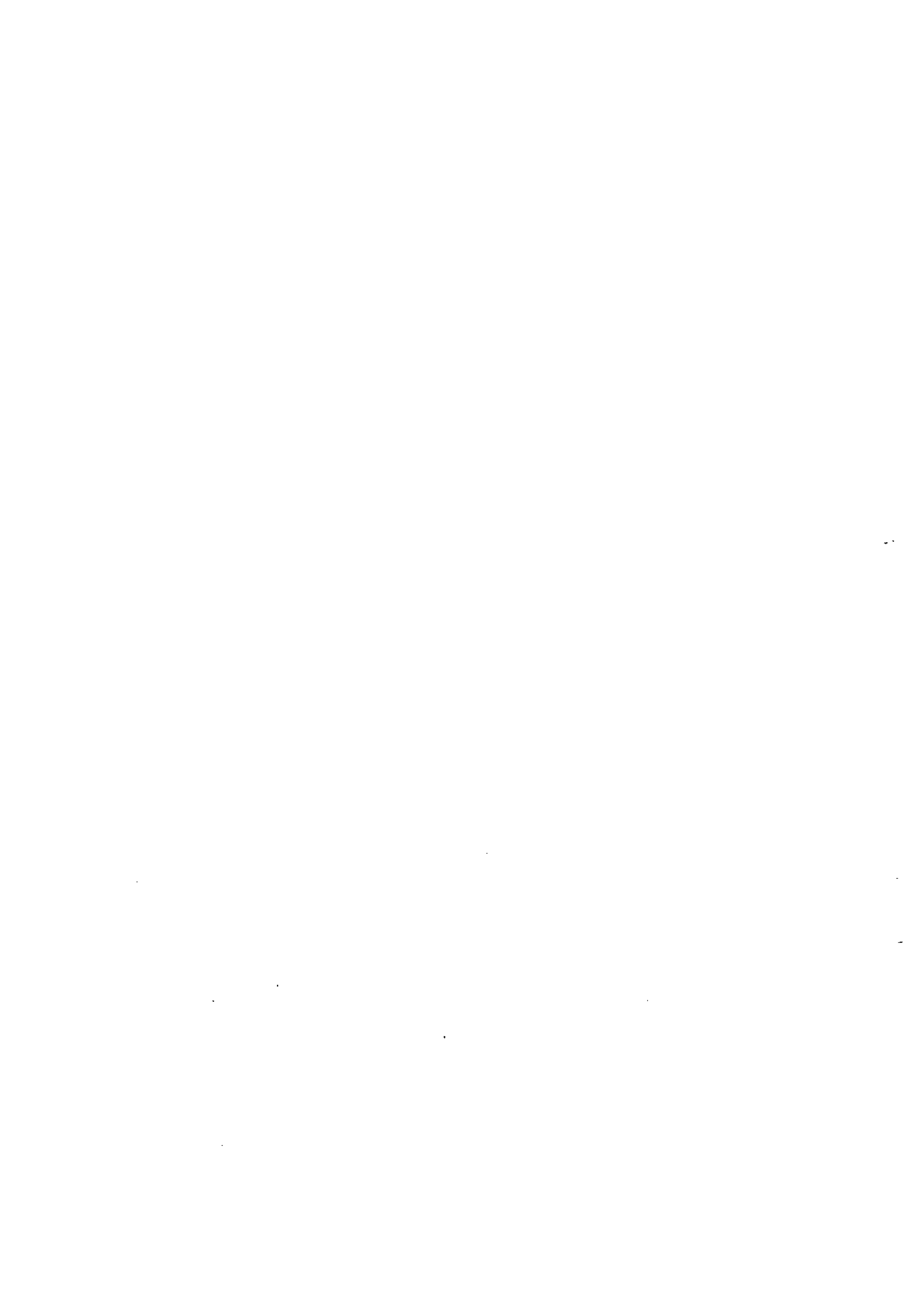
أوبــامــا جذبـــنـــا

الســـبـــت

من الفندق إلى المركز مشيًا، مسيرة حوالي خمس دقائق، بصحبة الشاعر البحريني الرائع قاسم حداد، وبالطبع محمد بنيس الذي لم أفترق عنه طوال أيامنا تلك إلا عند اتجاه كل منا إلى النوم، نمر بالسفارة السعودية المجاورة للمركز، في كل يوم أتأمل بناءها ومعمارها، البناء ضخم جدًّا، لعلها الأكبر من حيث المساحة في واشنطن، العمارة عربية جميلة، وكنت أتأمل العلم الأخضر الذي نقش على العديد من النوافذ، قلت مشيرًا إلى مدخل المركز إن الحركة غير عادية اليوم، عدد عربات الشرطة أكبر، لاحظت رجال الأمن الذين يرتدون ملابس مدنية، بصري لا يخطئهم في أي مكان، قلت إن هذا الحضور ليس بسبب مهرجان أرابيسك بالتأكيد، فمنذ وصولنا لم نلحظ مثله، قال محمد بنيس: ربما سيجئ الرئيس أوباما. لم يخبرنا أحد بذلك، لم أقتنع،

الكثافة الأمنية التي لاحظتها لم تتناسب مع ما تحتفظ به ذاكرتي من مشاهد الحضور الرئاسي التي أعرفها في عالمنا العربي أيًا كان نظام الحكم وقد أتيح لي حضور العديد منها، لم نر إلا ثلاث أو أربع عربات بوليس تشبه تلك الواقفة أمام البيت الأبيض، رجال الشرطة بزيهم الرسمي أكثر مما اعتدناه، الضعف تقريبًا، عندما اجتزنا المدخل بدون أن يعترضنا أحد أكدت لنا بسمة الحسيني مديرة مؤسسة المورد الثقافية الخاصة التي لعبت دورًا مهمًا في الإعداد لتلك الأيام الثقافية العربية غير المسبوقة والأنجح بكثير من المشاركة العربية في معرض فرانكفورت وكذلك في معرض نيويورك الأخير، ويبدو أن الدور الثقافي العربي مرهون بازدياد واتساع الدور الذي تلعبه المؤسسات الخاصة، التجارب التي شهدتها خلال السنوات الأخيرة تؤكد ذلك، وهذا موضوع سأعود إليه مرة أخرى، أكدت بسمة أن الرئيس أوباما سيحضر في المركز الليلة للمشاركة في الاحتفال بعيد ميلاد ادكندي، وهو أحد أفراد أسرة كيندي البارزين، وقطب من أقطاب الحزب الديموقراطي، كانت الصالة التي سنتناول فيها طعام العشاء تقع في الجانب الآخر بالنسبة للمكان الذي سيشهد الاحتفال بعيد الميلاد، توقفنا متطلعين في انتظار قدوم الرئيس، فرصة لكي نرى هذه الشخصية الاستثنائية ليس في تاريخ الولايات المتحدة فقط، إنما في التاريخ الإنساني، لم يكن هناك أي مظاهر غير عادية، تمامًا مثل كل ليلة، الملابس العربية المعروضة فيما يلي المدخل وعبر البهو الرئيسي المستطيل لم تتبدل، ولم تتغير، لم أر أي زهور إضافية أو مظاهر مستحدثة، كل ما في الأمر أن الحضور الأمني غير المعلن تزايد مع اقتراب الساعة السابعة، أحدهم اقترب منا نحن الثلاثة، طلب منا أن نتراجع بضع خطوات بعيدًا عن الممر الذي سيمر به الرئيس متجهًا إلى الناحية الأخرى، كان مهذبًا، حازمًا أيضًا، تبادلنا النظر، الساعة تقترب من السابعة، موعد

اللقاء مع بعض كبار المثقفين والمسئولين في واشنطن، لا نعرف بالضبط متى سيأتي الرئيس، ربما يطول الوقت، اتجهنا إلى الصالة المخصصة للاجتماع والعشاء، وطوال الوقت الذي أمضيناه كان إحساسنا أن أوباما هنا، على بعد خطوات، ربما تكون الفرصة السانحة لرؤيته عن قرب قد ولت إلى الأبد، في اليوم التالي رأيت في التليفزيون لقطة من الحفل الذي حضره، كان يبدو مرحًا إلى جانب السناتور إد كندي، وفي لقطة عابرة رأيته يؤدي رقصة إفريقية بمشاركة الحاضرين لحفل عيد الميلاد.

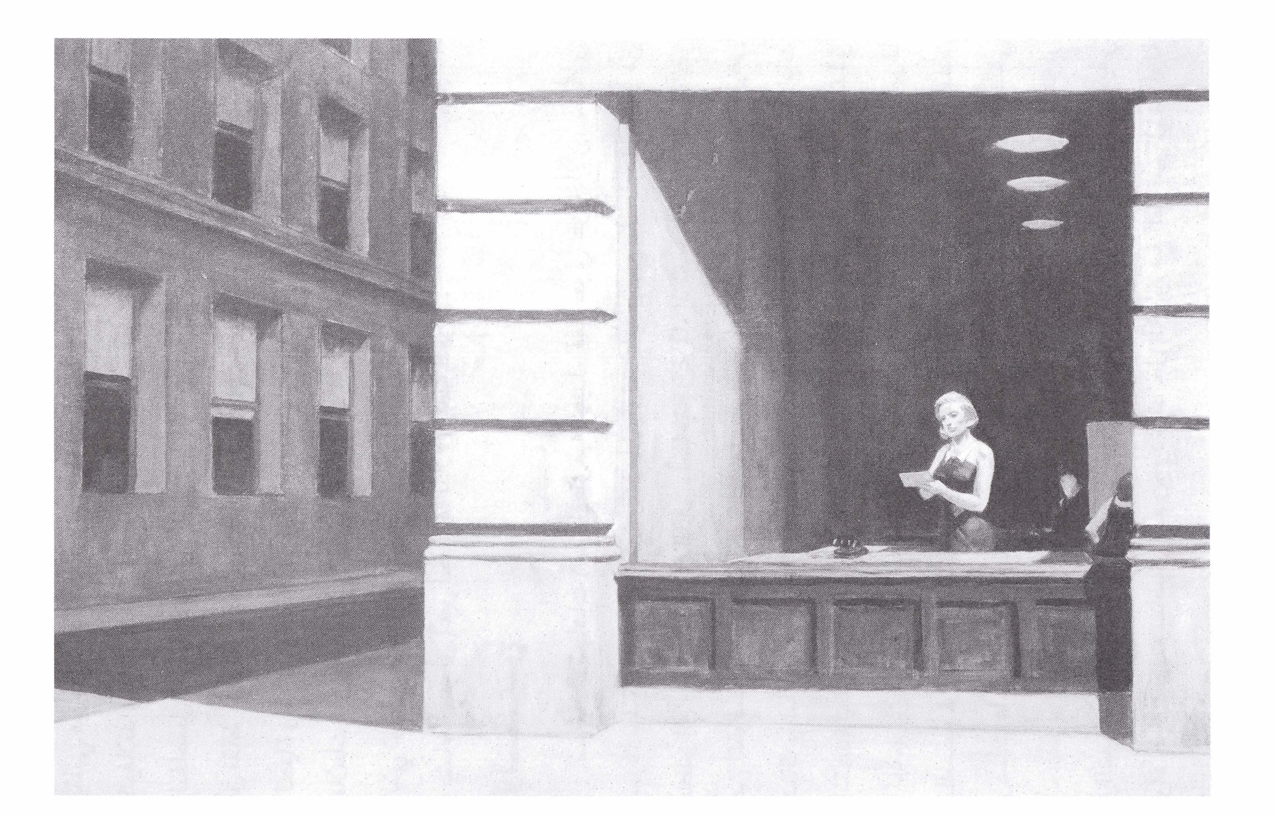


من الشرق إلى الغرب

نيــويــورك صبــاحًا

تتدفق عربات الأجرة الصفراء في شوارع نيويورك، التاكسي النيويوركي الشهير، رغم وجود عربات سوداء أنيقة، فخمة المظهر، خاصة في المطار، فإنني لا أطمئن إلا لهذه العربات التي نشهد هويتها كعربة للأجرة، عدادها واضح، مقنن، لا مجال للمساومة أو الفصال، أعرف الطريق إلى مكان انتظارها في المطار، لا أتبع الواقفين في الصالة يتوجهون إلى الركاب «تاكسي»، تمامًا مثل مطار القاهرة، مرة واحدة تبعت أحدهم عندما أكد لي أن عربة صفراء تنتظر، أي تاكسي نيويوركي كما أعرفه، لكنني عندما وجدته يتقدمني إلى مكان انتظار العربات وينادي على شخص آخر كان يجلس داخل عربة ملاكي، بدأت التراجع على الفور محتجًا بأنني كررت أكثر من مرة وصف التاكسي الأصفر، معظم السائقين على هذه العربات من مصر أو الهند وباكستان، وقليل من الأفارقة، العربة مصممة بحيث يجلس الراكب في الخلف، ثمة حاجز يفصله عن السائق تتخلله فتحة للحديث، محطة للتليفزيون خاصة بالتاكسي تبث إرسالها، إعلانات، برامج خفيفة، خريطة توضح الشوارع وموقع السيارة منها ومن العنوان الذي نقصده، العداد في مواجهة الراكب، يمكن إضافة بقشيش حسب كرم الراكب، لكن لا مجال للمناقشة، المسافة من مطار كيندي إلى مانهاتن معروف مقابلها، خمسة وأربعون دولارًا، مبلغ محدد، مقطوع. في الصباح الباكر، خرجت في الخامسة والنصف، لم أقف منتظرًا، مجرد إشارة توقفت العربة على الفور، أعلى كل سيارة مصباح، إذا كان مضاءً فهذا يعني خلو السيارة، أما إذا

كان مطفأ فتلك علامة على أنه مشغول أو متجه للراحة، طائرة دلتا تقلع إلى سان فرانسيسكو في الثامنة صباحًا، قدرت للمسافة نصف ساعة، أفضل الذهاب مبكرًا تحسبًا لأى طارئ، بمجرد ركوبي السيارة ضغط السائق زرًّا ظهر بعده المبلغ المحدد في خانة الأرقام بالعداد، كنت أستعد لهذه الرحلة التي أقوم بها لأول مرة بعد وصولي من واشنطن قاصدًا جامعة بركلي ملبيًّا دعوة الدكتور نزار الصياد مدير مركز دراسات الشرق الأوسطية، الدكتور نزار متخصص في العمارة، ربط بين العمارة والمجتمع والتطورات السياسية في أبحاثه، يشغل هذا المنصب العلمي الرفيع منذ حوالي ربع قرن، أتمنى أن تترجم مؤلفاته إلى اللغة العربية، إن اسم بيركلي ليس غريبًا عليَّ، في نهاية الستينيات ودعت أصدقاء مقربين كانوا يتجهون إلى جامعة بيركلي للدراسة الطويلة، لعلها المرة الأولى التي سمعت فيها الاسم، ثم تكرس الأمر عندما تعرفت إلى الصديقة سامية محرز التي أعدت رسالتها العلمية لنيل درجة الدكتوراه عن أعمالي، وكان ذلك في مطلع الثمانينيات، وهأنذا أخرج في الصباح الباكر قاصدًا بيركلي للمحاضرة في طلاب الدراسات العليا، أحد الدوافع القوية لهذه الرحلة الطويلة اللقاء بالدكتور نزار نفسه، الدارس للقاهرة القديمة، العارف بدروبها ومسالكها، وقد تجولنا معًا لساعات طويلة وترسخ عندي اليقين بأن لدى كل منا ما يفيد الآخر، إنها المرة الأولى التي أقصد فيها الغرب الأقصى هنا، المسافة تستغرق حوالي سبع ساعات جوًّا، أي ما يعادل عبور المحيط الأطلنطي إلى باريس، باستمرار ثمة مكان أتخذه كمرجعية في الترحال، إما قرأت عنه، وإما أنه ارتبط عندي بحدث تاريخي هام، أو تجربة شخصية، في هذه المرة لم أكن بحاجة إلى مراجعة الذاكرة، ثمة علامة كبرى في حياتي عنوانها كليفلاند، حيث المستشفى الذي أجريت به عملية القلب الدقيقة عام ستة وتسعين وقد دونت تفاصيلها في



كتابي «يوميات القلب المفتوح»، طوال ترحالي داخل الولايات المتحدة أعتبر كليفلاند هي المرجعية، أين أنا منها؟ هل أقترب منها أم أبتعد؟ أستعيد أدق التفاصيل، هكذا الأماكن التي يقدر لنا أن نمر فيها بتجارب عنيفة ومؤلمة، أو نقاط فاصلة في مسيرة أيامنا، في كليفلاند وقفت عند الخط الفاصل بين الحياة والموت، وقد عبرته إلى حين، لذلك يظل هذا المكان ماثلاً في ذاكرتي، من علامات المرجعية التي تخصني، وفي تلك المرحلة لم أرفع عيني عن الخريطة التي توضح المسار، وكان بروز كليفلاند يعني لي الكثير، يعني لي أنا فقط، ويشاء القدر أن أعبر أجواءها ليلاً في رحلة العودة.

الإثـــنـــيـــن

نسبية الاتجاهات أمر أستوعبه جيدًا، فما حولي غربًا الآن، سيكون شرقًا بعد تحرك ما في المكان والزمان يترتب عليه وضع ما، عندما نسافر من مصر إلى أوروبا يدور في الذهن. أننا نتجه غربًا، إذ نصل إلى الشاطئ الآخر من المتوسط ينشأ غرب آخر، إنه ما بعد المحيط، حتى إذا ما لامسنا الأرض هناك ينشأ غرب آخر، الاتجاه غربًا انطلاقًا من الساحل الشرقي للولايات المتحدة يمثل حلقة رئيسية ومثيرة من التاريخ الأمريكي الحديث، بعد تدفق المهاجرين من أوروبا، هذا الغرب الأقصى الذي أقصده الآن يعني شرقًا بالنسبة لمن هم في الصين واليابان، نسبية الاتجاهات عرفتها مبكرًا عندما وصلت عام واحد وستين مع فريق الكشافة إلى بلدة دراو في أسوان، سألني أحدهم عن بلدتي، وهذا سؤال تقليدي للمصريين يتخذونه مفتتحًا للحوار والتعرف، ذكر المكان يستلزم السؤال عن أشخاص ما، بعضهم حقيقي والآخر وهمي، ربما ليس لهم وجود، يتداخل الغائب مع الحاضر في محاولة للتقرب والتعارف.

قبل إقلاع الطائرة بساعة تقريبًا كنت أجلس في مواجهة الباب الذي سيؤدي بي إلى داخلها، تأكدت من رقم الرحلة وأيضًا وجهتها، جلست في صالة شبه فارغة، بدأ توافد الركاب شيئًا فشيئًا قبل نصف ساعة تقريبًا من انطلاق الرحلة، لماذا حرصت على المجيء مبكرًا؟ لماذا جاء هؤلاء الذين لا أعرفهم قبل الموعد مباشرة؟ إنها عدم الثقة المترسخة داخلنا، باستمرار نتوقع خللاً ربما لأن المواعيد لاتحترم، القطار قد لايأتي في موعده، والطريق ربما يكون مغلقًا لموكب، والمسئول سواء كان صغيرًا أو كبيرًا ربما يكون غائبًا لسبب ما غير واضح، غريب أن يترسخ هذا في داخلنا، نحن أبناء البلد الذي وضع الأطر للوقت، سواء كانت أبراجًا للفلك أو تقسيمًا لساعات اليوم الواحد، هذا الشعور بافتقاد الثقة ميراث عصور الانحطاط والتخلف وغلبة القوى الأجنبية المستعمرة.

خلال قراءتي لكتاب عن علم العلامات - السيميائية - صادر في بيروت، أحد الكتب التي أصطحبها معي في تلك الرحلة، وكلها كتب عميقة تستلزم التركيز، عنوانه أسس السيميائية تأليف دانيال تشاندلر، ترجمة طلال وهبة، صادر عن المنظمة العربية للترجمة، يتناول أيقونات العصر الحديث، في الإعلانات، في التليفزيون، في الحياة اليومية بتنوعاتها المختلفة، كنت أرفع عيني عن الصفحات مختلسًا النظر إلى من سيركبون الطائرة معًا، لا نتبادل كلمة واحدة، لا نتبادل حتى النظر، يبدو كل منهم مشغولاً تمامًا، مستغرقًا، مع أننا قد نلقي نهايتنا معًا إذا حدث أمر لا قدر الله، من النادر أن يتبادل المسافرون في الطائرة الحوار مع بعضهم البعض عكس القطارات في بلادنا، وأقول بلادنا لأنني لاحظت انقطاع الاتصال بين البشر في القطارات أيضًا خاصة فائقة السرعة، في تاكسيات مانهاتن الصفراء تجرى الأحاديث مع السائقين بسهولة، ولكم أصغيت إلى حكايات من بنجلاديش وغينيا ومصر

واليمن، لكن هذه ليست صفة عامة. إنما تتوقف على نوعية الراكب والسائق معًا.

في هذه الساعة المبكرة أتأمل الملامح، انغماس كل منهم في شيء ما، تتوالى عليَّ المشاعر المصاحبة لكل رحيل، معظمها مثير للكوامن، والكوامن جلها باعث للشجون، مرة أخرى أستعيد أبيات الشاعر الأمريكي العظيم والت وايتمان.

«أيها الغريب العابر هناك

لماذا لا تكلمني وأكلمك؟».

الثامنــة صبــاحًا عبــور القــارة:

سبع ساعات من الطيران المتصل ربما تعطينا فكرة عن المساحة الهائلة من الشاطئ الشرقي للولايات المتحدة إلى أقصى غربها، يشغل الركاب أقل من نصف المقاعد، انتقلت إلى الصف الأخير حيث يمكنني رؤية الركاب كلهم، المقاعد الخلفية أفضل الأماكن للرصد والمتابعة، طوال حركتي لا أكف عن الملاحظة وتدوين ما يمكنني في الذاكرة، انفردت بمقاعد ثلاثة، فوق أحدها وضعت الكتب، فوق الآخر أجندة أدون فيها ملاحظاتي، أما الأيبود، هذا الاختراع المذهل والذي سأفرد له يوميات كاملة، فقد بدأت الاستماع إليه بمجرد إقلاع الطائرة واتخاذها المسار، هذا الجهاز الصغير الذي يقل حجمًا عن علبة السجائر نسجل عليه ثلاث سنوات ونصفًا من مكتبتي الموسيقية، أي أنني لو بدأت الاستماع إلى ما يحوي منذ الآن فإنني أحتاج إلى ثلاثة أعوام ونصف وربما أكثر بعد إضافة المجموعة الخاصة لصديقي أحمد جمال الدين الفنان السكندري، وما أدراكم من هو أحمد جمال الدين!

لي حديث عنه في يوميات قادمة، إنه باختصار أحد مصادري الكبرى في الموسيقى الشرقية والنوادر منها التي لا توجد في الإذاعة.

تقطع الطائرة المجال الجوي للولايات المتحدة من الشرق إلى الغرب، رغم وجود أكثر من قناة في شاشة التليفزيون، ثمة أفلام ومسلسلات وبرامج، لكنني أفضل دائمًا القناة التي توضح موضع الطائرة وبالتالي موضعي من العالم، وعلى الرغم من أن الشاشة لايبدو عليها إلا خطوط وأسماء للأماكن فقط، فإنني أظل معنيًّا بمعرفة الأماكن التي أمر عليها، والمسافات المنقضية وتلك المتبقية، إنها ليست شيئًا مجردًا، لكنها مسافات مني.. تبدو على الشاشة أسماء الولايات التي نعبرها، بعضها أعرفه من القراءات، والآخر أطالعه لأول مرة، من النافذة تبدو صحارى ممتدة يعقبها جبال كولورادو المغطاة بالثلوج، أما نيفادا فتعني لي المكان الذي يتم فيه إجراء التجارب الذرية، اقرأ اسم «لاس فيجاس» عاصمة القمار الشهيرة والمتعة، وولاية يوتا، وقد دعيت منذ سنوات إلى جامعتها حيث يوجد فيها مركز هام لدراسة الشرق الأوسط يديره أستاذ مصري مرموق كان باحثًا في مؤسسة الأهرام زمن الأستاذ هيكل، إنه الدكتور إبراهيم كروان، في القسم عملت لفترة الأديبة المصرية ريم بسيوني، غير أنني اعتذرت لطول الرحلة ووهن الدافع، هأنذا أقطع رحلة أبعد منها والسبب وجود دافع يخصني، يهون المشاق، حقًّا، ما أغرب ما نحتوي عليه أو نضمره، ما أعجبنا نحن البشر، أعود إلى ولاية يوتا التي يعيش فيها طائفة مسيحية خاصة، طائفة المورمون، وهم يحلون تعدد الزوجات، ويحرمون الخمر، ولهم إنجيل خاص، أعبر الأماكن، أقرأ الأسماء، أطوف بها وأعود من حين إلى حين إلى مدينة كليفلاند بولاية أوهايو، على الحدود الغربية الأمريكية، الكندية، أقرأ الاسم وأستأنف.

الواحــدة ظـهــرًا

ســان فرانســيســكــو

رغم أن الرحلة استغرقت سبع ساعات، فإنني أصل بعد خمس ساعات من الإقلاع، فارق التوقيت بين الساحل الشرقي والغربي ساعتان، أي الفرق بيني وبين القاهرة تسع ساعات، القاهرة مركز أساسي في ترحالي، حتى إنني مهما ابتعدت في أي اتجاه لا أغير توقيت ساعتي، أطرح بالنظر وأزيد لكن لا أبدل موضع عقارب الساعة، وكثيرًا ما أتخيل حركة النهار في المدينة التي أعشق دروبها وأحياءها وبشرها، القاهرة هي مرجعية ذاكرتي الأساسية، يتفرع منها بعض الأماكن الأخرى التي ترتبط بأحداث خاصة في حياتي مثل جبهة السويس ومدينة كليفلاند، أثناء عبوري القارة كنت أفكر وأستدعي بعض الوجوه والملامح التي أعرف أصحابها، المهندس فخري بطرس الذي يقيم قرب واشنطن منذ أن هاجر عام أربعة وسبعين بصحبة أسرته، عملت معه في خان الخليلي، وهو من الفنانين الكبار في صياغة المجوهرات، يفيض وطنية، ولي عنه حديث يطول، يهاتفني في القاهرة وأثناء سفري، والحوار دائمًا حول أحوال الوطن، كنت أستعيد ملامحه خلال رحلتي، تمامًا كما أستعيد وجه العم توفيق حنا، بمجرد علمه بوجودي في الولايات المتحدة يهاتفني يوميًا، نبرات صوته لم أعرف مثلها منذ التقيته في ندوة الأستاذ نجيب محفوظ عام ستين، تفيض رقة وحنوًا وأدبًا جمًا، لابد أنه يقترب الآن من التسعين، وربما تجاوزها، له نصوص نقدية رفيعة وما زلت أذكر تحليلاً رائعًا كتبه لرواية اللص والكلاب عند ظهورها، وكان لأسلوبها الفني تأثير عميق وهام، توفيق حنا من أبناء محافظة قنا، درس اللغة الإنجليزية والفرنسية لأبنائها ومن تلاميذه أمل دنقل، وعبدالرحمن الأبنودي،

لا أعرف شيئًا عن تفاصيل استقراره في الولايات المتحدة، لكن يبدو أن ابنه هاجر واصطحب والده الذي تقدم في مراحل العمر، إلا أن الناقد والإنسان الجميل، المسكون بالوطن، يتنسم من معزله في تلك الولاية الأمريكية النائية أنباء القادمين والذاهبين إلى الوطن الأم، إلى المصدر، يخاطب من يعرفهم عبر الهاتف، ويكتب عما يصله من أعمال جديدة في جريدة صوت بلادي التي يصدرها حبيب غبور في نيويورك.

في مكان ما من هذه البلاد يقيم توفيق حنا ويتواصل بالروح عبر الوطن.

تابعت من نافذة الطائرة توالي تنوع الطبيعة وثرائها، من صحراء إلى جبال، إلى مرتفعات مغطاة بالثلوج، إلى غابات كثيفة، قارة شاسعة بكل ما تحتوي عليه من بشر ومعالم طبيعية أو مضافة.

أخيرًا مطار سان فرانسيسكو، أخرج من البوابة التي سأدخل منها بعد يومين إذا قُدر لي ذلك، ولأن الخطوط داخلية لم أتوقف عند أي مكاتب أو حواجز، ولأنني أحمل حقيبة يد تتضمن كل ما أحتاجه خلال إقامتي، علمني الترحال أن أصحب الضروري جدًّا من الملبس والكتب، وبالطبع الضروريات اللوازم من أدوية وأدوات تخصني للاغتسال والتطهر.

ألمح عند مدخل المطار الدكتور نزار الصياد، جاء الرجل بنفسه ليستقبلني وقد أخبرني من يعرف أنه لا يقدم على هذا مع أي ضيف يفد على المركز، بعد أن ركبنا العربة قال إنه يعرف باستيقاظي مبكرًا، وطول الرحلة، إلا أنه يقترح جولة يطلعني فيها على ملامح المدينة قبل أن نتوجه إلى بيركلي، حيث الفندق وحيث الإقامة، قلت لنفسي ومن مثله يطلعني على جماليات المدينة وهو الخبير بالمدن وأحوالها؟ رحبت فانطلقنا..

إخوة المشردين

لا أدري من أين تشكلت صورة المدينة في ذهني رغم أنني لم أطأ ترابها من قبل، للمدن التي لم أبلغها تصور في ذهني، أحيانًا يكون مصدره الأفلام السينمائية أو البرامج التليفزيونية، أو الصور الفوتوغرافية، أو تجسيد لوصف قرأته في كتاب، دائمًا في حالة تخيل للأماكن، إما أنني أسترجع ما عرفته ونزلته، وإما أتخيل ما لم أصل إليه، يمكن القول بأن ما وجدت عليه سان فرانسيسكو قريب مما تخيلته، خاصة في طبيعة المدينة التي تنحدر شوارعها على مرتفعات صخرية، بل إن بعض الشوارع تنتهي فجأة وتطل على فراغ يليه شارع آخر على مسافة إلى أسفل، فقط شيء واحد اختلف أمره، إنه الضوء، كنت أتخيل المدينة وكأنها في غسق دائم، ربما مصدر التخيل صورة ما، إلا أنني وجدت ضوءًا قويًّا، نفاذًا، مصدره سماء مجلوة ومحيط أزرق ممتد إلى حيث اللامدى، ثمة شيء ما يذكرني ببيروت، خاصة منطقة الجبل، كذلك لمغة البيوت، مررت بالحي الصيني الشهير، في نيويورك أيضًا المدينة الصينية، مدينة داخل مدينة، يتجمع الصينيون إلى جوار بعضهم، المطاعم، اللافتات، كل ما يخصهم، الخضراوات، الفواكه، أنواع الأسماك التي يجيدون التعامل معها وطهيها، بعض منهم لايعرف الإنجليزية، يعيش ويموت داخل المنطقة التي يعيش فيها مواطنوه، يتعامل مع متاجر صينية وبنك صيني. لا يختلطون بما يتجاوز ذلك، في سان فرانسيسكو جالية صينية كبرى، في منطقة الميناء يقف الترام الصغير الشهير، إنه إحدى المواصلات القديمة التي تم الحفاظ على نماذج منها وأصبحت معلمًا سياحيًّا، تذكرت الترام في لشبونة عاصمة البرتغال، إنه شبيه بالترام الذي رأيته هنا، وكذلك الترام الذي عاينته في إستانبول ويمر بشارع الاستقلال المحرم منه العربات وسائر أنواع المواصلات، الترام عربة واحدة رشيقة، ألوانه مبهجة، تحول

من وسيلة مواصلات رئيسية إلى حالة سياحية، ومع ذلك بدأت بعض المدن الكبرى في أوروبا تعيد خطوط الترام مرة أخرى وترى فيه وسيلة اقتصادية للنقل وغير ملوثة للبيئة، هذا ما عاينته في بوردو الفرنسية وباريس الضواحي ومعظم المدن الألمانية، حتى الستينيات كانت مصر تحتفظ بشبكة ممتازة للترام في القاهرة والإسكندرية، لكن بدأ التخلص منها في السبعينيات إلى أن اختفى الترام تقريبًا من القاهرة، وبقى في الإسكندرية، كانت العربات القديمة تسعى فى المدينتين وكان ممكنًا الحفاظ عليها، بعض طرزها اختفت من البلاد التي صنعت فيها، خاصة الترام ذا الطابقين في الإسكندرية، كانت مصر من أوائل دول العالم التي عرفت الترام، وللباحث الأديب محمد سيد كيلاني كتاب طريف، نادر، عن ترام القاهرة وصلته بالحياة الاجتماعية والثقافية، استعدت صورًا شتى من ترام مصر وأنا أقف في منطقة الميناء، هنا مدينة سان فرانسيسكو، الجزء الرئيسي منها، يتبعها أكثر من ثلاثين مدينة صغيرة أو ضاحية، بمعنى آخر منها بيركلي، قال الدكتور نزار إنه سيتجه إلى أعلى نقطة حيث لا زحام وربما لا أحد أيضًا، من هناك يمكننا رؤية الجولدن جيت، أو الجسر المعلق المعروف بالبوابة الذهبية، إنه أحد أكبر جسور العالم.

يمنيان فوق القمة:

طوال الطريق الصاعد إلى أعلى كنت أتطلع إلى الزوايا المختلفة التي أرى منها الجسر الحديدي المعلق، إلى مياه المحيط، هنا شاطئ المحيط الهادئ، لا يمكنني القول إنه يبدأ، لأن كل نقطة حول المحيط بداية ونهاية أيضًا، تمامًا مثل الدائرة، كل نقطة منها بداية ونهاية أيضًا، الحق أن الأمر نسبي دائمًا، فما يمثل بداية بالنسبة لي هو نهاية بالنسبة لغيري، هكذا الأمر في

الزمان أيضًا، من هنا لانهائية الزمان والمكان، طوال السنوات الماضية التي طفت فيها حول الكوكب، كنت إذا بلغت أرضًا قصية في الصين أو الولايات المتحدة، أتوقف متأملاً الأرض، إنها نفس الأرض التي انطلقت منها، فلماذا الترحال إذن؟ لماذا عبور المسافات والإقدام على المخاطرة عبر الانتقال، أهو التوق الإنساني إلى الوقوف على المجهول، حتى إذا بلغنا ما نريد نفاجأ أننا استبدلنا مجهولاً بمجهول؟

ربما..

نترجل من العربة، المكان تقريبًا كما خلق، الألوان لم يمسسها بشر، اخضرار الزرع من شجر وحشائش، الأخضر بدرجاته المختلفة، الأزرق أزرق بمراحله المتصلة المواصلة، إنه المحيط، والوقوف على حافة المحيط يمنح الإنسان بعدًا مغايرًا عما يشعر به عند شاطئ البحر، رغم أن الماء واحد، لكن كلمة محيط تقارب كلمة اللانهاية، إنه المحيط الهادئ، كم تبعد اليابان عن هذا الشاطئ؟ ست عشرة ساعة بالطائرة، مسافة بعيدة، كذلك الصين وفيتنام، آسيا في هذا الاتجاه، الضوء صريح، قوي، نفاذ، لذلك تبدو الألوان في أقصى حالتها من الصراحة، لعلها من المناطق النادرة في العالم التي يخف فيها التلوث والغبش إلى أقل الدرجات، لذلك يبدو كل شيء كما هو، أستكين إلى الصمت، نبدأ السير في الاتجاه الصاعد المحاذي للمنحدر الجبلي، ألمح اثنين جالسين، كما يمكن أن أمضي بصحبة نزار بدون التوقف أمامهما، الناس هنا يتحفظون في لقاءات المصادفة، في مصر بدأ يصلنا ذلك، سواء في السكن أو وسائل المواصلات، كما يمكن أن أمر بهما ولا أتوقف، لولا أنني لاحظت ملامحهما العربية، بل أمكنني تحديد منشئهما، اليمن أو عمان، جنوب الجزيرة، تمامًا كما توقعت ردًّا السلام بالعربية وباللهجة

اليمنية، غير أن المفاجأة التي أذهلت الدكتور نزار أيضًا أنهما لم يردَّا التحية فقط، إنما أتبعاها باسمي، ابتسمت مرحبًا.

– من أين في اليمن؟

– من إب..

– إذن أنتما من بلد عبد العزيز المقالح..؟

– أستاذنا وأستاذ الجميع..

الدكتور عبد العزيز المقالح من المثقفين العرب الكبار، أهم مفكر يمني معاصر، شاعر كبير ورئيس جامعة صنعاء الأسبق، عدت إلى الحديث إليهما، إنهما يدرسان الطب في الولايات المتحدة، يقيمان في سان دييجو القريبة، جاءا لزيارة أقاربهما، أما كيف تعرفا إليَّ فهذا من التليفزيون، وبالتحديد من برنامج تجليات مصرية الذي أعددته لقناة دريم عن القاهرة القديمة، إنه التليفزيون وتأثيره الواسع، تأثير الصورة، اقترحت على الدكتور نزار أن يكون ذلك موضوعًا لدراسة يقوم بها أو يكلف بها أحد تلاميذه، خاصة أنه طرق بالبحث أبواب السينما من خلال دراسة جميلة عن عمارة نيويورك من خلال الأفلام والمسلسلات التليفزيونية، إنه يخطط لبحث مماثل عن القاهرة من خلال الأفلام التي صورت بها منذ العشرينيات وحتى الآن، عدنا إلى الطريق متجهين إلى بيركلي حيث الجامعة والفندق الذي أقيم فيه، أن يتعرف أحد على ملامحي في الغربة فهذا عادي بعد تكرار ظهوري في التليفزيون، المفارقة هنا ذلك المكان القصي المشرف على لانهائية المحيط حيث لانتوقع أي إنسان!

بيـركلـي

من نافذة غرفتي في الفندق القديم، كان ممكنًا لي أن أرى المدينة، الجزء الأكبر منها، أما الجامعة فتقوم في مواجهتي، أميزها من البرج المرتفع الذي يتوسط المباني الرئيسية منها، لايوجد تجمع مبانٍ واضح مثل جامعة القاهرة، الأهم أنه لا توجد قبة، دائمًا أقول إنني عندما زرت جامعة إكسفورد عام ثمانين من القرن الماضي دهشت لأنه لا توجد قبة مع أن كل كلية لها ما يشبه القبة، لقد شكلت قبة جامعة القاهرة الضخمة والتي تعتبر أثرًا ورمزًا فريدًا، شكلت مرجعية لما يجب أن تكون عليه الجامعة وأسهم في ترسيخ صورتها الأفلام السينمائية، جامعة بيركلي أقدم من جامعة القاهرة بعدة سنوات؛ إذ أنشئت في نهاية القرن التاسع عشر، وتعتبر الأولى فى الغرب الأمريكي، عدد الأساتذة الذين حصلوا على جائزة نوبل والذين يمتون إليها بصلة سبعة وثلاثون أستاذًا في المجالات العلمية والإنسانية، من هنا يمكن لنا أن نتعرف على أهمية البحث العلمي في الولايات المتحدة والذي يضعها في المرتبة الأولى بالعالم، وكثيرًا ما تمنيت لو أن ميزانية الحروب باهظة التكاليف مثل حربي فيتنام والعراق والدعم العسكري لإسرائيل، لو أن هذه الأموال وجهت إلى دعم الأبحاث العلمية في مجالات الطب والفضاء والبيئة، لنا أن نتخيل ما كان سيعود على الإنسانية، مما علمته هنا أن الأزمة الاقتصادية الكبرى التي تمر بها الولايات المتحدة حتى الآن كان لها تأثير سلبي على الجامعات الكبرى، على سبيل المثال كانت وقفية (أوقاف) هارفرد مائة وستين مليون دولار، نزلت بعد الأزمة إلى تسعين وانعكس هذا على هذا المنح المجانية للطلبة والباحثين، وفي رأيي أن هذا من أخطر آثار الأزمة الاقتصادية، فما يصيب البحث العلمي من قصور يصعب إصلاحه في المدى القصير، كنت بالطبع أقارن بين البحث العلمي في الولايات المتحدة وأحوالنا

هنا ولا أملك إلا الرثاء لنا، ولما آلت إليه أحوالنا، عندما أسس محمد علي باشا، الألباني، الأمي، الدولة المصرية الحديثة، اهتم بالعلم وإيفاد البعثات إلى أوروبا، لدراسة العلوم كافة، حتى إنه أوفد بعثة إلى إيطاليا لدراسة فن تجليد الكتب، في ميراثنا القريب التجربة والعبر لكن من يقرأ ومن يستفيد؟

في الفندق المريح رحت أفكر في الأيام التي قضتها ابنتي ماجدة هنا عندما كانت تعد رسالتها لدرجة الماجستير في لندن، جاءت إلى بيركلي لمقابلة الدكتور نزار الذي كان يشرف على رسالتها، أقامت في هذا الفندق، لم تخبرني برقم الغرفة، لم أعرفها، حدثتني عن مقهى على الناصية كانت تتناول فيه إفطارها، وعلمت أن من بين الذين يجلسون على المقهى عددًا من العلماء الحاصلين على نوبل، تعرفت إلى اثنين منهم، حصول عالم على نوبل في جامعة أمريكية حدث عادي جدًّا، حملة نوبل يجلسون على المقاهي ويتجولون بين الناس، من جامعة واحدة يوجد سبعة وثلاثون حصلوا على الجائزة في مجالات معقدة من العلم، هكذا يكون التقدم.

علم فلسطين:

حتى لو أمضيت ساعات في مدينة أبلغها أول مرة أحاول أن أمسك بروحها، لكل مدينة ملامح مثل البشر، الحقيقة أن الدكتور نزار منحني جزءًا كبيرًا من وقته، وأبدى عناية أخجلتني، كان يشرح لي تواريخ البنايات والشوارع، ويستعيد بعض الأحداث التي جرت، إنه مدير مركز أبحاث الشرق الأوسط، أحد المراكز العلمية المهمة في الجامعات الأمريكية، هذا موقع علمي رفيع يشغله منذ ربع قرن، رغم رفقته لي فقد كنت أخرج في الصباح الباكر وحيدًا أتجول في الشوارع أثناء استيقاظ المدينة، أتأمل حركة الناس فيها، لكل مدينة خصوصية تضفيها على من يعيش فيها، تنعكس على

طريقة مشي الناس، تجولهم، اندفاعهم إلى أعمالهم في الطرقات، تمكنت من الوصول إلى مكتبة رئيسية لعلها الأكبر في المدينة، لاحظت انخفاض أسعار الكتب المستعملة عن مثيلاتها في نيويورك، كذلك وجود كتب عديدة من إنتاج الجامعات الأمريكية الأخرى، وجود الجامعة يتجسد في كافة التفاصيل، بدءًا من المكتبات إلى المطاعم، في طريقي عبر الصباح الباكر، لاحظت وجود رجل بلا مأوى، يتخذ من الرصيف مكانًا لفراشه، يضع عددًا كبيرًا من الكتب عن القضية الفلسطينية (باللغة الإنجليزية)، وبين الكتب علم فلسطيني كبير الحجم، علمت أن بيركلي تسمح بوجود المشردين في شوارعها، عكس مدن أخرى مجاورة، لكل ولاية، لكل مدينة قانونها الخاص، كثيرون من المشردين يقيمون على أرصفة بيركلي، أما العلم الفلسطيني فلأن بعضهم يعتبر الشعب الفلسطيني رمزًا للمعاناة الإنسانية الناتجة عن فقدان الوطن والمأوى.

كتـــــاب:

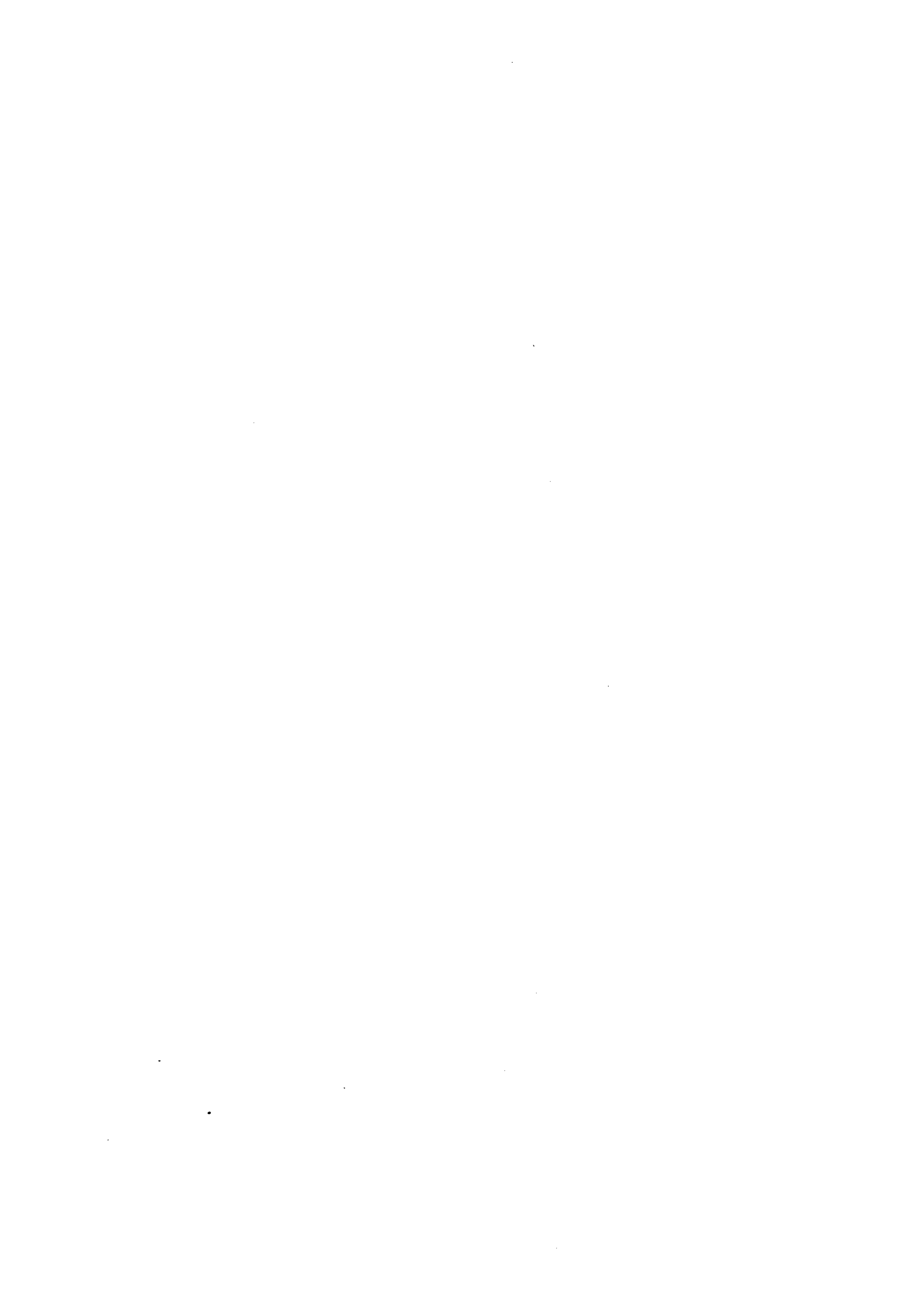
أثناء تفقدي الكتب في المكتبة الضخمة، في الجزء المخصص لكتب الفن، توقفت أمام مجلد للفنان إريك فيشر، فنان أمريكي شهير تعرفت منذ سنوات على فنه من خلال لوحة شهيرة جدًّا الآن في الفن العالمي، اسمها «الولد السيئ»، تصور مراهقًا يجلس في مواجهة سيدة نائمة، بالطبع يحملق أكثر مما يجب، للأسف لايمكن في ظروف النشر الحالية التعريف بهذه اللوحة، فالأساس العام السائد الآن في المجتمع لايفرق بين العُرى الفني والعُرى المبتذل الذي يستهدف إثارة الغرائز، أدى ذلك إلى إلغاء الموديل من كلية الفنون الجميلة، وتبع ذلك إلغاء قسم النحت باعتباره من المحرمات، ثم إلغاء تدريس الفنون الجميلة من المدارس، أي إننا نُعد لنشوء أجيال جديدة

خالية من الحس المرهف والشعور بتجليات الجمال في الوجود، كثيرًا ما أنظر بحسد إلى التلاميذ الصغار يقودهم المدرس في المتاحف الأجنبية وهم يصغون إلى شرحه للوحة فنية أو تمثال، مثل هذه التربية لا تؤدي إلى انحرافات وظواهر شاذة كتلك التي نسمع عنها ونقرأ الآن في مجتمعنا، رحت أقلب المجلد، هذا سجل شامل لأعماله، بدأ ترددي عندما وجدته ثقيلاً، كان ثمنه في حدود ثلاثين دولارًا، أثناء السفر أتحسب للوزن خاصة عندما أكون مسافرًا على شركة خطوط أجنبية، أخيرًا قررت أن أحسم الأمر، فلأرجئ اقتناء الكتاب إلى فرصة أخرى، يمكنني أن أجده في مكتبة ستراند بنيويورك، اقتنيت كتبًا أخرى، منها أنطولوجي للشعر الصيني الكلاسيكي، وعندي مراجع شتى لهذا الشعر العظيم، ما أعجبني في الكتاب أن كل قصيدة مقترنة برسم تقليدي أيضًا وشرح موجز، كتاب آخر عن تصميم أغلفة الكتب، كتاب ثالث عن الشذوذ الجنسي في التراث العربي لباحث أقرأ اسمه لأول مرة، خالد الدويحب، من مطبوعات جامعة شيكاجو، كتاب رابع عن أهم مائة صورة فوتوغرافية في القرن العشرين، يكفي هذا، عدت إلى الفندق، في الخامسة بدأت اللقاء في مركز الدراسات وحضره أساتذة الأدب العربي في الجامعة والجامعات القريبة، وطلبة الدراسات العليا الذين يعدون رسالات لنيل الدكتوراه والماجستير، تحدثت لمدة خمس وأربعين دقيقة عن خصوصية الرواية العربية التي سعيت إلى تحقيقها من خلال تجربتي، وتلا ذلك مناقشة لمدة خمس وأربعين دقيقة، لفت نظري تصميم مكاتب المركز الذي أعده الدكتور نزار الصياد والذي يوفق إلى حد مدهش بين مقتضيات الحداثة والفن العربي، بعد عشاء في مطعم يطل على المحيط عدت إلى الفندق، تأملت الكتب، ثم بدأت أتساءل، لماذا لم أقتن كتاب إريك فيشر؟ كما توقعت تصاعد الندم، أدعي دائمًا أن التجربة علمتني ألا أترك كتابًا أرغبه

أو أسطوانة، ما زلت أندم على مجموعة أسطوانات مضغوطة في علبة أنيقة رأيتها في مطار أثينا، عمل أوبرالي يجمع بين الموسيقى اليونانية والتركية، هذه حالة فريدة، ترددت لأن السعر كان مرتفعًا، حوالي مائتي يورو، غير أن الندم آلمني بعد ذلك، النقود تذهب وتجيء، أما الكتاب النادر والأسطوانة فلا يمكن العثور عليها بسهولة، هكذا. ما إن حل منتصف الليل في بيركلي حتى كنت أتقلب ندمًا، لماذا لم أقتنِ مجلد أريك فيشر؟ خشيت أن يسبب لي هذا أرقًا ليلة سفري، المسافة طويلة إلى نيويورك سبع ساعات والأحوال الصحية مقلقة، قررت أن أتجه إلى المكتبة في التاسعة، سيأتي الدكتور نزار ليصحبني إلى المطار في العاشرة، هكذا استيقظت مبكرًا، الشوارع شبه خالية، للأسف وجدت المكتبة مغلقة، تفتح أبوابها في العاشرة، لم يكن أمامي في نيويورك إلا يوم واحد، بعده أطير إلى أبو ظبي لتسلم جائزة الشيخ زايد في الأدب، هكذا مضيت إلى مكتبة ستراند التي لا تكتمل زيارتي إلى نيويورك إلا بها، اتجهت مباشرة إلى قسم الفن في الطابق الثاني، مجلد عن فيشر لكنه ليس الكتاب نفسه الذي لم أقتنه في بيركلي، لم يكن أمامي غيره، بسرعة مضيت لأدفع ثمنه، ثمانين دولارًا بدلاً من ثلاثين هناك، ليس مهمًّا، المهم أنني أعود به لأتأمله بين الحين والحين، مستمتعًا بما أراه من لوحات فنية فريدة، آسفًا في الوقت نفسه؛ لأنني لا أقدر على نشرها في أخبار الأدب.

نيويورك 2006-2009

الفهرس



أحـــدث إصـــدارات

الأستـاذ

جمال الغيطاني

- آفاق الذاكرة.
- توت العيون.
- حمام الحمى . . يوميات الحج.
- الطريق إلى الجهات الأصلية.
- مجرات الروح.
- مقاربة الأبد.
- ملامح القاهرة في ألف سنة.
- مقاصد الأسفار.
- مدينة الغرباء.


دار نهضة مصر
للنشر

مدينة الغرباء

مطالع نيويوركية

جمال الغيطاني

ينتمي هذا الكتاب - من حيث التصنيف الأدبي - إلى أدب الرحلات، ولكن الكاتب الكبير / جمال الغيطاني يقدم هذا الفن الأدبي بأسلوب متميز يجعله متفردًا بين كثير ممن يكتبون في هذا الفن.

فبين قدرة فائقة على الحكي ولغة جمالية متميزة يأتي هذا الكتاب ليقدم لنا قطعة أدبية راقية دون أن تغفل الاهتمام بالمضمون؛ إذ يقابلنا هنا رؤية عميقة للولايات المتحدة الأمريكية على المستويات السياسية والاجتماعية والثقافية، وذلك من خلال مجموعة كبيرة من المواقف اليومية والمشاهدات الشخصية التي تقرب القارئ من المضمون دون أي إحساس بالملل أو الزهق.

باختصار يجمع هذا الكتاب بين جودة المضمون ورقي الأداء الفني، وهما غايتان نادرًا ما تجتمعان في كتاب واحد.



www.nahdetmisr.com

